في ظلال القرآن

الجزء التاسع والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

في ظلال القرآن

الجزء التاسع والعشرون

بقلم

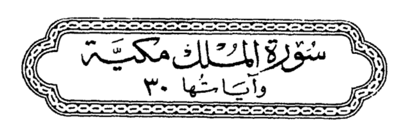
سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه



من سورة الملك والقلم والحاقة والمعارج ونوح والجن والمزمل والمدثر
والإنسان والمرسلات



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ * ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَانِ مِن تَفَاوُتٍ ، فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ؟ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ .

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ، كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ * قَالُوا : بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا : مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ، إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ !

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

« وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ؟

« هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ،

وَإِلَيْهِ ٱلنشُورُ * أَأَمِنْتُمْ منْ فِي ٱلسَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ؟ * أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ؟ فَستَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ *وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّات وَيَقْبِضْنَ ؛ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَانُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ * أَمْ مَنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ ٱلرَّحْمَانِ ؟ إِنِ ٱلْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ *أَمْ مَنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ؟ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ * أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ ؟ أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟

« قُلْ : هُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * قُلْ : هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

« وَيَقُولُونَ : مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ * قُلْ : إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِنْدَ ٱللَّهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا. وَقِيلَ : هَٰذَا ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا ؛ فَمَنْ يُجِيرُ ٱلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟

« قُلْ : هُوَ ٱلرَّحْمَانُ آمَنَّا بِهِ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ، فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ؟ » ..

هذا الجزء كله من السور المكية. كما كان الجزء الذى سبقه كله من السور المدنية .ولكل منها طابع مميز ، وطعم خاص . . وبعض مطالع السور فى هذا الجزء من بواكير ما نزل من

القرآن كمطلع سورة «المدثر» ومطلع سورة «المزمل» . كما أن فيه سورا يحتمل أن تكون قد نزلت بعد البعثة بحوالى ثلاث سنوات كسورة «القلم» . وبحوالى عشر سنوات كسورة «الجن» التى يروى أنها نزلت فى عودة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الطائف ، حيث أوذى من ثقيف . ثم صرف الله إليه نفرا من الجن فاستمعوا إليه وهو يرتل القرآن ، مما حكته سورة الجن فى هذا الجزء . وكانت هذه الرحلة بعد وفاة خديجة وأبى طالب قبيل الهجرة بعام أو عامين . وإن كانت هناك رواية أخرى هى الأرجح بأن السورة نزلت فى أوائل البعثة.

والقرآن المكى يعالج ـ فى الغالب ـ إنشاء العقيدة . فى الله وفى الوحى ، وفى اليوم الآخر. وإنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه . والتعريف بالخالق تعريفا يجعل الشعور به حيا فى القلب ، مؤثرا موجها موحيا بالمشاعر اللائقة بعبد يتجه إلى رب ، وبالأدب الذى يلزمه العبد مع الرب ، وبالقيم والموازين التى يزن بها المسلم الأشياء والأحداث والأشخاص . وقد رأينا نماذج من هذا فى السور المكية السابقة ، وسنرى نماذج منه فى هذا الجزء .

والقرآن المدنى يعالج ـ فى الغالب ـ تطبيق تلك العقيدة وذلك التصور وهذه الموازين فى الحياة الواقعية ؛ وحمل النفوس على الاضطلاع بأمانة العقيدة والشريعة فى معترك الحياة ، والنهوض بتكاليفها فى عالم الضمير وعالم الظاهر سواء . وقد رأينا نماذج من هذا فى السور المدنية السابقة ومنها سور الجزء الماضى .

* * *

وهذه السورة الأولى ـ سورة تبارك ـ تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود. تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود ، إلى عوالم فى السماوات، وإلى حياة فى الآخرة . وإلى خلائق أخرى غير الإنسان فى عالم الأرض كالجن والطير ، وفى العالم الآخر كجهنم وخزنتها . وإلى عوالم فى الغيب غير عالم الظاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم ، فلا تستغرق فى الحياة الحاضرة الظاهرة ، فى هذه الأرض . كما أنها تثير فى حسهم التأمل فيما بين أيديهم وفى واقع حياتهم وذواتهم مما يمرون به غافلين .

وهى تهز فى النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ؛ وتفتح المنافذ هنا وهناك ، وتنفض الغبار ، وتطلق الحواس والعقل

والبصيرة ترتاد آفاق الكون ،وأغوار النفس ، وطباق الجو ،ومسارب الماء ،وخفايا الغيوب » فترى هناك يد الله المبدعة ،وتحس حركة الوجود المنبعثة من قدرة الله .وتؤوب من الرحلة وقد شعرت أن الأمر أكبر ،وأن المجال أوسع .وتحولت من الأرض ـ على سعتها ـ إلى السماء .ومن الظواهـر إلى الحقائق . ومن الجمود إلى الحركة . مع حركة القـدر ، وحركة الحيـاة ، وحركة الأحياء .

الموت والحياة أمران مألوفان مكروران . ولـكن السورة تبعث حركة التأمل فيما وراء الموت والحياة من قدر الله وبلائه ،ومن حكمة الله وتدبيره: « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور » .

والسماء خلق ثابت أمام الأعين الجاهلة لاتتجاوزه إلى اليد التى أبدعته ، ولا تلتفت لما فيه من كمال.ولـكن السورة تبعث حركة التأمل والاستغراق فى هذا الجمال والـكمال وماوراءها من حركة وأهداف: « هو الذى خلق سبع سماوات طباقا .ماترى فى خلق الرحمان من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين . . » .

والحياة الدنيا تبدو فى الجاهلية غاية الوجود ، ونهاية المطاف . ولـكن السورة تـكشف الستار عن عالم آخر هو حاضر للشياطين وللـكافرين . وهو خلق آخر حافل بالحركة والتوفز والانتظار :«وأعتدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور . تكاد تميز من الغيظ . كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتـكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فـكذبنا وقلنا : مانزل الله من شىء ؟ إن أنتم إلا فى ضلال كبير وقالو :لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير .فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ! » .

والنفوس فى الجاهلية لاتـكاد تتجاوز هـذا الظاهر الذى تعيش فيه ، ولا تلقى بالا إلى الغيب وما يحتويه . وهى مستغرقة فى الحياة الدنيا محبوسة فى قفص الأرض الثابتـة المستقرة . فالسورة تشد قلوبهم وأنظارهم إلى الغيب وإلى السماء وإلى القدرة التى لم ترها عين ، ولـكنها قادرة تفعل ماتشاء حيث تشاء وحين تشاء ؛ وتهز فى حسهم هذه الأرض الثابتة التى يطمئنون إليها ويستغرقون فيها « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير . وأسروا قولـكم

أو اجهروا به ،إنه عليم بذات الصدور .ألا يعلم من خلق وهواللطيف الخبير ؟ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى منا كبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ؟ فستعلمون كيف نذير » . .

والطير . إنه خلق يرونه كثيرا ولايتدبرون معجزته إلاقليلا . ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنظر وبقلوبهم لتتدبر ، وترى قدرة الله الذى صور وقدر : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ مايمسكهن إلاالرحمان ، إنه بكل شىء بصير » .

وهم آمنون فى دارهم ، مطمئنون إلى مكانهم ، طمأنينة الغافل عن قدرة الله وقدره.ولكن السورة تهزهم من هذا السبات النفسى ، بعد أن هزت الأرض من تحتهم وأثارت الجو من حولهم تهزهم على قهر الله وجبروته الذى لايحسبون حسابه : « أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمان ؟ إن الكافرون إلا فى غرور » .

والرزق الذى تناله أيديهم ، إنه فى حسهم قريب الأسباب ، وهى بينهم تنافس وغلاب . ولكن السورة تمد أبصارهم بعيدا هنالك فى السماء ، ووراء الأسباب المعلومة لهم كما يظنون: « أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا فى عتو ونفور » . .

وهم سادرون فى غيهم يحسبون أنهم مهتدون وهم ضالون . فالسورة ترسم لهم حقيقة حالهم وحال المهتدين حقا ، فى صورة متحركة موحية : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ؟ أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ » .

وهم لاينتفعون بما رزقهم الله فى ذوات أنفسهم من استعدادات ومدارك ؛ ولايتجاوزون ماتراه حواسهم إلى التدبر فيما وراء هذا الواقع القريب . فالسورة تذكرهم بنعمة الله فيما وهبهم ، وتوجههم إلى استخدام هذه الهبة فى تنور المستقبل المغيب وراء الحاضر الظاهر ، وتدبر الغاية من هذه البداية : « قل : هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ماتشكرون . قل : هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون » . .

وهم يكذبون بالبعث والحشر ، ويسألون عن موعده . فالسورة تصوره لهم واقعا مفاجئا قريبا يسوءهم أن يكون : « ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين . فلمارأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل : هـذا الذى كنتم به تدعون ! » . .

وهم يتربصون بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه أن يهلكوا فيستريحوا من هذا الصوت الذى يقض عليهم مضجعهم بالتذكير والتحذير والإيقاظ من راحة الجمود ! فالسورة تذكرهم بأن هلاك الحفنة المؤمنة أو بقاءها لا يؤثر فيما ينتظرهم هم من عذاب الله على الكفر والتكذيب ، فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم وحالهم قبل ذلك اليوم العصيب : « قل : أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ؟ قل : هو الرحمان آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين »

وتنذرهم السورة فى ختامها بتوقع ذهاب الماء الذى به يعيشون ، والذى يجريه هو الله الذى به يكفرون ! « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ؟ » . .

إنها حركة . حركة فى الحواس ، وفى الحس ، وفى التفكير ، وفى الشعور .

* * *

ومفتاح السورة كلها ، ومحورها الذى تشد إليه تلك الحركة فيها ، هو مطلعها الجامع الموحى: « تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير » . .

وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التى عرضتها السورة ، وسائر الحركات المغيبة والظاهرة التى نبهت القلوب إليها . .

فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة ، وكان الابتلاء بهما . وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوما للشياطين . وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها . وكان العلم بالسر والجهر . وكان جعل الأرض ذلولا للبشر . وكان الخسف والحاصب والنكير على المكذبين الأولين . وكان إمساك الطير فى السماء . وكان القهر والاستعلاء . وكان الرزق كما يشاء . وكان الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة . وكان الذرء فى الأرض والحشر . وكان الاختصاص بعلم الآخرة . وكان عذاب الكافرين . وكان الماء الذى به الحياة وكان الذهاب به عندما يريد . .

فكل حقائق السورة وموضوعاتها ، وكل صورها وإيحاءاتها مستمدة من إيحاء ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير : « تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير » !!

وحقائق السورة وإيحاءاتها تتوالى فى السياق ، وتتدفق بلا توقف ، مفسرة مدلول المطلع المجمل الشامل ، مما يصعب معه تقسيمها إلى مقاطع ! ويستحسن معه استعراضها فى سياقها بالتفصيل :

* * *

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » ..

هذه التسبيحة فى مطلع السورة توحى بزيادة بركة الله ومضاعفتها ، وتمجيد هذه البركة الرابية الفائضة . وذكر الملك بجوارها يوحى بفيض هذه البركة على هذا الملك ، وتمجيدها فى الكون بعد تمجيدها فى جناب الذات الإلهية . وهى ترنيمة تتجاوب بها أرجاء الوجود ، ويعمر بها قلب كل موجود . وهى تنطلق من النطق الإلهى فى كتابه الكريم ، من الكتاب المكنون ، إلى الكون المعلوم .

«تبارك الذى بيده الملك » . . فهو المالك له ، المهيمن عليه ، القابض على ناصيته ،المتصرف فيه . . وهى حقيقة . حين تستقر فى الضمير تحدد له الوجهة والمصير ؛ وتخليه من التوجه أو الاعتماد أوالطلب من غير المالك المهيمن المتصرف فى هذا الملك بلاشريك ؛ كما تخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد ، والسيد الفريد !

« وهو على كل شىء قدير » . . فلا يعجزه شىء ،ولا يفوته شىء ،ولا يحول دون إرادته شىء ، ولا يحد مشيئته شىء . يخلق مايشاء ، ويفعل مايريد ، وهو قادر على مايريده غالب على أمره ؛ لاتتعلق بإرادته حدود ولا قيود . . وهى حقيقة حين تستقر فى الضمير تطلق تصوره لمشيئة الله وفعله من كل قيد يرد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال ! فقدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أى حال . . والقيود التى ترد على تصور البشر بحكم تكوينهم المحدود تجعلهم أسرى لما يألفون فى تقدير مايتوقعون من تغيير وتبديل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود . فهذه الحقيقة تطلق حسهم من هذا الإسار . فيتوقعون من قدرة الله كل شىء بلا حدود. ويكلون لقدرة الله كل شىء بلا قيود . وينطلقون من أسر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود .

***

« الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور » . .

ومن آثار تمكنه المطلق من الملك وتصريفه له ،وآثار قدرته على كل شىء وطلاقة إرادته.. أنه خلق الموت والحياة . والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق لها . والحياة تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة . وكلها من خلق الله كما تقرر هذه الآية . التى تنشىء هذه الحقيقة فى التصور الإنسانى ؛ وتثير إلى جانبها اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء . فليست

المسألة مصادفة بلا تدبير . وليست كذلك جزافا بلا غاية . إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون فى علم الله من سلوك الأناسى على الأرض ، واستحقاقهم للجزاء على العمل : « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .. واستقرار هذه الحقيقة فى الضمير يدعه أبدا يقظا حذرا متلفتا واعيا للصغيرة والكبيرة فى النية المستسرة والعمل الظاهر . ولايدعه يغفل أويلهو . كذلك لايدعه يطمئن أويستريح . ومن ثم يجىء التعقيب : « وهو العزيز الغفور » ليسكب الطمأنينة فى القلب الذى يرعى الله ويخشاه . فالله عزيز غالب ولكنه غفور مسامح . فإذا استيقظ القلب ، وشعر أنه هنا للابتلاء والاختبار ، وحذر وتوقى ، فإن له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته وأن يقر عندها ويستريح !

إن الله فى الحقيقة التى يصورها الإسلام لتستقر فى القلوب ، لايطارد البشر ، ولايعنتهم ، ولا يحب أن يعذبهم . إنما يريد لهم أن يتيقظوا لغاية وجودهم ؛ وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم ؛ وأن يحققوا تكريم الله لهم بنفخة روحه فى هذا الكيان وتفضيله على كثير من خلقه. فإذا تم لهم هذا فهناك الرحمة السابغة والعون الكبير والسماحة الواسعة والعفو عن كثير .

* * *

ثم يربط هذه الحقيقة بالكون كله فى أكبر وأرفع مجاليه ؛ كما يربطه من الناحية الأخرى حقيقة الجزاء فى الآخرة ، بعد الابتلاء بالموت والحياة :

« الذى خلق سبع سماوات طباقا ، ماترى فى خلق الرحمان من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوما للشياطين ، وأعتدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم ، وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور . تكاد تميز من الغيظ ، كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : مانزل الله من شىء ، إن أنتم إلافى ضلال كبير . وقالوا : لوكنا نسمع أونعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ! » .

وكل مافى هذه الآيات آثار لمدلول الآية الأولى ، ومظاهر للهيمنة المتصرفة فى الملك ، وللقدرة التى لايقيدها قيد . ثم هى بعد ذلك تصديق للآية الثانية من خلق الموت والحياة للابتلاء ، ثم الجزاء ..

والسماوات السبع الطباق التى تشير إليها الآية لايمكن الجزم بمدلولها ، استقاء من نظريات الفلك ، فهذه النظريات قابلة للتعديل والتصحيح ، كلما تقدمت وسائل الرصد والكشف . ولا يجوز تعليق مدلول الآية بمثل هذه الكشوف القابلة للتعديل والتصحيح . ويكفى أن نعرف أن هناك سبع سماوات . وأنها طباق بمعنى أنها طبقات على أبعاد متفاوتة .

والقرآن يوجه النظر إلى خلق الله . فى السماوات بصفة خاصة وفى كل ماخلق بصفة عامة . يوجه النظر إلى خلق الله ، وهو يتحدى بكماله كمالا يرد البصر عاجزا كليلا مبهورا مدهوشا .

« ماترى فى خلق الرحمان من تفاوت » . . فليس هناك خلل ولا نقص ولا اضطراب . . «فارجع البصر».. وانظر مرة أخرى للتأكد والتثبت « هل ترى من فطور ؟ » .. وهل وقع نظرك على شق أو صدع أو خلل؟ « ثم ارجع البصر كرتين » فربما فاتك شيء فى النظرة السابقة لم تتبينه ، فأعد النظر ثم أعده « ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » ..

وأسلوب التحدى من شأنه أن يثير الاهتمام والجد فى النظر إلى السماوات وإلى خلق الله كله . وهذه النظرة الحادة الفاحصة المتأملة المتدبرة هى التى يريد القرآن أن يثيرها وأن يبعثها. فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هـذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق ، الذى لا تشبع العين من تملى جماله وروعته ، ولا يشبع القلب من تلقى إيحاءاته وإيماءاته ؛ ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته . والذى يعيش منه من يتأمله بهذه العين فى مهرجان إلهى باهر رائع ، لاتخلق بدائعه ، لأنها أبدا متجددة للعين والقلب والعقل .

والذى يعرف شيئا عن طبيعة هذا الكون ونظامه ــ كما كشف العلم الحديث عن جوانب منهـا ــ يدركه الدهش والذهول . ولكن روعة الكون لاتحتاج إلى هذا العلم . فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل ؛ فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقيا مباشرا حين يتفتح ويستشرف . ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحى مع الحى ، قبـل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئا عن هـذا الخلق الهائل العجيب .

ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر فى هذا الكون ، وإلى تملى مشاهده وعجائبه . ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعا ، وفى كل عصر . يخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء ، كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار . وهو يخاطب الأمى الذى لم يقرأ ولم يخط حرفا ، كما يخاطب

العالم الفلكى والعالم الطبيعى والعالم النظرى سواء. وكل واحد من هؤلاء يجد فى القرآن مايصله بهذا الكون ، وما يثير فى قلبه التأمل والاستجابة والمتاع .

والجمال فى تصميم هذا الكون مقصود كالكمال . بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة . فالكمال يبلغ درجة الجمال . ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعدأن وجه النظر إلى كمالها :

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » . .

وما السماء الدنيا ؟ لعلها هى الأقرب إلى الأرض وسكانها المخاطبين بهذا القرآن . ولعل المصابيح المشار إليها هنا هى النجوم والكواكب الظاهرة للعين ، التى نراها حين ننظر إلى السماء . فذلك يتسق مع توجيه المخاطبين إلى النظر فى السماء . وما كانوا يملكون إلا عيونهم ، وما تراه من أجرام مضيئة تزين السماء .

ومشهد النجوم فى السماء جميل . مافى هذا شك . جميل جمالا يأخذ بالقلوب . وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته ؛ ويختلف من صباح إلى مساء ، ومن شروق إلى غروب ، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء . ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب . . بل إنه ليختلف من ساعة لساعة . ومن مرصد لمرصد . ومن زاوية لزاوية . . وكله جمال وكله يأخذ بالألباب .

هذه النجمة الفريدة التى توصوص هناك ، وكأنها عين جميلة ، تلتمع بالمحبة والنداء !

وهاتان النجمتان المنفردتان هناك ، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان !

وهذه المجموعات المتضامة المتناثرة هنا وهناك، وكأنهافى حلقة سمرفى مهرجان السماء . وهى تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة فى مهرجان !

وهذا القمر الحالم الساهى ليلة . والزاهى المزهو ليلة . والمنكسر الخفيض ليلة . والوليد المتفتح للحياة ليلة . والفانى الذى يدلف للفناء ليلة . . !

وهذا الفضاء الوسيع الذى لا يمل البصر امتداده ، ولا يبلغ البصر آماده .

إنه الجمال . الجمال الذى يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه، ولكن لايجد له وصفا فيما يملك من الألفاظ والعبارات !

والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء ،وإلى جمال الكون كله ، لأن إدراك جمال الوجود

هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود . وهذا الإدراك هو الذى يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه ، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التى يتهيأ فيها للحياة الخالدة ، فى عالم طليق جميل ، برىء من شوائب العالم الأرضى والحياة الأرضية . وإن أسعد لحظات القلب البشرى لهى اللحظات التى يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهى فى الكون . ذلك أنها هى اللحظات التى تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهى ذاته ويتملاه .

* * *

ويذكر النص القرآنى هنا أن هذه المصابيح التى زين الله السماء الدنيا بها هى كذلك ذات وظيفة أخرى :

« وجعلناها رجوما للشياطين » . .

وقد جرينا فى هذه الظلال على قاعدة ألا نزيد بشىء فى أمر الغيبيات التى يقص الله علينا طرفا من خبرها ؛ وأن نقف عند حدود النص القرآنى لا نتعداه . وهو كاف بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور .

فنحن نؤمن أن هناك خلقا اسمهم الشياطين ، وردت بعض صفاتهم فى القرآن ، وسبقت الإشارة إليها فى هذه الظلال ، ولا نزيد عليها شيئا ونحن نؤمن أن الله جعل من هذه المصابيح التى تزين السماء الدنيا رجوما للشياطين ، فى صورة شهب كما جاء فى سورة أخرى : « وحفظا من كل شيطان مارد إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » . . كيف ؟ من أى حجم ؟ فى أية صورة ؟ كل ذلك لم يقل لنا الله عنه شيئا، وليس لنا مصدر آخر يجوز استفتاؤه فى مثل هذا الشأن . فلنعلم هذا وحده ولنؤمن بوقوعه . وهذا هو المقصود . ولو علم الله أن هناك خيرا فى الزيادة أو الإيضاح أو التفصيل لفصل سبحانه . فما لنا نحن نحاول ما لم يعلم الله أن فيه خيرا ؟ : فى مثل هذا الأمر . أمر رجم الشياطين ؟ !

ثم يستطرد فيما أعده الله للشياطين غير الرجوم :

« وأعتدنا لهم عذاب السعير » . .

فالرجوم فى الدنيا وعذاب السعير فى الآخرة لأولئك الشياطين . ولعل مناسبة ذكر هذا . الذى أعده الله للشياطين فى الدنيا والآخرة هى ذكر السماء أولا ، ثم ما يجىء بعد من ذكر الذين كفروا . والعلاقة بين الشياطين والذين كفروا علاقة ملحوظة . فلما ذكر مصابيح السماء

ذكر اتخاذها رجوما للشياطين . ولما ذكر ماأعد للشياطين من عذاب السعير ذكر بعده ماأعده للذين كفروا من أتباع هؤلاء الشياطين :

« وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير » . .

ثم يرسم مشهدا لجهنم هذه ، وهى تستقبل الذين كفروا فى غيظ وحنق شديد :

« إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور . تكاد تميز من الغيظ ! » . .

وجهنم هنا مخلوقة حية ، تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها فى شهيق وتفور ؛ ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم وهى تنطوى على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين !

والتعبير فى ظاهره يبدو مجازا تصويرياً لحالة جهنم . ولكنه — فيما نحس — يقرر حقيقة . فكل خليقة من خلائق الله حية ذات روح من نوعها . وكل خليقة تعرف ربها وتسبح بحمده ؛ وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه ، وتتغيظ لهذا الجحود المنكر الذى تنكره فطرتها وتنفر منه روحها وهذه الحقيقة وردت فى القرآن فى مواضع شتى تشعر بأنها تقرر حقيقة مكنونة فى كل شىء فى هذا الوجود .

فقد جاء بصريح العبارة فى القرآن : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم » . . وورد كذلك : « ياجبال أوبى معه والطير » . . وهى تعبيرات صريحة مباشرة لامجال فيها للتأويل .

كذلك ورد « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض : إئتيا طوعا أو كرها قالتا : أتينا طائعين » . . مما يحتمل أن يقال فيه إنه مجاز تصويرى لحقيقة خضوع السماء والأرض لناموس الله . ولكن هذا التأويل لاضرورة له . بل هو أبعد من المعنى المباشر الصريح .

ووردت صفة جهنم هذه . كما ورد فى موضع آخر تعبير عن دهشة الكائنات وغيظها للشرك بربها: « لقد جئتم شيئا إدًّا . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمان ولدا ، وماينبغى للرحمان أن يتخذ ولدا » . .

وكل هذه النصوص تشير إلى حقيقة . حقيقة إيمان الوجود كله بخالقه ، وتسبيح كل شىء بحمده . ودهشة الخلائق وارتياعها لشذوذ الإنسان حين يكفر ، ويشذ عن هذا الموكب ؛ وتحفز هذه الخلائق للانقضاض على الإنسان فى غيظ وحنق ؛ كالذى يطعن فى عزيز عليه كريم

على نفسه ، فيغتاظ ويحنق ، ويكاد من الغيظ يتمزق . كما هو حال جهنم وهى : « تفور . تكاد تميز من الغيظ ! » .

كذلك نلمح هذه الظاهرة فى خزنة جهنم :

« كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها . ألم يأتكم نذير ؟ » ..

وواضح أن هذا السؤال فى هذا الموضع هو للتأنيب والترذيل . فهى مشاركة لجهنم فى الغيظ والحنق . كما هى مشاركة لها فى التعذيب ، وليس أمرّ من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب !

والجواب فى ذلة وانكسار واعتراف بالحمق والغفلة ، بعد التبجح والإنكار واتهام الرسل بالضلال :

« قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا ، وقلنا : مانزل الله من شىء .إن أنتم إلا فى ضلال كبير . وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ! » . .

فالذى يسمع أو يعقل ، لايورد نفسه هذا المورد الوبىء .ولا يجحد بمثل ماجحد به أولئك المناكيد .ولا يسارع باتهام الرسل بالضلال على هذا النحو المتبجح الوقح ، الذى لايستند فى الإنكار إلى دليل . ثم ينكر ويدعى ذلك الادعاء العريض على رسل الله الصادقين يقول : ما نزل الله من شىء : إن أنتم إلا فى ضلال كبير » !

« فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » . .

والسحق البعد . وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبهم فى الموقف الذى لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه . والدعاء من الله قضاء . فهم مبعدون من رحمته . لارجاء لهم فى مغفرة ، ولا إقالة لهم من عذاب . وهم أصحاب السعير الملازمون له . ويالها من صحبة ! وياله من مصير !

وهذا العذاب ، عذاب السعير ، فى جهنم التى تشهق بأنفاسها وهى تفور ، عذاب شديد مروع حقا . والله لايظلم أحدا .ونحسب ــ والله أعلم ــ أن النفس التى تكفر بربها ــ وقد أودع فطرتها حقيقة الإيمان ودليله ــ هى نفس فرغت من كل خير. كما فرغت من كل صفة تجعل لها اعتبارا فى الوجود ، فهى كالحجر الذى توقد به جهنم .وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار . إلى غير نجاة منها ولا فرار !

والنفس التى تكفر بالله فى الأرض تظل تنتكس وترتكس فى كل يوم تعيشه، حتى تنتهى إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة ، صورة منكرة جهنمية نكيرة . صورة لايماثلها شىء فى هذا الكون فى بشاعتها ومسخها وشناعتها . فكل شىء روحه مؤمنة ، وكل شىء يسبح بحمد ربه، وكل شىء فيه هذا الخير ، وفيه هذه الوشيجة التى تشده إلى محور الوجود.. ماعدا هذه النفوس الشاردة المفلتة من أواصر الوجود، الآبدة الشريرة ، الجاسية الممسوخة النفور. فأى مكان فى الوجود كله تنتهى إليه ،وهى مبتوتة الصلة بكل شىء فى الوجود؟إنها تنتهى إلى جهنم المتغيظة المتلمظة ، الحارقة . المهدرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة ؛بعدأن لم يعد لتلك النفوس معنى ولاحق ولا كرامة !

والمألوف فى سياق القرآن أن يعرض صفحتين متقابلتين فى مشاهد القيامة . فهو يعرض هنا صفحة المؤمنين فى مقابل صفحة الكافرين ، تتمة لمدلول الآية الثانية فى السورة: « ليبلوكم أيكم أحسن عملا ».. بذكر الجزاء بعد ذكر الأبتلاء :

« إن الذين يخشون ربهم بالغيب ، لهم مغفرة وأجر كبير » ..

والغيب المشار إليه هنا يشمل خشيتهم لربهم الذى لم يروه ، كما يشمل خشيتهم لربهم وهم فى خفية عن الأعين . وكلاهما معنى كبير ، وشعور نظيف ، وإدراك بصير . يؤهل لهذا الجزاء العظيم الذى يذكره السياق فى إجمال : وهو المغفرة والتكفير ، والأجر الكبير .

ووصل القلب بالله فى السر والخفية، وبالغيب الذى لاتطلع عليه العيون، هوميزان الحساسية فى القلب البشرى وضمانة الحياة للضمير . . قال الحافظ أبوبكر البزار فى مسنده : حدثنا طالوت ابن عباد ، حدثنا الحارث ابن عبيد ، عن ثابت، عن أنس ، قال : قالوا : يارسول الله إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقناك كنا على غيره . قال :« كيف أنتم وربكم ؟ » قالوا: الله ربنا فى السر والعلانية . قال : « ليس ذلكم النفاق » . .

فالصلة بالله هى الأصل . فمتى انعقدت فى القلب فهو مؤمن صادق موصول .

***

وهذه الآية السابقة تربط ماقبلها فى السياق بما بعدها ، فى تقرير علم الله بالسر والجهر، وهو يتحدى البشر وهو الذى خلق نفوسهم ، ويعلم مداخلها ومكامنها ، التى أودعها إياها :

«وأسروا قولكم أواجهروا به، إنه عليم بذات الصدور. ألا يعلم من خلق؛ وهو اللطيف الخبير؟» .

أسروا أو اجهروا فهو مكشوف لعلم الله سواء . وهو يعلم ماهو أخفى من الجهر والسر . «إنه عليم بذات الصدور » التى لم تفارق الصدور ! عليم بها ، فهو الذى خلقها فى الصدور ، كما خلق الصدور ! « ألا يعلم من خلق ؟ » ألا يعلم وهو الذى خلق ؟ « وهو اللطيف الخبير ؟ » الذى يصل علمه إلى الدقيق الصغير والخفى المستور .

إن البشر وهم يحاولون التخفى من الله بحركة أو سر أو نية فى الضمير ، يبدون مضحكين! فالضمير الذى يخفون فيه نيتهم من خلق الله ، وهو يعلم دروبه وخفاياه . والنية التى يخفونها هى كذلك من خلقه وهو يعلمها ويعلم أين تكون . فماذا يخفون ؟ وأين يستخفون ؟

والقرآن يعنى بتقرير هذه الحقيقة فى الضمير .لأن استقرارها فيه ينشىء له إدراكا صحيحا للأمور . فوق مايودعه هناك من يقظة وحساسية وتقوى ،تناط بها الأمانة التى يحملها المؤمن فى هذه الأرض . أمانة العقيدة ، وأمانة العدالة ، وأمانة التجرد لله فى العمل والنية . وهو لا يتحقق إلا حين يستيقن القلب أنه هو وما يكمن فيه من سر ونيةهو من خلق الله الذىيعلمه الله . وهو اللطيف الخبير . .

عندئذ يتقى المؤمن النية المكنونة ، والهاجس الدفين ، كما يتقى الحركة المنظورة ، والصوت الجهير . وهو يتعامل مع الله الذى يعلم السر والجهر . الله الذى خلق الصدور فهو يعلم ما فى الصدور .

* * *

ثم ينتقل بهم السياق من ذوات أنفسهم التى خلقها الله ، إلى الأرض التى خلقها لهم ، وذللها وأودعها أسباب الحياة :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور » . .

والناس لطول ألفتهم لحياتهم على هذه الأرض ؛ وسهولة استقرارهم عليها ، وسيرهم فيها ، واستغلالهم لتربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعا . . ينسون نعمة الله فى تذليلها لهم وتسخيرها . والقرآن يذكرهم هذه النعمة الهائلة ، ويبصرهم بها ، فى هذا التعبير الذى يدرك منه كل أحد وكل جيل بقدر ماينكشف له من علم هذه الأرض الذلول .

والأرض الذلول كانت تعنى فى أذهان المخاطبين القدامى ، هذه الأرض المذللة للسير فيها

بالقدم وعلى الدابة ،وبالفلك التى تمخر البحار . والمذللة للزرع والجنى والحصاد . والمذللة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات .

وهى مدلولات مجملة يفصلها العلم ـ فيما اهتدى إليه حتى اليوم ـ تفصيلا يمد فى مساحة النص القرآنى فى الإدراك .

فما يقوله العلم فى مدلول الأرض الذلول : إن هذا الوصف : «ذلولا» . . الذى يطلق عادة على الدابة ، مقصود فى إطلاقه على الأرض ! فالأرض هذه التى نراها ثابتة مستقرة ساكنة ، هى دابة متحركة . . بل رامحة راكضة مهطعة ! ! وهى فى الوقت ذاته ذلول لاتلقى براكبها عن ظهرها ، ولا تتعثر خطاها ، ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول ! ثم هى دابة حلوب مثلما هى ذلول !

إن هذه الدابة التى نركبها تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل فى الساعة، ثم تدور مع هذا حول الشمس بسرعة حوالى خمسة وستين ألف ميل فى الساعة. ثم تركض هى والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل فى الساعة ، مبتعدة نحو برج الجبار فى السماء . . ومع هذا الركض كله يبقى الإنسان على ظهرها آمنا مستريحا مطمئنا معافى لا تتمزق أوصاله ، ولا تتناثر أشلاؤه ، بل لايرتج مخه ولا يدوخ ، ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الذلول !

وهذه الحركات الثلاث لها حكمة . وقد عرفنا أثر اثنتين منها فى حياة هذا الإنسان ، بل فى الحياة كلها على ظهر هذه الأرض. فدورة الأرض حول نفسها هى التى ينشأ عنها الليل والنهار . ولو كان الليل سرمدا لجمدت الحياة كلها من البرد ، ولو كان النهار سرمدا لاحترقت الحياة كلها من الحر .. ودورتها حول الشمس هى التى تنشأ عنها الفصول . ولو دام فصل واحد على الأرض ماقامت الحياة فى شكلها هذا كما أرادها الله . أما الحركة الثالثة ـ فلم يكشف ستار الغيب عن حكمتها بعد . ولابد أن لها ارتباطا بالتناسق الكونى الكبير.

وهذه الدابة الذلول التى تتحرك كل هذه الحركات الهائلة فى وقت واحد ، ثابتة على وضع واحد فى أثناء الحركة ـ يحدده ميل محورها بمقدار ٢٣٫٥° لأن هذا الميل هو الذى تنشأ عنه الفصول الأربعة مع حركة الأرض حول الشمس ، والذى لو اختل فى أثناء الحركة لاختلت الفصول التى تترتب عليها دورة النبات بل دورة الحياة كلها فى هذه الحياة الدنيا !

والله جعل الأرض ذلولا للبشر بأن جعل لها جاذبية تشدهم إليها فى أثناء حركاتها الكبرى،

كما جعل لها ضغطاً جويا يسمح بسهولة الحركة فوقها . ولو كان الضغط الجوى أثقل من هذا لتعذر أو تعسر على الإنسان أن يسير ويتنقل ـ حسب درجة ثقل الضغط ـ فإما أن يسحقه أو يعوقه. ولو كان أخف لاضطربت خطى الإنسان أو لانفجرت تجاويفه لزيادة ضغطه الذاتى على ضغط الهواء حوله، كما يقع لمن يرتفعون فى طبقات الجو العليا بدون تسكييف لضغط الهواء !

والله جعل الأرض ذلولا ببسط سطحها وتكوين هذه التربة اللينة فوق السطح . ولوكانت صخورا صلدة ـ كما يفترض العلم بعد برودها وتجمدها ـ لتعذر السير فيها ، ولتعذر الإنبات . ولـكن العوامل الجوية من هواء وأمطار وغيرها هى التى فتتت هذه الصخور الصلدة ، وأنشأ الله بها هذه التربة الخصبة الصالحة للحياة . وأنشأ مافيها من النبات والأرزاق التى يحلبها راكبو هذه الدابة الذلول !

والله جعل الأرض ذلولا بأن جعل الهواء المحيط بها محتويا للعناصر التى تحتاج الحياة إليها . بالنسب الدقيقة التى لواختلت ماقامت الحياة ، وماعاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس . فنسبة الأكسيجين فيه هى ٢١ ٪ تقريبا ونسبة الأزوت أوالنتروجين هى ٧٨ ٪ تقريبا والبقية من ثانى أكسيد الـكربون بنسبة ثلاثة أجزاء من عشرة آلاف وعناصر أخرى . وهذه النسب هى اللازمة بالضبط لقيام الحياة على الأرض !

والله جعل الأرض ذلولا بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة . . ومنها حجم الأرض وحجم الشمس والقمر ، وبعد الأرض عن الشمس والقمر . ودرجة حرارة الشمس . وسمك قشرة الأرض . ودرجة سرعتها . وميل محورها . ونسبة توزيع المـاء واليابس فيها . وكثافة الهواء المحيط بها.. إلى آخره .. إلى آخره. وهذه الموافقات مجتمعة هى التى جعلت الأرض ذلولا . وهى التى جعلت فيها رزقا ، وهى التى سمحت بوجود الحياة . وبحياة هذا الإنسان على وجه خاص .

والنص القرآنى يشير إلى هذه الحقائق ليعيها كل فرد وكل جيل بالقدر الذى يطيق ، وبالقدر الذى يبلغ إليه علمه وملاحظته . ليشعر بيد الله ـ الذى بيده الملك ـ وهى تتولاه وتتولى كل شىء حوله ، وتذلل له الأرض ، وتحفظه وتحفظها. ولو تراخت لحظة واحدة عن الحفظ لاختل هذا الـكون كله وتحطم بمن عليه وماعليه !

فإذا استيقظ ضميره لهذه الحقيقة الهائلة أذن له الخالق الرحمان الرحيم بالمشى فى مناكبها والأكل من رزقه فيها :

« فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » .

والمناكب المرتفعات . أوالجوانب . وإذا أذن له بالمشى فى مناكبها فقد أذن له بالمشى فى سهولها وبطاحها من باب أولى . فمتى أذن له فى الشموس منها فقد أذن له فى الذلول !

والرزق الذى فيها كله من خلقه،وكله من ملكه ، وهو أوسع مدلولا مما يتبادر إلى أذهان الناس من كلمة الرزق . فليس هو المال الذى يجده أحدهم فى يده ، ليحصل به على حاجياته ومتاعه . إنما هو كل ماأودعه الله هذه الأرض ، من أسباب الرزق ومكوناته . وهى فى الأصل ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض من عناصرها التى تكونت منها ، وطبيعة تقسيم هذه العناصر بهذه النسب التى وجدت بها . ثم القدرة التى أودعها الله النبات والحيوان ـ ومنه الإنسان ـ على الانتفاع بهذه العناصر .

وفى اختصار نشير إلى أطراف من حقيقة الرزق بهذا المعنى :

« تعتمد حياة كل نبات كما هو معروف على المقادير التى تكاد تكون متناهية فى الصغر من ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الهواء .والتى يمكن القول بأنها تتنسمها . ولكى نوضح هذا التفاعل الكيماوى المركب المختص بالتركيب الضوئى بأبسط طريقة ممكنة نقول : « إن أوراق الشجر هى رئات ، وإن لها القدرة فى ضوء الشمس على تجزئة ثانى أكسيد الكربون العنيد إلى كربون وأكسيجين . وبتعبير آخر يلفظ الأكسيجين ويحتفظ بالكربون متحدا مع هيدروجين الماء الذى يستمده النبات من جذوره (حيث يفصل الماء إلى هيدروجين وأكسجين) . وبكيمياء سحرية تصنع الطبيعة من هذه العناصر سكرا أوسليلوزا ومواد كيمائية أخرى عديدة ، وفواكه وأزهارا . ويغذى النبات نفسه ، وينتج فائضا يكفى لتغذية كل حيوان على وجه الأرض . وفى الوقت نفسه يلفظ النبات الأكسجين الذى نتنسمه والذى بدونه تنتهى الحياة بعد خمس دقائق .

« وهكذا نجد أن جميع النباتات والغابات والأعشاب وكل قطعة من الطحلب ، وكل مايتعلق بمياه الزرع ، تبنى تكوينها من الكربون والماء على الأخص . والحيوانات تلفظ ثانى أكسيد الكربون ، بينما تلفظ النباتات الأكسجين . ولو كانت هذه المقايضة غير قائمة ، فإن الحياة الحيوانية أوالنباتية كانت تستنفد فى النهاية كل الأكسجين ، أوكل ثانى أكسيد الكربون تقريبا . ومتى انقلب التوازن تماما ذوى النبات أومات الإنسان ، فيلحق به الآخر وشيكا .

وقد اكتشف أخيرا أن وجود ثانى أكسيد الكربون بمقادير صغيرة هو أيضا ضرورى لمعظم حياة الحيوان ، كما اكتشف أن النباتات تستخدم بعض الأكسجين .

« ويجب أن يضاف الهيدروجين أيضا ، وإن كنا لانتنسمه . فبدون الهيدروجين كان الماء لايوجد . ونسبة الماء من المادة الحيوانية أوالنباتية هى كبيرة لدرجة تدعو إلى الدهشة ولاغنى عنه مطلقا » [1] .

وهناك دور الأزوت أو النتروجين فى رزق الأرض .

« وبدون النتروجين فى شكل ما لايمكن أن ينمو أى نبات من النباتات الغذائية .وإحدى الوسيلتين اللتين يدخل بها النتروجين فى التربة الزراعية هى طريق نشاط جراثيم « بكتريا » معينة تسكن فى جذور النباتات البقلية ، مثل البرسيم والحمص والبسلة والفول وكثير غيرها . وهذه الجراثيم تأخذ نتروجين الهواء وتحيله إلى نتروجين مركب .قابل لأن يمتصه النبات وحين يموت النبات يبقى بعض هذا النتروجين المركب فى الأرض .

«وهناك طريقة أخرى يدخل بها النتروجين إلى الأرض .وذلك عن طريق عواصف الرعد. وكلما ومض برق خلال الهواء ، وحد بين قدر قليل من الأكسجين وبين النتروجين ، فيسقطه المطر إلى الأرض كنتروجين مركب [2] » (أى فى الصورة التى يستطيع النبات امتصاصها لأنه لايقدر على امتصاص النتروجين الخالص من الهواء ونسبته فيه حوالى ٧٨٪ كما أسلفنا) .

والأرزاق المخبوءة فى جو الأرض من معادن جامدة وسائلة كلها ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض والأحوال التى لابستها . ولا نطيل شرحها . فالرزق فى ضوء هذه البيانات السريعة أوسع مدلولا مما يفهمه الناس من هذا اللفظ . وأعمق أسبابا فى تكوين الأرض ذاتها وفى تصميم الكون كله . وحين يأذن الله للناس فى الأكل منه ، فهو يتفضل بتسخيره لهم وتيسير تناوله ؛ كما يمنح البشر القدرة على تناولها والانتفاع بها : « فامشوا فى منا كبها وكلوا من رزقه » . .

وهو محدود بزمن مقدر فى علم الله وتدبيره زمن الابتلاء بالموت والحياة ،وبكل مايسخره الله للناس فى هذه الحياة . فإذا انقضت فترة الابتلاء كان الموت وكان مابعده :

---

(١) كتاب : العلم يدعو للإيمان ترجمة محمود صالح الفلكى ص ٧٠ ــ ٧١

(٢) المصدر نفسه ص ٧٦ ــ ٧٧

« وإليه النشور » ..

إليه .. وإلا فإلى أين إن لم يكن إليه ؟ والملك بيده ؟ ولاملجأ منه إلاإليه ؟ وهو على كل شيء قدير ؟

* * *

والآن — وبينما هم فى هذا الأمان على ظهر الأرض الذلول ، وفى هذا اليسر الفائض بإذن الله وأمره.. الآن يهز هذه الأرض الساكنة من تحت أقدامهم هزا ويرجهارجا فإذا هى تمور. ويثير الجو من حولهم فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور . . يهز هذه الأرض فى حسهم ويثير هذا الحاصب فى تصورهم ، لينتبهوا من غفلة الأمان والقرار ،ويمدوا بأبصارهم إلى السماء وإلى الغيب ، ويعلقوا قلوبهم بقدر الله :

« أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أمنتم من فى السماءأن يرسل عليكم حاصبا ؟ فستعلمون كيف نذير ! ولقد كذب الذين من قبلهم . فكيف كان نكير ؟ » ..

والبشر الذين يعيشون على ظهر هذه الدابة الذلول ، ويحلبونها فينالون من رزق الله فيها نصيبهم المعلوم ! يعرفون كيف تتحول إلى دابة غير ذلول ولاحلوب ، فى بعض الأحيان،عند ما يأذن الله بأن تضطرب قليلا فيرتج كل شيءفوقظهرها أويتحطم ! ويمور كل ماعليها ويضطرب فلاتمسكه قوة ولاحيلة . ذلك عند الزلازل والبراكين ، التى تكشف عن الوحش الجامح ، الكامن فى الدابة الذلول ، التى يمسك الله بزمامها فلاتثور إلابقدر،ولاتجمح إلاثوانى معدودات يتحطم فيها كل ماشيد الإنسان على ظهرها ؟ أويغوص فى جوفهاعندما تفتح أحد أفواههاوتخسف كسفة منها . . وهى تمور .. البشر ولايملكون من هذا الأمر شيئا ولا يستطيعون .

وهم يبدون فى هول الزلزال والبركان والخسف كالفئران الصغيرة محصورة فى قفص الرعب، من حيث كانت آمنة لاهية غافلة عن القدرة الكبرى الممسكة بالزمام !

والبشر كذلك يشهدون العواصف الجامحة الحاصبة التى تدمر وتخرب ، وتحرق وتصعق . وهم بإزائها ضعاف عاجزون ، بكل مايعلمون ومايعملون . والعاصفة حين تزأر وتضرب بالحصى الحاصب ، وتأخذ فى طريقها كل شيء فى البر أوالبحر أوالجو يقف الإنسان أمامها صغيرا هزيلا حسيرا حتى يأخذ الله بزمامها فتسلس وتلين !

والقرآن يذكر البشر الذين يخدعهم سكون الدابة وسلامة مقادتها ،ويغرهم الأمان بنسيان خالقها ومروضها . يذكرهم بهذه الجمحات التي لايملكون من أمرها شيئا . والأرض الثابتة تحت أقدامهم ترتج وتمور ، وتقذف بالحمم وتفور . والريح الرخاء من حولهم تتحول إلى إعصار حاصب لاتقف له قوة في الأرض من صنع البشر ، ولا تصده عن التدمير . . يحذرهم وينذرهم في تهديد يرج الأعصاب ويخلخل المفاصل .

« فستعلمون كيف نذير » ! ! !

ويضرب لهم الأمثلة من واقع البشرية ، ومن وقائع الغابرين المكذبين :

« ولقد كذب الذين من قبلهم ، فكيف كان نكير ؟ » . .

والنكير الإنكار وما يتبعه من الآثار ولقد أنكر الله ممن كذبوا قبلهم أن يكذبوا . وهو يسألهم : « فكيف كان نكير؟ » وهم يعلمون كيف كان، فقد كانت آثار الدمار والخراب تصف لهم كيف كان هذا النكير ! وكيف كان ما أعقبه من تدمير !

والأمان الذي ينكره الله على الناس ،هو الأمان الذي يوحي بالغفلة عن الله وقدرته وقدره. وليس هو الاطمئنان إلى الله ورعايته ورحمته . فهذا غير ذاك .فالمؤمن يطمئن إلى ربه، ويرجو رحمته وفضله . ولكن هذا لايقوده إلى الغفلة والنسيان والانغمار في غمرة الأرض ومتاعها. إنما يدعوه إلى التطلع الدائم ، والحياء من الله ، والحذر من غضبه ، والتوقي من المخبوء في قدره ، مع الإخبات والاطمئنان .

قال الإمام أحمد ــ بإسناده ــ عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت : « مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته . إنما كان يتبسم . وقالت : كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك في وجهه . قالت: يارسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ــ : « ياعائشة مايؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح . وقد رأى قوم العذاب وقالوا ، هذا عارض ممطرنا [1] »

فهذا هو الإحساس اليقظ الدائم بالله وقدره ، وبما قصه القرآن من هذا في سيره . وهو لا ينافي الاطمئنان إلى رحمة الله وتوقع فضله .

---

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن وهب .

ثم هو إرجاع جميع الأسباب الظاهرة إلى السبب الأول . ورد الأمر بحاله وكليته إلى من بيده الملك،وهو على كل شيء قدير . فالخسف والحاصب ، والبراكين والزلازل ، والعواصف ، وسائر القوى الكونية والظواهر الطبيعية ليس فى أيدى البشر من أمرها شيء . إنما أمرها إلى الله . وكل مايذكره البشر عنها فروض يحاولون بها تفسير حدوثها ، ولكنهم لايتدخلون فى إحداثها ، ولا يحمون أنفسهم منها . وكل ما ينشئونه على ظهر الأرض تذهب به رجفة من رجفاتها ، أو إعصار من أعاصيرها، كما لو كان لعبا من الورق ! فأولىلهم أن يتوجهوا فىأمرها إلى خالق هذا الكون ،ومنشئ نواميسه التى تحكم هذه الظواهر ،ومودعه القوى التى يتجلى جانب منها فى هذه الأحداث . وأن يتطلعوا إلى السماء – حيث هى رمز للعلو – فيتذكروا الله الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

إن الإنسان قوى بالقدر الذى وهبه الله من القوة . عالم بالقدر الذى أعطاه الله من العلم . ولكن هذا الكون الهائل زمامه فى يد خالقه ، ونواميسه من صنعه ، وقواه من إمداده . وهذهالقوى تسير وفق نواميسهفى حدود قدره .ومايصيب الإنسان منهامقدورمرسوم ،ومايعلمه الإنسان منها مقدور معلوم. والوقائع التىتحدث تقفهذا الإنسان بين الحين والحين أمام قوى الكون الهائلة مكتوف اليدين حسيرا ، ليس له إلا أن يتذكر خالق هذه القوى ومروضها ؛ وإلا أن يتطلع إلى عونه ليواجهها ، ويسخر ماهو مقدور له أن يسخره منها .

وحين ينسى هذه الحقيقة ، ويغتر وينخدع بما يقسم الله له من العلم ومن القدرة على تسخير بعض قوى الكون ، فإنه يصبح مخلوقا مسيخا مقطوعا عن العلم الحقيقى الذى يرفع الروح إلى مصدرها الرفيع ؛ ويخلد إلى الأرض فى عزلة عن روح الوجود ! بينما العالم المؤمن يركع فى مهرجان الوجود الجميل، ويتصل بيارئ الوجود الجليل. وهو متاع لايعرفهإلا من ذاقحلاوته حين يكتبها الله له !

على أن قوى الكون الهائلة تلجيء الإنسان إلجاء إلى موقف العجز والتسليم سواء رزق هذه الحلاوة أم حرمها . فهو يكشف مايكشف ، ويبدع مايبدع ، ويبلغ من القوة مايبلغ . ثم يواجه قوى الكون فى انكسار الحسير الصغير الهزيل . وقد يستطيع أن يتقى العاصفة أحيانا ولكن العاصفة تمضىفى طريقها لايملك وقفها. ولا يملك أن يقففى طريقها ، وقصارى مايبلغ إليه جهده وعلمه أن يحتمى من العاصفة وينزوى عنها ! . . أحيانا . . وأحيانا تقتله

وتسحقه من وراء جدرانه وبنيانه . وفى البحر تتناوحه الأمواج والأعاصير فإذا أكبر سفائنه كلعبة الصبى فى مهب الرياح . أما الزلزال والبركان فهما هما من أول الزمان إلى آخر الزمان ! فليس إلا العمى هو الذى يهيئ لبعض المناكيد أن « الإنسان يقوم وحده » فى هذا الوجود، أو أنه سيد هذا الوجود !

إن الإنسان مستخلف فى هذه الأرض بإذن الله .موهوب من القوة والقدرة والعلم مايشاء الله . والله كالئه وحاميه . والله رازقه ومعطيه . ولو تخلت عنه يد الله لحظة لسحقته أقل القوى المسخرة له ، ولأكله الذباب وما هو أصغر من الذباب . ولكنه بإذن الله ورعايته مكلوء . ومحفوظ . وكريم . فليعرف من أين يستمد هذا التكريم ، وذلك الفضل العظيم .

* * *

بعدئذ ينتقل بهم من لمسة التهديد والنذير ، إلى لمسة التأمل والتفكير . فى مشهد يرونه كثيرا ، ولايتدبرونه إلا قليلا . وهو مظهر من مظاهر القدرة ، وأثر من آثار التدبير الإلهى اللطيف .

« أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ مايمسكهن إلا الرحمان ، إنه بكل شىء بصير » . .

وهذه الخارقة التى تقع فى كل لحظة ، تنسينا بوقوعها المتكرر ، ما تشى به من القدرة والعظمة . ولكن تأمل هذا الطير ، وهو يصف جناحيه ويفردها ، ثم يقبضهما ويضمهما ، وهو فى الحالين :حالة الصف الغالبة ، وحالة القبض العارضة يظل فى الهواء ، يسبح فيه سباحة فى يسر وسهولة ؛ ويأتى بحركات يخيل إلى الناظر أحيانا أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع !

تأمل هذا المشهد ، ومتابعة كل نوع من الطير فى حركاته الخاصة بنوعه ، لا يمله النظر ، ولايمله القلب . وهو متعة فوق ماهو مثار تفكير وتدبر فى صنع الله البديع ، الذى يتعانق فيه الكمال والجمال !

والقرآن يشير بالنظر إلى هذا المشهد المثير :

« أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ » . .

ثم يوحى بما وراءه من التدبير والتقدير :

« مايمسكهن إلاالرحمان » . .

والرحمان يمسكهن بنواميس الوجود المتناسقة ذلك التناسق العجيب، الملحوظ فيه كل صغيرة وكبيرة ، المحسوب فيه حساب الخلية والذرة .. النواميس التى تكفل توافر آلاف الموافقات فى الأرض والجو وخلقة الطير ، لتتم هذه الخارقة وتتكرر ، وتظل تتكرر بانتظام .

والرحمان يمسكهن بقدرته القادرة التى لاتكل ، وعنايته الحاضرة التى لاتغيب . وهى التى تحفظ هذه النواميس أبدا فى عمل وفى تناسق وفى انتظام . فلاتفتر ولاتختل ولاتضطرب غمضة عين إلى ماشاء الله : « مايمسكهن إلاالرحمان » . . بهذا التعبير المباشر الذى يشى بيد الرحمان تمسك بكل طائر وبكل جناح ، والطائر صاف جناحيه وحين يقبض ، وهو معلق فى الفضاء!

« إنه بكل شىء بصير » . .

يبصره ويراه . ويبصر أمره ويخبره . ومن ثم يهيء وينسق ، ويعطى القدرة ، ويرعى كل شىء فى كل لحظة . رعاية الخبير البصير .

وإمساك الطير فى الجو كإمساك الدواب على الأرض الطائرة بما عليها فى الفضاء . كإمساك سائر الأجرام التى لايمسكها فى مكانها إلاالله . ولكن القرآن يأخذ بأبصار القوم وقلوبهم إلى كل مشهد يملكون رؤيته وإدراكه؛ ويلمس قلوبهم بإيحاءاته وإيقاعاته . وإلافصنعة الله كلها إعجاز وكلها إبداع ، وكلها إيحاء وكلها إيقاع . وكل قلب وكل جيل يدرك منها مايطيقه ، ويلحظ منها مايراه . حسب توفيق الله .

* * *

ثم يلمس قلوبهم لمسة أخرى تعود بهم إلى مشهد البأس والفزع من الخسف والحاصب ، بعدأن جال بهم هذه الجولة مع الطير السابح الآمن . فيردد قلوبهم بين شتى اللمسات عوداً وبدءا، كما يعلم الله من أثر هذا الترداد فى قلوب العباد :

« أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمان ؟ إن الكافرون إلا فى غرور » . .

وقد خوفهم الخسف وخوفهم الحاصب ، وذكرهم مصائر الغابرين الذين أنكر الله عليهم فأصابهم التدمير . فهو يعود ليسألهم : من هو هذا الذى ينصرهم ويحميهم من الله ، غير الله ؟ من هو هذا الذى يدفع عنهم بأس الرحمان إلاالرحمان ؟ « إن الكافرون إلا فى غرور » . . غرور

يهيء لهم أنهم فى أمن وفى حماية وفى اطمئنان ، وهم يتعرضون لغضب الرحمان وبأس الرحمان ، بلاشفاعة لهم من إيمان ولاعمل يستنزل رحمة الرحمان .

ولمسة أخرى فى الرزق الذى يستمتعون به ، وينسون مصدره ، ثم لايخشون ذهابه ، ثم يلجون فى التبجح والإعراض :

« أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا فى عتو ونفور » ..

ورزق البشر كله — كما سلف — معقود بإرادة الله فى أول أسبابه ، فى تصميم هذا الكون وفى عناصر الأرض والجو . وهى أسباب لاقدرة للبشر عليها إطلاقا ، ولاتتعلق بعملهم بتاتا . فهى أسبق منهم فى الوجود ، وهى أكبر منهم فى الطاقة ، وهى أقدر منهم على محو كل أثر للحياة حين يشاء الله .

فمن يرزق البشر إن أمسك الماء ، أو أمسك الهواء ، أو أمسك العناصر الأولى التى منها ينشأ وجود الأشياء ؟

إن مدلول الرزق أوسع مدى وأقدم عهدا وأعمق جذورا مما يتبادر إلى الذهن عندما يسمع هذه الكلمة ومرد كل صغيرة وكبيرة فيه إلى قدرة الله وقدره ، وإرساله الأسباب وإمساكها حين يشاء .

وفى هذا المدلول الكبير الواسع العميق تنطوى سائر المدلولات القريبة لكلمة الرزق ، مما يتوهم الإنسان أنها من كسبه وفى طوقه ، كالعمل ، والإبداع ، والإنتاج .. وكلها مرتبطة بقيام الأسباب والعناصر الأولى من جهة ومتوقفة على هبة الله للأفراد والأمم من جهة أخرى . فأى نفس يتنفسه العامل ، وأى حركة يتحركها ، إلا من رزق الله ، الذى أنشأه ، ومنحه القدرة والطاقة ، وخلق له النفس الذى يتنفسه ، والمادة التى تحترق فى جسده فتمنحه القدرة على الحركة؟ وأى جهد عقلى يبذله مخترع إلا وهو من رزق الله الذى منحه القدرة على التفكير والإبداع ؟ وأى إنتاج ينتجه عامل أو مبدع إلا فى مادة هى من صنع الله ابتداء ، وإلا بأسباب كونية وإنسانية هى من رزق الله أصلا ؟ . . « أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ ! » . . « بل لجوا فى عتو ونفور » .

والتعبير يرسم خدا مصعرا ، وهيئة متبجحة ، بعد تقريره لحقيقة الرزق ، وأنهم عيال على الله فيه . وأقبح العتو والنفور ، والتبجح والتصعير ، مايقع من العيال فى مواجهة المطعم الكاسى ،

الرازق العـائل وهم خلو من كل شيء إلا مايتفضل به عليهـم . وهم بعـد ذلك عاتون معرضون وقحاء !

وهو تصوير لحقيقة النفوس التي تعرض عن الدعوة إلى الله في طغيان عات ، وفي إعراض نافر ، وتنسى أنهامن صنع الله ،وأنها تعيش على فضله ، وأنها لاتملك من أمر وجودها وحياتها ورزقها شيئا على الإطلاق !

* * *

ولقد كانوا ـ مع هذا ـ يتهمون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه بالضلال ؟ ويزعمون لأنفسهم أنهم أهدى سبيلا ! كما يصنع أمثالهم مع الدعاة إلى الله في كل زمان . ومن ثم يصور لهم واقع حالهم وحال المؤمنين في مشهد حي يجسم حقيقة الحال :

« أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى ؟ أم من يمشي سويا على صراط مستقيم ؟ » .. والذي يمشي مكبا على وجهه إما أن يـكون هو الذي يمشي على وجهه فعلا لا على رجليه في استقامة كما خلقه الله وإما أن يـكون هو الذي يعثر في طريقه فينكب على وجهه ،ثم ينهض ليعثر من جديد! وهذه كتلك حال بائسة تعاني المشقة والعسر والتعثر ،ولا تنتهي إلى هدى ولا خير ولا وصول ! وأين هي من حال الذي يمشي مستقيما سويا في طريق لا عوج فيه ولا عثرات . وهدفه أمامه واضح مرسوم ؟ !

إن الحال الأولى هي حال الشقي المنـكود الضال عن طريق الله، المحروم من هداه ، الذي يصطدم بنواميسه ومخلوقاته ، لأنه يعترضها في سيره ، ويتخذ له مسارا غير مسارها ، وطريقا غير طريقها ، فهو أبدا في تعثر ، وأبدا في عناء ، وأبدا في ضلال .

والحال الثانية هي حال السعيد المجـدود المهتدي إلى الله ، المتمتع بهداه ، الذي يسير وفق نواميسه في الطريق اللاحب المعمور ،الذي يسلـكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد .وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء .

إن حياة الإيمـان هي اليسر والاستقـامة والقصد . وحياة الـكفر هي العسر والتعثر والضلال . .

فأيهما أهدى ؟ وهل الأمر في حاجة إلى جواب ؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب !

ويتوارى السؤال والجواب ليتراءى للقلب هـذا المشهد الحي الشاخص المتحرك . . مشهد جماعة يمشون على وجوههم، أو يتعثرون وينـكبون على وجوههم لاهدف لهم ولا طريق. ومشهد

جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات ، مستقيمة الخطوات ، فى طريق مستقيم ، لهدف مرسوم .

إنه تجسيم الحقائق، وإطلاق الحياةفى الصور ،على طريقة القرآن [1]فى التعبير بالتصوير . .

* * *

وعلى ذكر الهدى والضلال ، يذكرهم بما وهبهم الله منوسائل الهدى ، وأدوات الإدراك؛ ثم لم ينتفعوا بها ، ولم يكونوا من الشاكرين :

« قل :هو الذى أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ماتشكرون » . .

وحقيقة أن الله هو الذى أنشأ الإنسان ، حقيقة تلح على العقل البشرى ، وتثبت ذاتها بتوكيد يصعب رده . فالإنسان قد وجد ــ وهو أرفع وأعلم وأقدر مايعلم من الخلائق ــ وهو لم يوجد نفسه ، فلابد أن يكون هناك من هو أرفع وأعلم وأقدر منه أوجده . . ولامفر من الاعتراف بخالق . فوجود الإنسان ذاته يواجهه بهذه الحقيقة . والمماراة فيها نوع من المماحكة لايستحق الاحترام .

والقرآن يذكر هذه الحقيقة هنا ليذكر بجانبها مازود الله به الإنسان من وسائل المعرفة :

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » . .

وماقابل الإنسان به هذه النعمة : نعمة الإنشاء ونعمة السمعوالأبصار والأفئدة :

« قليلا ماتشكرون » . .

والسمع والأبصار معجزتان كبيرتان عرف عنهما بعض خواصهما العجيبة . والأفئدة التى يعبربها القرآن عن قوة الإدراك والمعرفة ،معجزة أعجب وأغرب. ولم يعرف بعد عنها إلاالقليل. وهى سر الله فى هذا المخلوق الفريد . .

وللعلم الحديث محاولات فى معرفة شىء عن معجزتى السمع والبصر نذكر منها لمحة :

« تبدأ حاسة السمع بالأذنالخارجية ، ولايعلم إلاالله أين تنتهى . ويقول العلم: إنالاهتزاز الذى يحدثه الصوت فى الهواء ينقل إلى الأذن ، التى تنظم دخوله ، ليقع على طبلة الأذن . وهذه تنقلها إلى التيه داخل الأذن .

« والتيه يشتمل على نوع من الأقنية بين لولبية ونصف مستديرة . وفى القسم اللولبى وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع فى الرأس .

---

(١) يراجع فصل : «طريقة القرآن» . وفصل «التخييل الحسى والتجسيم» فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

« فما طول القوس منها وحجمها ؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التى تبلغ عدة آلاف كل منها تركيبا خاصا ؟ ومالحز الذى وضعت فيه ؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتماوجة . هذا كله فى التيه الذى لا يكاد يرى او فى الأذن مئة ألف خلية سمعية . وتنتهى الأعصاب بأهداب دقيقة . دقة وعظمة تحير الألباب » [1] .

« ومركز حاسة الإبصار العين ، التى تحتوى على مئة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء، وهى أطراف أعصاب الإبصار. وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية .. وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية [2] .

« وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة ، والطبقة التى فى أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات .ويقال : إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود ، وعدد الثانية ثلاثة ملايين مخروط . وقد نظمت كلها فى تناسب محكم بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة للعدسات . . وعدسة عينيك تختلف فى الكثافة ، ولذا تجمع كل الأشعة فى بؤرة ، ولا يحصل الإنسان على مثل ذلك فى أية مادة من جنس واحد كالزجاج مثلا [3] » . .

فأما الأفئدة فهى هذه الخاصية التى صار بها الإنسان إنسانا. وهى قوة الإدراك والتميز والمعرفة التى استخلف بها الإنسان فى هذا الملك العريض . والتى حمل بها الأمانة التى أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال . أمانة الإيمان الاختيارى ،والاهتداء الذاتى ، والاستقامة الإرادية على منهج الله القويم [4] ولا يعلم أحد ماهية هذه القوة ، ولامركزها ، داخل الجسم أوخارجه! فهى سر الله فى الإنسان لم يعلمه أحد سواه .

وعلى هذه الهبات الضخمة التى أعطيها الإنسان لينهض بتلك الأمانة الكبرى،فإنه لم يشكر: « قليلا ماتشكرون » . . وهو أمر يثير الخجل والحياء عند التذكير به ، كما يذكرهم القرآن فى هذا المجال ويذكر كل جاحد وكافر ، لايشكر نعمة الله عليه ؛ وهو لايوفيها حقها لوعاش للشكر دون سواه !

***

(١) منقول عن كتاب : الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٥٧

(٢) منقول عن كتاب : المصدر السابق ص ٥٨ .

(٣) نقلا عن كتاب : العلم يدعو للإيمان ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى ص ١١٣ :

(٤) يراجع تفسير قوله تعالى : إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال .. . فى ص ٤٩ ــ ٥١ من الجزء ٢٢ من الظلال .

ثم يذكرهم أن الله لم ينشىء البشر ويمنحهم هذه الخصائص عبثا ولا جزافا لغير قصد ولا غاية . إنما هي فرصة الحياة للابتلاء . ثم الجزاء في يوم الجزاء :

« قل : هو الذى ذرأكم فى الأرض ، وإليه تحشرون » . .

والذرء : الإكثار. ويحمل كذلك معنى الانتشار . والحشر : الجمع بعد النشر فى الأرجاء . وهما حركتان متقابلتان من الناحيـة التصورية ، تقابلهما من الناحيـة المعنوية . ذلك مشهد للإكثار من الخلق ونشرهم أو نثرهم فى الأرض . وهذا مشهد لجمعهم منها وحشرهم بعد النشر والنثر ! ويجمعهما السياق فى آية واحدة ، ليتقابل المشهدان فى الحس والتصور على طريقة القرآن. وليتذكر البشر وهم منتشرون فى الأرض أن هناك غاية هم صائرون إليها . هى الجمع والحشر . وأن هناك أمرا وراء هذا ، ووراء الابتلاء بالموت والحياة .

ثم يحكى شكهم فى هذا الحشر ، وارتيابهم فى هذا الوعد :

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . .

وهو سؤال الشاك المستريب . كما أنه سؤال المماحل المتعنت . فإن معرفة موعد هذا الوعد وميقاته لاتقدم ولا تؤخر ؛ ولا علاقة لها بحقيقته ، وهو أنه يوم الجزاء بعد الابتلاء . ويستوى بالقياس إليهم أن يجىء غدا أو أن يجىء بعد ملايين السنين . . فالمهم أنه آت ، وأنهم محشورون فيه ، وأنهم مجازون بما عملوا فى الحياة .

ومن ثم لم يطلع الله أحدا من خلقه على موعده ، لأنه لامصلحة لهم فى معرفته ، ولا علاقة لهذا بطبيعة هذا اليوم وحقيقته ، ولا أثر له فى التكاليف التى يطالب الناس بها استعدادا لملاقاته. بل المصلحة والحكمة فى إخفاء ميقاته عن الخلق كافة ، واختصاص الله بعلم ذلك الموعد ، دون الخلق جميعا :

« قل إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » .

وهنا يبرز بجلاء فارق ما بين الخالق والخاليق . وتتجرد ذات الله ووحدانيته بلا شبيه ولا شريك . ويتمحض العلم له سبحانه . ويقف الخلق — بما فيهم الرسل والملائكة —[1] فى مقامهم

(١) فى حديث حقيقة الإسلام والإيمان .. سأل جبريل النبى — صلى الله عليه وسلم — عن الساعة ، فقال: « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » . . أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

متأدبين عند مقام الألوهية العظيم : « قل : إنما العلم عند الله . وإنما أنا نذير مبين » . . وظيفتي الإنذار ، ومهمتي البيان . أما العلم فعند صاحب العلم الواحد بلا شريك .

وبينما هم يسألون في شك ويجابون في جزم ، يخيل السياق القرآني كأن هذا اليوم الذي يسألون عنه قد جاء ، والموعد الذي يشكون فيه قد حان ؛ وكأنما هم واجهوه الآن . فكان فيه ما كان :

« فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل : هذا الذي كنتم به تدعون » !

فقد رأوه قريبا مواجها لهم حاضرا أمامهم دون توقع ودون تمهيد . فسيئت وجوههم . وبدا فيها الاستياء . ووجه إليهم التأنيب : « وقيل : هذا الذي كنتم به تدعون » . . هذا هو حاضرا قريبا . وهو الذي كنتم تدعون أنه لن يكون !

وهذه الطريقة في عرض ماسيكون تتكرر في القرآن ، لمواجهة حالة التكذيب أو الشك بمفاجأة شعورية تصويرية تقف المكذب أو الشاك وجها لوجه مع مشهد حاضر لما يكذب به أو يشك فيه .

ثم هي في الوقت ذاته تصور حقيقة . فهذا اليوم كائن في علم الله ؛ أما خط الزمن بينه وبين البشر فهو قائم بالقياس إلى البشر . وهي مسألة نسبية لا تمثل الحقيقة المجردة كما هي في حساب الله . ولو أذن الله لرأوه اللحظة كما هو في علم الله . فهذا الانتقال الفاجيء لهم من الدنيا إلى الآخرة ، ومن موقف الشك والارتياب إلى موقف المواجهة والمفاجأة ، يشير إلى حقيقة قائمة لو أذن الله بها لانكشفت لهم . في الوقت الذي يصور لهم هذه الحقيقة تصويرا يهز مشاعرهم .

* * *

ولقد كانوا يتربصون بالنبي — صلى الله عليه وسلم — والحفنة المؤمنة التي معه أن يهلكوا فيستريحوا منهم ؛ وكانوا يتواصون بينهم بالصبر عليه حتى يوافيه الأجل ، فتسكن هذه الزوبعة التي أثارتها الدعوة في صفوفهم . كما كانوا يتبجحون أحيانا فيزعمون أن الله سيهلك محمدا ومن معه لأنهم ضالون ، ولأنهم يكذبون على الله فيما يقولون ! فهنا أمام مشهد الحشر والجزاء ، ينبههم إلى أن أمنيتهم حتى لو تحققت لا تعصمهم هم من عاقبة الكفر والضلال : فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم قبل هذا الموعد الذي واجههم به كأنه واقع بهم :

« قل : أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا ، فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ؟ » . .

وهو سؤال يردهم إلى تدبر حالهم ، والتفكير فى شأنهم ، وهو الأولى ! فماينفعهم أن تتحقق أمانيهم فيهلك الله النبى ومن معه ــ كما لاينقذهم بطبيعة الحال أن يرحم الله نبيه ومن معه . والله باق لايموت . وهو الذى ذرأهم فى الأرض وإليه يحشرون ..

ولكنه لايقول لهم : فمن يجيركم من عذاب أليم ؟ ولاينص على أنهم كافرون . إنما يلوح لهم بالعذاب الذى ينتظر الكافرين : « فمن يجير الكافرين من عذاب أليم » .. وهو أسلوب فى الدعوة حكيم . يخوفهم من ناحية ، ويدع لهم فرصة للتراجع عن موقفهم من ناحية . فلو جابههم بأنهم كافرون ، وأنه لامفر لهم من العذاب الأليم . . فربما جهلوا وحمقوا وأخذتهم العزة بالإثم أمام الاتهام المباشر والتهديد .

ففى بعض الحالات يكون أسلوب التلميح أفعل فى النفس من أسلوب التصريح !

ثم يترقى من هذه التسوية بين الأمرين ، إلى تقرير موقف المؤمنين من ربهم وثقتهم به وتوكلهم عليه . مع التلميح إلى اطمئنانهم لإيمانهم ، وثقتهم بهداهم ، وبأن الكافرين فى ضلال مبين .

« قل : هو الرحمان آمنا به وعليه توكلنا . فستعلمون من هو فى ضلال مبين » . .

وذكر صفة « الرحمان » هنا يشير إلى رحمته العميقة الكبيرة برسوله والمؤمنين معه ؛ فهو لن يهلكهم كما يتمنى الكافرون أو كما يدعون .

ويوجه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى إبراز الصلة التى تربطهم بربهم الرحمان. صلة الإيمان « آمنا به » . . وصلة التوكل « وعليه توكلنا » . . عليه وحده . . والتعبير يشى بالقربى بينهم وبين الرحمان. والله ــ سبحانه ــ هو الذى يتفضل على رسوله وعلى المؤمنين فيأذن له بإعلان هذه القربى ، ويوجهه إلى هذا الإعلان . وكأنما ليقول له : لاتخف مما يقوله الكفار . فأنت ومن معك موصولون بى منتسبون إلى . وأنت مأذون منى فى أن تظهر هذه الكرامة ، وهذا المقام ! فقل لهم ... وهذا ود من الله وتكريم ..

ثم ذلك التهديد الملفوف : « فستعلمون من هو فى ضلال مبين » . . وهو أسلوب كذلك من شأنه أن يخلخل الإصرار على الجحود ؛ ويدعوهم إلى مراجعة موقفهم مخافة أن يكونوا هم الضالين ! فيتعرضوا للعذاب الذى سبق ذكره فى الآية : « فمن يجير الكافرين من عذاب

أليم ؟ » وفى الوقت ذاته لايجبهم بأنهم ضالون فعلا ، حتى لاتأخذهم العزة بالإثم . وهو أسلوب فى الدعوة يناسب بعض حالات النفوس . .

* * *

وأخيرا يجئ الإيقاع الأخير فى السورة يلمح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وذلك بحرمانهم من سبب الحياة الأول . وهو الماء :

« قل : أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ؟ » . .

والماء الغور : الغائر الذاهب فى الأرض لايقدرون عليه . والمعين :النابع الفائض المتدفق . وهى لمسة قريبة فى حياتهم ، إن كانوا مايزالون يستبعدون ذلك اليوم ويشكون فيه . . والملك بيد الله وهو على كل شىء قدير. فكيف لو توجهت إرادته إلى حرمانهم مصدر الحياة القريب !

ثم يدعهم يتدبرون مايكون لوأذن الله بوقوع هذا المحذور !

* * *

وهكذا تنتهى هذه السورة ، وينتهى هذا الحشد من الإيقاعات واللمسات ، وهذه الرحلات والجولات . فى آفاق وأغوار وأبعاد مترامية الأطراف . وكل آية على وجه التقريب كانت إيقاعا خاصا . أو كانت رحلة فى عالم مجهول مغيب ، أومنظور لاتلتفت إليه الأنظار والقلوب .

إنها سورة ضخمة . سورة أكبر من حجمها وحيزها وعدد آياتها . وكأنما هى سهام تشير إلى بعيد ، ويكاد كل سهم يستقل بكشف عالم جديد !

وهى تبنى من قواعد التصور الإسلامى جوانب رئيسية هامة ؛ فهى تقر فى الضمير حقيقة القدرة المطلقة ، وحقيقة الهيمنة المطلقة . وحقيقة الابتلاء بالموت والحياة تمهيدا للحشر والجزاء. وحقيقة الكمال والجمال فى صنعة الله . وحقيقة العلم المطلق بالسر والنجوى . وحقيقة مصدر الرزق . وحقيقة حفظ الله للخلائق ، وحضوره — سبحانه — مع كل مخلوق . . . وجملة من هذه الحقائق التى يقوم عليها تصور المسلم لربه . وتصوره للوجود وارتباطه بخالق الوجود . هذا التصور الذى ينبثق منه منهج حياة المؤمن كله . مع ربه . ومع نفسه . ومع الناس . ومع الأحياء . ومع الكون كله من أحياء وأشياء . والذى يتكيف به شعوره وضميره وشخصيته وقيمه وموازينه ، واستقباله للحياة . . .

سورة القلم مكية
وآياتها ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ .

« إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا : إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ؟ * قَالُوا : سُبْحَانَ رَبِّنَا ! إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا : يَاوَيْلَنَا ! إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا ، إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ * . . كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ».

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ؟ * مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ؟ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ! * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ؟ * سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ؟ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ؟ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ، وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ .

« فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ؟ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ؟

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .

« وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ، لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » . .

لايمكن تحديد التاريخ الذى نزلت فيه هذه السورة .سواء مطلعها أو جملتها . كما أنه لايمكن الجزم بأن مطلعها قد نزل أولا ،وأن سائرها نزل أخيرا — ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال .لأن مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد ، وهو تطاول الذين كفروا على شخص رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقولهم : إنه مجنون !

والروايات التى تقول : إن هذه السورة هى الثانية فى النزول بعد سورة العلق كثيرة ،ومن المتفق عليه فى ترتيب المصاحف المختلفة أنها هى السورة الثانية؛ ولكن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها يجعلنا نرجح غير هذا . حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة ، التى

جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية ، فى الوقت الذى أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها ، فتقول عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ تلك القولة الفاجرة ؛ وأخذ القرآن يردها وينفيها ، ويهدد المناهضين للدعوة ، ذلك التهديد الوارد فى السورة .

واحتمال أن مطلع السورة نزل مبكرا وحده بعد مطلع سورة العلق . وأن الجنون المنفى فيه : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .. جاء بمناسبة ما كان يتخوفه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على نفسه فى أول الوحى ، من أن يكون ذلك جنونا أصابه .. هذا الاحتمال ضعيف . لأن هذا التخوف ذاته على هذا النحو ليست فيه رواية محققة ، ولأن سياق السورة المتماسك يدل على أن هذا النفى ينصب على ما جاء فى آخرها من قوله تعالى : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون » .. فهذا هو الأمر الذى افتتح السورة بنفيه ، كما يتبادر إلى الذهن عند قراءة السورة المتماسكة الحلقات .

كذلك ذكرت بعض الروايات أن فى السورة آيات مدنية من الآية السابعة عشرة إلى نهاية الآية الثالثة والثلاثين . وهى الآيات التى ذكرت قصة أصحاب الجنة وابتلاءهم ، والآيات من الثانية والأربعين إلى نهاية الخمسين وهى التى تشير إلى قصة صاحب الحوت . . ونحن نستبعد هذا كذلك . ونعتقد أن السورة كلها مكية . لأن طابع هذه الآيات عميق فى مكيته . وهو أنسب شىء لأن يجىء فى سياق السورة عند نزولها متسقا مع الموضوع ومع الحالة التى تعالجها .

والذى نرجحه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية فى ترتيب النزول ؛ وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية بعد أمر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالدعوة العامة . وبعد قول الله تعالى له : « وأنذر عشيرتك الأقربين » . وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شىء من قصص الأولين وأخبارهم ، التى قال عنها قائلهم : « أساطير الأولين » . . وبعد ما أصبحت قريش مدعوة إلى الإسلام كافة ، وأصبحت تدفع هذه الدعوة بالاتهامات الباطلة والحرب العنيفة التى اقتضت تلك الحملة العنيفة الواردة فى السورة على المكذبين ، والتهديد القاصم فى أولها وفى آخرها على السواء.. والمشهد الأخير فى السورة يوحى بهذا كذلك : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون » .. فهو مشهد دعوة عامة لمجموعات كبيرة . ولم يكن الأمر كذلك فى أول الدعوة . إنما كانت الدعوة توجه إلى أفراد . بوسيلة فردية . ولا تلقى إلى الذين كفروا وهم متجمعون . ولم يقع شىء من هذا ــ كما تقول الروايات الراجحة ــ إلا بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة .

والسورة تشير إلى شيء من عروض المشركين على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للالتقاء في منتصف الطريق ، والتهادن على تراض في القضية التي يختلفون عليها وهي قضية العقيدة : « ودوا لو تدهن فيدهنون » .. وظاهر أن مثل هذه المحاولة لا تكون والدعوة فردية، ولا خطر منها . إنما تكون بعد ظهورها ، وشعور المشركين بخطرها .

وهكذا تتضافر الشواهد على أن هذه السورة نزلت متأخرة عن أيام الدعوة الأولى . وأن هناك ثلاث سنوات على الأقل ـ قابلة للزيادة ـ بين بدء الدعوة وبين وقت نزولها . ولا يعقل أن ثلاث سنوات مرت لم يتنزل فيها قرآن . والطبيعي أن تكون هناك سور كثيرة ، وأجزاء من سور قد نزلت في هذه الفترة ، تتحدث عن ذات العقيدة بدون مهاجمة عنيفة للمكذبين بها كالوارد في هذه السورة منذ مطلعها .

ولكن هذا لا ينفي أن تكون هذه السورة وسورتا المدثر والمزمل قد نزلت في الفترة الأولى من الدعوة . وإن لم يكن ذلك أول ما نزل كما هو وارد في المصاحف ، للأسباب التي أوردناها هنا . وهي تكاد تنطبق كذلك على سورتي المزمل والمدثر .

* * *

لقد كانت هذه الغرسة ـ غرسة العقيدة الإسلامية ـ تودع في الأرض لأول مرة في صورتها الرفيعة المجردة الناصعة . وكانت غريبة على حس الجاهلية السائدة ، لا في الجزيرة العربية وحدها بل كذلك في أنحاء الأرض جميعا .

وكانت النقلة عظيمة بين الصورة الباهتة المحرفة المشوهة من ملة إبراهيم التي يستمسك بخيوط حائلة منها مشركو قريش ، ويلصقون بها الترهات والأساطير والأباطيل السائدة عندهم ، وبين الصورة الباهرة العظيمة المستقيمة الواضحة البسيطة الشاملة المحيطة التي جاءهم بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ متفقة في أصولها مع الحنيفية الأولى ـ دين إبراهيم عليه السلام ـ وبالغة نهاية الكمال الذي يناسب كونها الرسالة الأخيرة للأرض ، الباقية لتخاطب الرشد العقلي في البشرية إلى آخر الزمان .

وكانت النقلة عظيمة بين الشرك بالله وتعدد الأرباب ، وعبادة الملائكة وتماثيلها ، والتعبد للجن وأرواحها ، وسائر هذه التصورات المضطربة المفككة التي تتألف منها العقيدة الجاهلية .. وبين الصورة الباهرة التي يرسمها القرآن للذات الإلهية الواحدة وعظمتها وقدرتها ، وتعلق إرادتها بكل مخلوق .

كذلك كانت النقلة عظيمة بين الطبقية السائدة فى الجزيرة، والكهانة السائدة فى ديانتها ، واختصاص طبقات بالذات بالسيادة والشرف وسدانة الكعبة والقيام بينها وبين العرب الآخرين . . وبين البساطة والمساواة أمام الله والاتصال المباشر بينه وبين عباده كما جاء بها القرآن .

ومثلها كانت النقلة بين الأخلاق السائدة فى الجاهلية والأخلاق التى جاء القرآن يبشر بها ، وجاء محمد — صلى الله عليه وسلم — يدعو إليها ويمثلها .

وكانت هذه النقلة وحدها كافية للتصادم بين العقيدة الجديدة وبين قريش ومعتقداتها وأخلاقها . ولكن هذه لم تكن وحدها . فقد كان إلى جانبها اعتبارات — ربما كانت أضخم فى تقدير قريش من العقيدة ذاتها — على ضخامتها !

كانت هناك الاعتبارات الاجتماعية التى دعت بعضهم أن يقول كما حكى عنهم القرآن الكريم: « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » . . والقريتان هما مكة والطائف . فإن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع شرف نسبه ، وأنه فى الذؤابة من قريش ، لم تكن له مشيخة فيهم ولا رياسة قبل البعثة . بينما كان هناك مشيخة قريش ومشيخة ثقيف وغيرها ، فى بيئة تجعل للمشيخة والرياسة القبلية كل الاعتبار . فلم يكن من السهل الانقياد خلف محمد — صلى الله عليه وسلم — من هؤلاء المشيخة !

وكانت هناك الاعتبارات العائلية التى تجعل رجلا كأبى جهل (عمرو ابن هشام) يأبى أن يسلم بالحق الذى يواجهه بقوة فى الرسالة الإسلامية ، لأن نبيها من بنى عبد مناف . . وذلك كما ورد فى قصته مع الأخنس ابن شريق وأبى سفيان ابن حرب ، حين خرجوا ثلاث ليال يستمعون القرآن خفية ، وهم فى كل ليلة يتواعدون على عدم العودة خيفة أن يراهم الناس فيقع فى نفوسهم شىء . فلما سأل الأخنس ابن شريق أباجهل رأيه فيما سمع من محمد كان جوابه : « ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! » .

وكانت هناك اعتبارات أخرى نفعية وطبقية ونفسية من ركام الجاهلية فى المشاعر والتصورات والأوضاع كلها تحاول قتل تلك الغرسة الجديدة فى مغرسها بكل وسيلة قبل أن

تثبت جذورها وتتعمق ، وقبل أن تمتد فروعها وتتشابك . وبخاصة بعد أن تجاوزت دور الدعوة الفردية ؛ وأمر الله تعالى نبيه — صلى الله عليه وسلم — أن يجهر بالدعوة ؛ وأخذت معالم الدعوة الجديدة تبرز ، كما أخذ القرآن يتنزل بتسفيه عقيدة الشرك وما وراءها من الآلهة المدعاة والتصورات المنحرفة والتقاليد الباطلة .

والرسول — صلى الله عليه وسلم — ولو أنه نبي ، ولو أنه يتلقى من ربه الوحي ، ولو أنه يتصل بالملإ الأعلى . . هو بشر ، تخالجه مشاعر البشر . وكان يتلقى هذه المقاومة العنيفة ، وتلك الحرب التي شنها عليه المشركون ، ويعاني وقعها العنيف الأليم ، هو والحفنة القليلة التي آمنت به على كره من المشركين .

وكان — صلى الله عليه وسلم — يسمع والمؤمنون به يسمعون ، ما كان يتقوله عليه المشركون ، ويتطاولون به على شخصه الكريم ، « ويقولون : إنه لمجنون » . . ولم تكن هذه إلا واحدة من السخريات الكثيرة ، التي حكاها القرآن في السور الأخرى ؛ والتي كانت توجه إلى شخصه — صلى الله عليه وسلم — وإلى الذين آمنوا معه . وغير الأذى الذي كان يصيب الكثيرين منهم على أيدي أقربائهم الأقربين !

والسخرية والاستهزاء — مع الضعف والقلة — مؤذيان أشد الإيذاء للنفس البشرية . ولو كانت هي نفس رسول .

ومن ثم نرى في السور المكية — كسور هذا الجزء — أن الله كأنما يحتضن — سبحانه — رسوله والحفنة المؤمنة معه ، ويواسيه ويسري عنه ، ويثني عليه وعلى المؤمنين . ويبرز العنصر الأخلاقي الذي يتمثل في هذه الدعوة وفي نبيها الكريم . وينفي ما يقوله المتقولون عنه ، ويطمئن قلوب المستضعفين بأنه هو يتولى عنهم حرب أعدائهم ، ويعفيهم من التفكير في أمر هؤلاء الأعداء الأقوياء الأغنياء !

ونجد من هذا في سورة القلم مثل قوله تعالى عن النبي — صلى الله عليه وسلم — :

« ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم » . .

وقوله تعالى عن المؤمنين :

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ ! » . .

ويقول عن أحد أعداء النبي البارزين :

« ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم. أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم ! » ..

ثم يقول عن حرب المكذبين عامة :

« فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين » . .

وذلك غير عذاب الآخرة الذل للمتكبرين :

« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » ..

ويضرب لهم أصحاب الجنة ـ جنة الدنيا ـ مثلا على عاقبة البطر . تهديدا لكبراء قريش المعتزين بأموالهم وأولادهم ممن لهم مال وبنون ؛ الكائدون للدعوة بسبب مالهم من مال وبنين.

وفي نهاية السورة يوصي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصبر الجميل : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت .. » .

ومن خلال هذه المواساة وهذا الثناء وهذا التثبيت ، مع الحملة القاصمة على المكذبين والتهديد الرهيب ، يتولى الله ـ سبحانه ـ بذاته حربهم في ذلك الأسلوب العنيف .. من خلال هذا كله نتبين ملامح تلك الفترة . فترة الضعف والقلة، وفترة المعاناة والشدة ، وفترة المحاولة القاسية لغرس تلك الغرسة الكريمة في تلك التربة العنيدة !

كذلك نلمح من خلال أسلوب السورة وتعبيرها وموضوعاتها ملامح البيئة التي كانت الدعوة الإسلامية تواجهها . وهي ملامح فيها سذاجة وبدائية في التصور والتفكير والشاعر والاهتمامات والمشكلات على السواء .

نلمح هذه السذاجة في طريقة محاربتهم للدعوة بقولهم للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إنه لمجنون » ! وهو اتهام لا حبكة فيه ولا براعة ، وأسلوب من لا يجد إلا الشتمة الغليظة يقولها بلا تمهيد ولا برهان ، كما يفعل السذج البدائيون .

ونلمحها في الطريقة التي يرد الله بها عليهم فريتهم ردا يناسب حالهم : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم

المفتون » . . وكذلك فى التهديد المكشوف العنيف : « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم مِّن حيث لايعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » .

ونلمحها فى رد هذا السب على رجل منهم : « ولاتطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم ... » .

ونلمحها فى القصة ـ قصة أصحاب الجنة ـ التى ضربها الله لهم . وهى قصة قوم سذج فى تفكيرهم وتصورهم وبطرهم ، وفى حركاتهم كذلك وأقوالهم « وهم يتخافتون . ألايدخلها اليوم عليكم مسكين .. الخ » .

وأخيرا نلمح سذاجتهم من خلال مايوجهه إليهم من الجدل : « أم لكم كتاب فيه تدرسون : إن لكم فيه لما تخيرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيهم بذلك زعيم ؟ » . . .

وهى ملامح تظهر بوضوح من خلال التعبير القرآنى ، وتفيد فى دراسة السيرة ووقائعها وخطوات الدعوة فيها ؛ ومدى ما ارتفع القرآن بعد ذلك بهذه البيئة وبتلك الجماعة فى أواخر عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومدى مانقلها من هذه السذاجة فى التفكير والتصور والشعور والاهتمام . كما يتضح فى أساليب الخطاب فيما بعد ، وفى الحقائق والمشاعر والتصورات والاهتمامات بعد عشرين عاما لاتزيد . وهى فى حياة الأمم ومضة لاتذكر . ولاتقاس إليها تلك النقلة الواسعة الشاملة . . التى انتقلتها الجماعة فى هذا الوقت القصير . والتى تسلمت بها قيادة البشرية فارتفعت بتصوراتها وأخلاقها إلى القمة التى لم ترتفع إليها قيادة قط فى تاريخ البشرية . لامن ناحية طبيعة العقيدة ، ولامن ناحية آثارها الواقعية فى حياة الإنسان فى الأرض ، ولامن ناحية السعة والشمول لتضم الإنسانية كلها بين جوانحها فى سماحة وعطف ، وفى تلبية لكل حاجاتها الشعورية ، وحاجاتها الفكرية ، وحاجاتها الاجتماعية ، وحاجاتها التنظيمية فى شتى الميادين ..

إنها المعجزة تتجلى فى النقلة من هذه السذاجة التى تبدو ملامحها من خلال مثل هذه السورة إلى ذلك العمق والشمول. وهى نقلة أوسع وأكبر من تحول القلة إلى كثرة ، والضعف إلى قوة . لأن بناء النفوس والعقول أعسر من بناء الأعداد والصفوف .

* * *

« ن ، والقلم ومايسطرون . ماأنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون .

وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين. فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم » ..

يقسم الله ــ سبحانه ــ بنون . وبالقلم . وبالكتابة . والعلاقة واضحة بين الحرف (نون). بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة . . فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها ، وتوجيه إليها ، فى وسط الأمة التى لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق ، وكانت الكتابة فيها متخلفة ونادرة . فى الوقت الذى كان دورها القدر لها فى علم الله يتطلب نمو هذه القدرة فيها، وانتشارها بينها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض. ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة . . وما من شك أن الكتابة عنصر أساسى فى النهوض بهذه المهمة الكبرى .

ومما يؤكد هذا المفهوم أن يبدأ الوحى بقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » .. وأن يكون هذا الخطاب موجها للنبى الأمى ــ الذى قدر الله أن يكون أميا لحكمة معينة ــ ولكنه بدأ الوحى إليه منوها بالقراءة والتعليم بالقلم . ثم أكد هذه اللفتة هنا بالقسم بنون ، والقلم ومايسطرون . وكان هذا حلقة من المنهج الإلهى لتربية هذه الأمة وإعدادها للقيام بالدور الكونى الضخم الذى قدره لها فى علمه المكنون .

***

يقسم الله ــ سبحانه ــ بنون والقلم وما يسطرون ، منوها بقيمة الكتابة معظما لشأنها كما أسلفنا لينفى عن رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ تلك الفرية التى رماه بها المشركون ، مستبعدا لها ، ونعمته على رسوله ترفضها .

« ماأنت بنعمة ربك بمجنون » ..

فيثبت فى هذه الآية القصيرة وينفى . . يثبت نعمة الله على نبيه ، فى تعبير يوحى بالقربى والمودة : حين يضيفه سبحانه إلى ذاته : « ربك » . وينفى تلك الصفة المفتراة التى لا تجتمع مع نعمة الله ، على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه . .

وإن العجب ليأخذ كل دارس لسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قومه ،من قولتهم هذه عنه ،وهم الذين علموا منه رجاحة العقل حتى حكموه بينهم فى رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام كثيرة . وهم الذين لقبوه بالأمين ، وظلوا يستودعونه أماناتهم حتى يوم هجرته ، بعد عدائهم العنيف له ، فقد ثبت أن عليا ـ كرم الله وجهه ـ تخلف عن رسول الله أياما فى مكة ، ليرد إليهم ودائعهم التى كانت عنده ؛ حتى وهم يحادونه ويعادونه ذلك العداء العنيف . وهم الذين لم يعرفوا عليه كذبة واحدة قبل البعثة . فلما سأل هرقل أبا سفيان عنه : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل نبوته؟ قال أبو سفيان ـ وهو عدوه قبل إسلامه ـ لا، فقال هرقل : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله !

إن الإنسان ليأخذه العجب أن يبلغ الغيظ بالناس إلى الحد الذى يدفع مشركى قريش إلى أن يقولوا هـذه القولة وغيرها عن هذا الإنسان الرفيع الكريم ، المشهور بينهم برجاحة العقل وبالخلق القويم . ولكن الحقد يعمى ويصم ، والغرض يقذف بالفرية دون تحرج ! وقائلها يعرف قبل كل أحد ، أنه كذاب أثيم !

« ماأنت بنعمة ربك بمجنون » . . هكذا فى عطف وفى إيناس وفى تكريم ، ردا على ذلك الحقد الكافر ، وهذا الافتراء الذميم .

« وإن لك لأجرا غير ممنون » . .

وإن لك لأجرا دائما موصولا ،لاينقطع ولا ينتهى .أجرا عند ربك الذى أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم .. وهو إيناس كذلك وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون . وماذا فقد من يقول له ربه : « وإن لك لأجرا غير ممنون » ؟ فى عطف وفى مودة وفى تكريم ؟

***

ثم تجىء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم :

« وإنك لعلى خلق عظيم » . .

وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبى الكريم ؛ ويثبت هذا الثناء العلوى فى صميم الوجود !

ويعجز كل قلم ،ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود،

وهى شهادة من الله ، فى ميزان الله ، لعبد الله ، يقول له فيها : « وإنك لعلى خلق عظيم » . ومدلول الخلق العظيم هو ماهو عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين !

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد — صلى الله عليه وسلم — تبرز من نواح شتى :

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال ، يسجلها ضمير الكون ، وتثبت فى كيانه ، وتتردد فى الملأ الأعلى إلى ماشاء الله .

وتبرز من جانب آخر . من جانب إطاقة محمد — صلى الله عليه وسلم — لتلقيها . وهو يعلم من ربه هذا ، قائل هذه الكلمة . ماهو ؟ ما عظمته ؟ مادلالة كلماته ؟ مامداها ؟ ماصداها ؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة ، التى يدرك هو منها مالا يدركه أحد من العالمين .

إن إطاقة محمد — صلى الله عليه وسلم — لتلقى هذه الكلمة . من هذا الصدر . وهو ثابت . لاينسحق تحت ضغطها الهائل — ولو أنها ثناء — ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب .. تلقيه لها فى طمأنينة وفى تماسك وفى توازن . . هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل .

ولقد رويت عن عظمة خلقه فى السيرة ، وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة . وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ماروى عنه . ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شىء آخر . أعظم بصدورها عن العلى الكبير . وأعظم بتلقى محمد لها وهو يعلم من هو العلى الكبير . وبقائه بعدها ثابتا راسخا مطمئنا . لايتكبر على العباد ، ولا ينتفخ ، ولا يتعاظم ، وهو الذى سمع ماسمع من العلى الكبير !

والله أعلم حيث يجعل رسالته . وما كان إلا محمد — صلى الله عليه وسلم — بعظمة نفسه هذه — من يحمل هـذه الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى . فيكون كفئا لها ، كما يكون صورة حية منها .

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال ، والعظمة والشمول ، والصدق والحق ، بحيث لايحملها إلا الرجل الذى يثنى عليه الله هذا الثناء . فتطيق شخصيته كذلك تلقى هذا الثناء . فى تماسك وفى توازن ، وفى طمأنينة . طمأنينة القلب الكبير الذى يسع حقيقة تلك الرسالة وحقيقة هذا الثناء العظيم . ثم يتلقى — بعد ذلك — عتاب ربه له ومؤاخذته إياه على بعض تصرفاته ، بذات التماسك وذات التوازن وذات الطمأنينة . ويعلن هذه كما يعلن تلك ، لايكتم من هذه شيئا ولا تلك . . وهو هو فى كلتا الحالتين النبى الكريم . والعبد الطائع . والمبلغ الأمين .

إن حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة . وإن عظمة هذه النفس من عظمة هـذه الرسالة . وإن الحقيقة المحمدية كالحقيقة الإسلامية لأبعد من مدى أى مجهر يملكه بشر . وقصارى مايملكه راصد لعظمة هذه الحقيقة المزدوجة أن يراها ولا يحدد مداها . وأن يشير إلى مسارها الكونى دون أن يحدد هذا المسار !

ومرة أخرى أجد نفسى مشدودا للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لهذه الكلمة من ربه ، وهو ثابت راسخ متوازن مطمئن الكيان . . لقد كان — وهو بشر — يثنى على أحد أصحابه ، فيهتز كيان صاحبه هذا وأصحابه من وقع هـذا الثناء العظيم .. وهو بشر وصاحبه يعلم أنه بشر . وأصحابه يدركون أنه بشر. إنه نبى نعم . ولكن فى الدائرة المعلومة الحدود . دائرة البشرية ذات الحدود . . فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله . وهو يعلم من هو الله . هو بخاصة يعلم من هو الله ! هو يعلم منه مالا يعلمه سواه . ثم يصطبر ويتماسك ويتلقى وييسر ... إنه أمر فوق كل تصور وفوق كل تقدير !!!

إنه محمد — وحده — هو الذى يرقى إلى هذا الأفق من العظمة .. إنه محمد — وحده — هو الذى يبلغ قمة الكمال الإنسانى المجانس لنفخة الله فى الكيان الإنسانى . إنه محمد — وحده — هو الذى يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية ؛ حتى لتتمثل فى شخصه حية ، تمشى على الأرض فى إهاب إنسان . . إنه محمد — وحده — الذى علم الله منه أنه أهل لهذا المقام . والله أعلم حيث يجعل رسالته — وأعلن فى هذه أنه على خلق عظيم . وأعلن فى الأخرى أنه — جل شأنه وتقدست ذاته وصفاته . يصلى عليه هو وملائكته « إن الله وملائكته يصلون على النبى » . . وهو — جل شأنه — وحده القادر على أن يهب عبدا من عباده ذلك الفضل العظيم . .

* * *

ثم إن لهذه اللفتة دلالتها على تمجيد العنصر الأخلاقى فى ميزان الله ؛ وأصالة هذا العنصر فى الحقيقة الإسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية .

والناظر فى هذه العقيدة ، كالناظر فى سيرة رسولها ، يجد العنصر الأخلاقى بارزا أصيلا فيها ، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء .. الدعوة الكبرى فى هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة والأمانة والصدق والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد ، ومطابقة القول للفعل ، ومطابقتهما معا للنية والضمير ؛ والنهى عن الجور والظلم والخداع والغش وأكل

أموال الناس بالباطل ، والاعتداء على الحرمات والأعراض ، وإشاعة الفاحشة بأية صورة من الصور .. والتشريعات فى هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاق فى الشعور والسلوك ، وفى أعماق الضمير وفى واقع المجتمع . وفى العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء .

والرسول الكريم يقول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .. فيلخص رسالته فى هذا الهدف النبيل . وتتوارد أحاديثه تترى فى الحض على كل خلق كريم . وتقوم سيرته الشخصية مثالا حيا وصفحة نقية ، وصورة رفيعة ، تستحق من الله أن يقول عنها فى كتابه الخالد: « وإنك لعلى خلق عظيم » ..فيمجد بهذا الثناء نبيه — صلى الله عليه وسلم — كما يمجد به العنصر الأخلاقى فى منهجه الذى جاء به هذا النبى الكريم . ويشد به الأرض إلى السماء ، ويعلق به قلوب الراغبين إليه — سبحانه — وهو يدلهم على مايحب ويرضى من الخلق القويم .

وهذا الاعتبار هو الاعتبار الفذ فى أخلاقية الإسلام. فهى أخلاقية لم تنبع من البيئة، ولا من اعتبارات أرضية إطلاقا ؛ وهى لاتستمد ولاتعتمد على اعتبار من اعتبارات العرف أو المصلحة أو الارتباطات التى كانت قائمة فى الجيل . إنما تستمد من السماء وتعتمد على السماء . تستمد من هتاف السماء للأرض لكى تتطلع إلى الأفق . وتستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر فى حدود الطاقة ، كى يحققوا إنسانيتهم العليا ، وكى يصبحوا أهلا لتكريم الله لهم واستخلافهم فى الأرض ؛ وكى يتأهلوا للحياة الرفيعة الأخرى : « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .. ومن ثم فهى غير مقيدة ولامحدودة بحدود من أى اعتبارات قائمة فى الأرض ؛ إنما هى طليقة ترتفع إلى أقصى مايطيقه البشر ، لأنها تتطلع إلى تحقيق صفات الله الطليقة من كل حد ومن كل قيد .

ثم إنها ليست فضائل مفردة : صدق . وأمانة . وعدل . ورحمة . وبر ... إنما هى منهج متكامل ، تتعاون فيه التربية التهذيبية مع الشرائع التنظيمية ؛ وتقوم عليه فكرة الحياة كلها واتجاهاتها جميعا ، وتنتهى فى خاتمة المطاف إلى الله . لا إلى أى اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة !

وقد تمثلت هذه الأخلاقية الإسلامية بكمالها وجمالها وتوازنها واستقامتها واطرادها وثباتها فى محمد — صلى الله عليه وسلم — وتمثلت فى ثناء الله العظيم ، وقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » . .

* * *

وبعد هذا الثناء الكريم على عبده يطمئنه إلى غده مع المشركين ، الذين رموه بذلك البهت اللئيم ؟ ويهددهم بافتضاح أمرهم وانكشاف بطلانهم وضلالهم المبين :

« فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . .

والمفتون الذى يطمئن الله نبيه إلى كشفه وتعيينه هو الضال . أوهو الممتحن الذى يكشف الامتحان عن حقيقته . وكلا المدلولين قريب من قريب . . وهذا الوعد فيه من الطمأنينة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وللمؤمنين معه ، بقدر ما فيه من التهديد للمناوئين له المفترين عليه . . أيا كان مدلول الجنون الذى رموه به . والأقرب إلى الظن أنهم لم يكونوا يقصدون به ذهاب العقل . فالواقع يكذب هذا القول . إنما كانوا يعنون به مخالطة الجنة له ، وإيحاءهم إليه بهذا القول الغريب البديع – كما كانوا يظنون أن لكل شاعر شيطانا هو الذى يمده ببديع القول ! – وهو مدلول بعيد عن حقيقة حال النبي – صلى الله عليه وسلم – وغريب عن طبيعة مايوحى إليه من القول الثابت الصادق المستقيم .

وهذا الوعد من الله يشير إلى أن الغد سيكشف عن حقيقة النبي وحقيقة مكذبيه . ويثبت أيهم الممتحن بما هو فيه ؟ أوأيهم الضال فيما يدعيه . ويطمئنه إلى أن ربه « هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . . وربه هو الذى أوحى إليه ، فهو يعلم أنه المهتدى ومن معه . وفى هذا مايطمئنه وما يقلق أعداءه ، ومايبعث فى قلوبهم التوجس والقلق لماسيجىء !

***

ثم يكشف الله له عن حقيقة حالهم ، وحقيقة مشاعرهم ، وهم يخاصمونه ويجادلونه فى الحق الذى معه ، ويرمونه بما يرمونه ، وهم مزعزعو العقيدة فيما لديهم من تصورات الجاهلية ، التى يتظاهرون بالتصميم عليها . إنهم على استعداد للتخلى عن الكثير منها فى مقابل أن يتخلى هو عن بعض مايدعوهم إليه ! على استعداد أن يدهنوا ويلينوا ويحافظوا فقط على ظاهر الأمر لكى يدهن هو لهم ويلين . . فهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق . وإنما هم أصحاب ظواهر يهمهم أن يستروها :

« فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون » . .

فهى المساومة إذن ، والالتقاء فى منتصف الطريق . كما يفعلون فى التجارة . وفرق بين

الاعتقاد والتجارة كبيرا فصاحب العقيده لايتخلى عن شيء منها ؛ لأن الصغير منها كالكبير . بل ليس فى العقيدة صغير وكبير. إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء . لايطيع فيها صاحبها أحدا ، ولايتخلى عن شيء منها أبدا .

وما كان يمكن أن يلتقى الإسلام والجاهلية فى منتصف الطريق ،ولا أن يلتقيا فى أى طريق. وذلك حال الإسلام مع الجاهلية فى كل زمان ومكان . جاهلية الأمس وجاهلية اليوم ، وجاهلية الغد كلها سواء . إن الهوة بينها وبين الإسلام لاتعبر ، ولا تقام عليها قنطرة ، ولا تقبل قسمة ولا صلة . وإنما هو النضال الكامل الذى يستحيل فيه التوفيق !

ولقد وردت روايات شتى فيما كان يدهن به المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم ليدهن لهم ويلين ؛ ويترك سب آلهتهم وتسفيه عبادتهم، أو يتابعهم فى شيء مما هم عليه ليتابعوه فى دينه ،وهم حافظون ماء وجوههم أمام جماهير العرب على عادة المساومين الباحثين عن أنصاف الحلول ! ولكن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان حاسما فى موقفه من دينه ، لايدهن فيه ولا يلين . وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانبا وأحسنهم معاملة وأبرهم بعشيرة وأحرصهم على اليسر والتيسير . فأما الدين فهو الدين ! وهو فيه عند توجيه ربه : « فلا تطع المكذبين » !

ولم يساوم — صلى الله عليه وسلم — فى دينه وهو فى أحرج المواقف العصيبة فى مكة . وهو محاصر بدعوته .وأصحابه القلائل يتخطفون ويعذبون ويؤذون فى الله أشد الإيذاء وهم صابرون. ولم يسكت عن كلمة واحدة ينبغى أن تقال فى وجوه الأقوياء المتجبرين ، تأليفا لقلوبهم ، أو دفعا لأذاهم . ولم يسكت كذلك عن إيضاح حقيقة تمس العقيدة من قريب أو من بعيد . .

روى ابن هشام فى السيرة عن ابن إسحاق قال :

« فلما بادى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قومه بالإسلام. وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه — فيما بلغنى — حتى ذكر آلهتهم وعابها . فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ،وأجمعوا خلافه وعداوته — إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون — وحدب على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عمه أبو طالب ومنعه ، وقام دونه ، ومضى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على أمر الله مظهرا لأمره ، لايرده عنه شيء .

« فلما رأت قريش أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لايعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ،

مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب .. عتبة وشيبة أبنا ربيعة ،وأبو سفيان ابن حرب ابن أمية . وأبو البختري واسمه العاص ابن هشام . والأسود ابن المطلب ابن أسد . وأبو جهل (واسمه عمرو ابن هشام وكان يكنى أبا الحكم) والوليد ابن المغيرة ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ابن عامر . . أو من مشى منهم .. فقالوا : ياأبا طالب . إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ؛ فنكفيكه ! فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه .

« ومضى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على ماهو عليه : يظهر دين الله ،ويدعو إليه. ثم شرى [1] الأمر بينه وبينهم حتى تباعدوا وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتذامروا [2] فيه . وحض بعضهم بعضا عليه . ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى . فقالوا : له ياأبا طالب . إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا . وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ؛ وإنا والله لانصبر على هذا :من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ــ أو كما قالوا له . . ثم انصرفوا عنه . فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ،ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لهم ولا خذلانه .قال ابن إسحاق :وحدثني يعقوب ابن عقبة ابن المغيرة ابن الأخنس ، أنه حدّث ، أن قريشا حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال له : ياابن أخي . إن قومك قد جاءوني فقالوا لي : كذا وكذا (للذى كانوا قالوا له) فأبق علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر مالا أطيق . قال : فظن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قد بدا لعمه فيه بداء ،وأنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . قال : فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: « ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته » . . قال : واستعبر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فبكى . ثم قام . فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل ياابن أخي . قال :فأقبل عليه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال: اذهب ياابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا» .

---

(١) زاد واشتد .

(٢) تغيظوا وحض بعضهم بعضا عليه .

فهذه صورة من إصرار النبي — صلى الله عليه وسلم — على دعوته فى اللحظة التى تخلى عنه فيها عمه . حاميه وكافيه . وآخر حصن من حصون الأرض يمنعه المتربصين به المتذامرين فيه !

هذههى صورة قوية رائعة جديدة فىنوعها من حيث حقيقتها ،ومن حيث صورها وظلالها ومن حيث عباراتها وألفاظها ... جديدة جدة هذه العقيدة ، رائعة روعة هذه العقيدة ، قوية قوة هذه العقيدة . فيها مصداق قول الله العظيم : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

وصورة أخرى رواها كذلك ابن إسحاق، كانت فى مساومة مباشرة من المشركين لرسول الله — صلىاللهعليهوسلم — بعد إذ أعياهم أمره ، . ووثبت كل قبيلة على من أسلم منها تعذبه وتفتنه عن دينه .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد ابن زياد ، عن محمد ابن كعب القرظى ، قال: حدثت أن عتبة ابن ربيعة وكان سيدا ، قال يوما وهو جالس فىنادى قريش ،ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — جالس فىالمسجد وحده: يامعشر قريش .ألا أقوم إلى محمد فأ كلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يزيدون ويكثرون . فقالوا : ياأبا الوليد قم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : ياابن أخى . إنك منا حيث علمت : من السطة [1] فى العشيرة والمكان فى النسب ؛ وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم .فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ،لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « قل ياأبا الوليد أسمع » . قال : ياابن أخى . إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أ كثرنا مالا . وإن كنت إنماتريد بهشرفا سودناك عليناحتى لانقطعأمرا دونك .وإن كنت تريدبه ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربماغلب التابع علىالرجل حتى يداوى منه ! — أو كما قال له — حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يستمع منه قال : « أقد فرغت ياأبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمعمنى » . قال : أفعل . فقال : «بسمالله الرحمن الرحيم.

(١) أى المنزلة الرفيعة المهيبة .

حم . تنزيل من الرحمان الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون . وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب، فاعمل إننا عاملون. قل : إنماأنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . . . » ثم مضى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه. ثم انتهى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى السجدة منها فسجد . ثم قال : « قد سمعت ياأبا الوليد ماسمعت . فأنت وذاك » .. فقام عتبة إلى أصحابه ،فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذى ذهب به .فلما جلس إليهم قالوا: ماوراءك ياأباالوليد؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى ، واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم . وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم . .

وفى رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .. فقام مذعورا فوضع يده على فم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : أنشدك الله والرحم يامحمد ! وذلك مخافة أن يقع النذير . وقام إلى القوم فقال ماقال !

وعلى أية حال فهذه صورة أخرى من صور المساومة .وهى كذلك صورة من صور الخلق العظيم . تبدو فى أدبه ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يستمع إلى عتبة حتى يفرغ من قوله الفارغ الذى لايستحق الانتباه من مثل محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى تصوره لقيم هذا الكون . وفى ميزانه للحق ولعرض هذه الأرض . ولكن خلقه يمسك به لايقاطع ولايتعجل ولايغضب ولايضجر ، حتى يفرغ الرجل من مقالته ، وهو مقبل عليه . ثم يقول فى هدوء: « أقد فرغت ياأبا الوليد ؟ » زيادة فى الإملاء والتوكيد . إنها الطمأنينة الصادقة للحق مع الأدب الرفيع فى الاستماع والحديث .. وهما معاً بعض دلالة الخلق العظيم .

وصورة ثالثة للمساومة فيما رواه ابن اسحاق قال :

« واعترض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يطوف بالكعبة — فيما بلغنى — الأسود ابن المطلب ابن أسد ابن عبدالعزى والوليد ابن المغيرة ، وأمية ابن خلف ، والعاص ابن وائل السهمى . وكانوا ذوى أسنان فى قومهم . فقالوا : يامحمد ، هلم فلنعبد ماتعبد ، وتعبد مانعبد، فنشترك نحن وأنت فى الأمر . فإن كان الذىتعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان مانعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ! فأنزل الله تعالى فيهم : « قل : ياأيها الكافرون. لاأعبد ماتعبدون » : السورة كلها ..

وحسم الله المساومة المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة . وقال لهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — ماأمره ربه أن يقول ...

***

ثم يبرز قيمة العنصر الأخلاقى مرة أخرى فى نهى الرسول — صلى الله عليه وسلم — عن إطاعة أحد هؤلاء المكذبين بالذات ، ويصفه بصفاته المزرية المنفرة ، ويتوعده بالإذلال والمهانة:

« ولاتطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم » . .

وقد قيل : إنه الوليد ابن المغيرة ، وإنه هو الذى نزلت فيه كذلك آيات من سورة المدثر: « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد. كلا !! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلاقول البشر . سأصليه سقر » . .

ورويت عنه مواقف كثيرة فى الكيد لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإنذار أصحابه، والوقوف فى وجه الدعوة ، والصد عن سبيل الله . . كما قيل : إن آيات سورة القلم نزلت فى الأخنس ابن شريق .. وكلاهما كان ممن خاصموا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولجوا فى حربه والتأليب عليه أمدا طويلا .

وهذه الحملة القرآنية العنيفة فى هذه السورة ، والتهديدات القاصمة فى السورة الأخرى ، وفى سواها ، شاهد على شدة دوره سواء كان هو الوليد أوالأخنس والأول أرجح ، فى حرب الرسول والدعوة ، كما هى شاهد على سوء طويته ، وفساد نفسه ، وخلوها من الخير .

والقرآن يصفه هنا بتسع صفات كلها ذميم . .

فهو حلاف . . كثير الحلف . ولايكثر الحلف إلاإنسان غير صادق ، يدرك أن الناس يكذبونه ولايثقون به ، فيحلف ويكثر من الحلف ليدارى كذبه ، ويستجلب ثقة الناس .

وهو مهين .. لايحترم نفسه، ولايحترم الناس قوله . وآية مهانته حاجته إلى الحلف، وعدم ثقته بنفسه وعدم ثقة الناس به . ولوكان ذا مال وذا بنين وذا جاه . فالمهانة صفة نفسية تلصق بالمرء ولوكان سلطانا طاغية جبارا. والعزة صفة نفسية لاتفارق النفس الكريمة ولوتجردت من كل أعراض الحياة الدنيا !

وهو هماز .. يهمز الناس ويعيبهم بالقول والإشارة فى حضورهم أوفى غيبتهم سواء . وخلق الهمز يكرهه الإسلام أشد الكراهية ؛ فهو يخالف المروءة ، ويخالف أدب النفس ، ويخالف الأدب فى معاملة الناس وحفظ كراماتهم صغروا أم كبروا. وقد تكرر ذم هذا الخلق فىالقرآن فى غير موضع ؛ فقال : « ويل لكل همزة لمزة » .. وقال : « ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن . ولا تلمزوا أنفسكم . ولاتنابزوا بالألقاب » وكلها أنواع من الهمز فى صورة من الصور ..

وهو مشاء بنميم . يمشى بين الناس بما يفسد قلوبهم ، ويقطع صلاتهم ، ويذهب بموداتهم . وهو خلق ذميم كما أنه خلق مهين ، لايتصف به ولايقدم عليه إنسان يحترم نفسه أويرجو لنفسه احتراما عند الآخرين . حتى أولئك الذين يفتحون آذانهم للنمام ، ناقل الكلام ، المشاء بالسوء بين الأوداء . حتى هؤلاء الذين يفتحون آذانهم له لايحترمونه فى قرارة نفوسهم ولايودونه .

ولقد كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ينهى أن ينقل إليه أحد مايغير قلبه على صاحب من أصحابه . وكان يقول : « لايبلغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » (١) .

وثبت فى الصحيحين من حديث مجاهد عن طاووس عن ابن عباس قال : مر رسول الله ــ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ــ بقبرين ، فقال . « إنهما ليعذبان ، ومايعذبان فى كبير . أما أحدهما فكان لايستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة » .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى من حديث ابن مسعود .

وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: « لا يدخل الجنه قتات » أى نمام (ورواه الجماعة إلا ابن ماجه) .

وروى الإمام أحمد كذلك ـ بإسناده ـ عن يزيد ابن السكن . أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ألا أخبركم بخياركم ؟ » قالوا : بلى يارسول الله . قال : « الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل » ثم قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العيب » .

ولم يكن بد للإسلام أن يشدد فى النهى عن هذا الخلق الذميم الوضيع ،الذى يفسد القلب ، كما يفسد الصحب ، ويتدنى بالقائل قبل أن يفسد بين الجماعة ، ويأكل قلبه وخلقه قبل أن يأكل سلامة المجتمع ، ويفقد الناس الثقة بعضهم ببعض ، ويجنى على الأبرياء فى معظم الأحايين !

وهو مناع للخير . . يمنع الخير عن نفسه وعن غيره . ولقد كان يمنع الإيمان وهو جماع الخير . وعرف عنه أنه كان يقول لأولاده وعشيرته ، كلما آنس منهم ميلا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشىء أبدا. فكان يمنعهم بهذا التهديد عن الإسلام . ومن ثم سجل القرآن عليه هذه الصفة « مناع للخير » فيما كان يفعل ويقول .

وهو معتد . . متجاوز للحق والعدل إطلاقا. ثم هو معتد على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى المسلمين وعلى أهله وعشيرته الذين يصدهم عن الهدى ويمنعهم من الدين . . والاعتداء صفة ذميمة تنال من عناية القرآن والحديث اهتماما كبيرا . . وينهى عنها الإسلام فى كل صورة من صورها . حتى فى الطعام والشراب: « كلوا من طيبات مارزقناكم ولا تطغوا فيه » . . لأن العدل والاعتدال طابع الإسلام الأصيل .

وهو أثيم . . يرتكب المعاصى حتى يحق عليه الوصف الثابت . « أثيم » . . بدون تحديد لنوع الآثام التى يرتكبها . فاتجاه التعبير إلى إثبات الصفة ، وإلصاقها بالنفس كالطبع المقيم !

وهو بعد هذا كله « عتل » . . وهى لفظة تعبر بجرسها وظلها عن مجموعة من الصفات ومجموعة من السمات ، لاتبلغها مجموعة ألفاظ وصفات . فقد يقال : إن العتل هو الغليظ الجافى. وإنه الأكول الشروب. وإنه الشره المنوع . وإنه الفظ فى طبعه اللئيم فى نفسه ، السىء فى معاملته .. وعن أبى الدرداء رضى الله عنه: « العتل كل رغيب الجوف، وثيق الخلق ، أكول

شروب ، جموع للمال ، منوع له » . . ولـكن تبقى كلمة « عتل » بذاتها أدل على كل هذا ، وأبلغ تصويرا للشخصية الـكريهة من جميع الوجوه .

وهو زنيم .. وهذه خاتمة الصفات الذميمة الـكريهة المتجمعة فى عدو من أعداء الإسلام — وما يعادى الإسلام ويصر على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الذميم — والزنيم من معانيه اللصيق فى القوم لانسب له فيهم ، أوأن نسبه فيهم ظنين . ومن معانيه ، الذى اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره . والمعنى الثانى هو الأقرب فى حالة الوليد ابن المغيرة . وإن كان إطلاق اللفظ يدمغه بصفة تدعه مهينا فى القوم ، وهو المختال الفخور .

ثم يعقب على هذه الصفات الذاتية بموقفه من آيات الله ، مع التشنيع بهذا الموقف الذى يجزى به نعمة الله عليه بالمال والبنين :

« أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين » . .

وما أقبح مايجزى إنسان نعمة الله عليه بالمال والبنين ؛ استهزاء بآياته ، وسخرية من رسوله ، واعتداء على دينه . . وهذه وحدها تعدل كل مامر من وصف ذميم .

ومن ثم يجىء التهديد من الجبار القهار ، يلمس فى نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين ؛ كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه . . ويسمع وعد الله القاطع :

« سنسمه على الخرطوم » . .

ومن معانى الخرطوم طرف أنف الخنزير البرى . . ولعلههو المقصود هنا كناية عن أنفه ! والأنف فى لغة العرب يكنى به عن العزة فيقال : أنف أشم للعزيز . وأنف فى الرغام للذليل .. أى فى التراب ! ويقال ورم أنفه وحمى أنفه ، إذا غضب معتزا . ومنه الأنفة .. والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوى نوعين من الإذلال والتحقير . . الأول الوسم كما يوسم العبد . . والثانى جعل أنفه خرطوما كخرطوم الخنزير !

ومامن شك أن وقع هذه الآيات على نفس الوليد كان قاصما .فهو من أمة كانت تعد هجاء شاعر — ولو بالباطل — مذمة يتوقاها الـكريم ! فـكيف بدمغه بالحق من خالق السماوات والأرض . بهذا الأسلوب الذى لايبارى . فى هذا السجل الذى تتجاوب بكل لفظ من ألفاظه جنبات الوجود . ثم يستقر فى كيان الوجود . . فى خلود . .

إنهـا القاصمة التى يستأهلها عدو الإسـلام وعدو الرسول الـكريم صاحب الخلق العظيم . .

* * *

وبمناسبة الإشارة إلى المال والبنين ،والبطر الذى يبطره المـكذبون ، يضرب لهم مثلا بقصة يبدو أنها كانت معروفة عندهم ، شائعة بينهم ، ويذكرهم فيها بعاقبة البطر بالنعمة ، ومنع الخير والاعتداء على حقوق الآخرين ؛ويشعرهم أن مابين أيديهم من نعم المـال والبنين ،إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلى أصحاب هذه القصة، وأن له مابعده، وأنهم غير متروكين لما هم فيه:

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثـكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون :ألا يدخلنها اليوم عليـكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا :إنا لضالون، بل نحن محرومون. قال أوسطهم: ألم أقل لـكم لولا تسبحون ! قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، قالوا: ياويلنا إنا كنا طاغين ،عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون . . كذلك العذاب، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » . .

وهذه القصة قد تـكون متداولة ومعروفة ، ولـكن السياق القرآنى يـكشف عما وراء حوادثها من فعل الله وقدرته ، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده . ويـكون هذا هو الجديد فى سياقها القرآنى .

ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه فى تفكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السذج. ولعلهذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة ، الذين كانوا يعاندون ويجحدون ، ولـكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد ، إنما هى أقرب إلى السذاجة والبساطة !

والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفنى للقصة فى القرآن ؛ وفيه مفاجآت مشوقة ، كما أن فيه سخرية بالـكيد البشرى العاجز أمام تدبير الله وكيده . وفيه حيوية فى العرض حتى لـكأن السامع ــ أو القارىء ــ يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى (١). فلنحاول أن نراها كما هى فى سياقها القرآنى :

---

(١) يراجع فصل : القصة فى القرآن فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

هانحن أولاء أمام أصحاب الجنة ــ جنة الدنيا لاجنة الآخرة ــ وهاهم أولاء يبيتون فى شأنها أمرا . لقد كان للمساكين حظ من ثمرة هذه الجنة ــ كما تقول الروايات ــ على أيام صاحبها الطيب الصالح . ولكن الورثة يريدون أن يستأثروا بثمرها الآن ، وأن يحرموا المساكين حظهم . . فلننظر كيف تجرى الأحداث إذن !

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة . إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون » .

لقد قر رأيهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر ، دون أن يستثنوا منه شيئا للمساكين .وأقسموا على هذا ، وعقدوا النية عليه، وباتوا بهذا الشر فيما اعتزموه . . فلندعهم فى غفلتهم أو فى كيدهم الذى بيتوه، ولننظر ماذا يجرى من ورائهم فى بهمة الليل وهم لايشعرون. فإن الله ساهر لاينام كما ينامون ، وهو يدبر لهم غير مايدبرون ، جزاء على مابيتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير ،وبخل بنصيب المساكين المعلوم . . إن هناك مفاجأة تتم فى خفية . وحركة لطيفة كحركة الأشباح فى الظلام . والناس نيام :

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم » (١) . .

فلندع الجنة وماألم بها مؤقتا لننظر كيف يصنع المبيتون الماكرون .

هاهم أولاء يصحون مبكرين كما دبروا ، وينادى بعضهم بعضا لينفذوا مااعتزموا :

« فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » . .

يذكر بعضهم بعضا ، ويوصى بعضهم بعضا ، ويحمس بعضهم بعضا !

ثم يمضى السياق فى السخرية منهم ، فيصورهم منطلقين ؛ يتحدثون فى خفوت ، زيادة فى إحكام التدبير ، ليحتجنوا الثمر كله لهم ، ويحرموا منه المساكين !

« فانطلقوا وهم يتخافتون : ألايدخلنها اليوم عليكم مسكين » !!!

وكأنما نحن الذين نسمع القرآن أونقرؤه نعلم مالايعلمه أصحاب الجنة من أمرها . . أجل فقد شهدنا تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها فى الظلام ، فتذهب بثمرها كله . ورأيناها كأنما هى مقطوعة الثمار بعد ذلك الطائف الخفى الرهيب ! فلنمسك أنفاسنا إذن ، لنرى كيف يصنع الماكرون المبيتون .

إن السياق مايزال يسخر من الماكرين المبيتين :

---

(١) كأنها مقطوعة الثمار . فقد ذهب الطائف الذى طاف عليها بكل ثمرها !

« وغدوا على حرد قادرين » !

أجل إنهم لقادرون على المنع والحرمان . . حرمان أنفسهم على أقل تقدير !!

وهاهم أولاء يفاجأون . فلننطلق مع السياق ساخرين . ونحن نشهدهم مفجوءين :

« فلما رأوها قالوا : إنا لضالون » . .

ماهذه جنتنا الموقرة بالثمار . فقد ضللنا إليها الطريق ! .. ولكنهم يعودون فيتأكدون :

« بل نحن محرومون » ..

وهذا هو الخبر اليقين !

والآن وقد حاقت بهم عاقبة المكر والتبييت ، وعاقبة البطر والمنع ،يتقدم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم ـ ويبدو أنه كان له رأى غير رأيهم . ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد فى رأيه . ولم يصر على الحق الذى رآه فناله الحرمان كما نالهم . ولكنه يذكرهم ماكان من نصحه وتوجيهه :

« قال : ألم أقل لكم : لولا تسبحون » ؟ !

والآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان :

« قالوا : سبحان ربنا ، إنا كنا ظالمين » . .

وكما يتنصل كل شريك من التبعة عند ما تسوء العاقبة ، ويتوجه باللوم إلى الآخرين . . هاهم أولاء يصنعون :

« فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » !

ثم هاهم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعا بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة . عسى أن يغفر الله لهم ، ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير :

« قالوا : ياويلنا ! إنا كنا طاغين .عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون ».. وقبل أن يسدل السياق الستار على المشهد الأخير نسمع التعقيب:

« كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » ..

وكذلك الابتلاء بالنعمة . فليعلم المشركون أهل مكة . « إنابلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » ولينظروا ماذا وراء الابتلاء . . ثم ليحذروا ماهو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا :

« ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » !

* * *

وكذلك يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته فى الغابرين وسنته فى الحاضرين ؛ ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم . وفى الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن مايرونه على المشركين — من كبراء قريش — من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله ، له عواقبه ، وله نتائجه . وسنته أن يبتلى بالنعمة كما يبتلى بالبأساء سواء. فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم، فذلك كان مثلا لعاقبتهم : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .. وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم :

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » ..

وهو التقابل فى العاقبة ، كما أنه التقابل فى المسلك والحقيقة . . تقابل النقيضين اللذين اختلفت بهما الطريق ، فاختلفت بهما خاتمة الطريق !

* * *

وعند هاتين الخاتمتين يدخل معهم فى جدل لاتعقيد فيه كذلك ولاتركيب . ويتحداهم ويحرجهم بالسؤال تلو السؤال عن أمور ليس لها إلاجواب واحد تصعب المغالطة فيه ؛ ويهددهم فى الآخرة بمشهد رهيب ، وفى الدنيا بحرب من العزيز الجبار القوى الشديد :

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لما تخيرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيهم بذلك زعيم ؟ أم لهم شركاء ؟ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين . يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون . فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين . أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ؟ !

والتهديد بعذاب الآخرة وحرب الدنيا يجيء — كما ترى — فى خلال ذلك الجدل ، وهذا التحدى . فيرفع من حرارة الجدل ، ويزيد من ضغط التحدى .

والسؤال الاستنكارى الأول : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ » يعود إلى عاقبة هؤلاء وهؤلاء التى عرضها فى الآيات السابقة . وهو سؤال ليس له إلاجواب واحد .. لا. لايكون.

فالمسلمون المذعنون المستسلمون لربهم ، لا يكونون أبدا كالمجرمين الذين يأتون الجريمة عن لجاج يسمهم بهذا الوصف الذميم ! ومايجوز فى عقل ولا فى عدل أن يتساوى المسلمون والمجرمون فى جزاء ولامصير .

ومن ثم يجىء السؤال الاستنكارى الآخر : « مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ » . . ماذا بكم ؟ وعلام تبنون أحكامكم ؟ وكيف تزنون القيم والأقدار ؟ حتى يستوى فى ميزانكم وحكمكم من يسلمون ومن يجرمون ؟!

ومن الاستنكار والإنكار عليهم ينتقل إلى التهكم بهم والسخرية منهم : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟إن لكم فيه لما تخيرون؟ » .. فهو التهكم والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب يدرسونه ، هو الذى يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذى لايقبله عقل ولا عدل ؛ وهو الذى يقول لهم : إن المسلمين كالمجرمين ! إنه كتاب مضحك يوافق هواهم ويملق رغباتهم ، فلهم فيه مايتخيرون من الأحكام وما يشتهون ! وهو لايرتكن إلى حق ولا إلى عدل ، ولا إلى معقول أو معروف !

« أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ » . . فإن لايكن ذلك فهو هذا . وهو أن تكون لهم مواثيق على الله ، سارية إلى يوم القيامة ، مقتضاها أن لهم مايحكمون ، وما يختارون وفق مايشتهون ! وليس من هذا شىء . فلا عهود لهم عند الله ولا مواثيق . فعلام إذن يتكلمون ؟ ! وإلام إذن يستندون ؟ !

« سلهم أيهم بذلك زعيم ؟ » . . سلهم من منهم المتعهد بهذا ؟ من منهم المتعهد بأن لهم على الله ما يشاءون ، وأن لهم ميثاقا عليه سارى المفعول إلى يوم القيامة أن لهم مايحكمون ؟ !

وهو تهكم ساخر عميق بليغ يذيب الوجوه من الحرج والتحدى السافر المكشوف !

« أم لهم شركاء ؟ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين » ..

وهم كانوا يشركون بالله . ولكن التعبير يضيف الشركاء إليهم لا لله . ويتجاهل أن هناك شركاء . ويتحداهم أن يدعوا شركاءهم هؤلاء إن كانوا صادقين . . ولكن متى يدعونهم ؟

« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » . .

فيقفهم وجها لوجه أمام هذا المشهد كأنه حاضر اللحظة ، وكأنه يتحداهم فيه أن يأتوا

بشركائهم المزعومين .وهذا اليوم حقيقة حاضرة فيعلم الله لاتتقيد فيعلمه بزمن. واستحضارها للمخاطبين على هـذا النحو يجعـل وقعها عميقا حيا حاضرا في النفوس على طريقـة القرآن الـكريم .

والـكشف عن الساق كناية ـ في تعبيرات اللغة العربية المأثورة ـ عن الشدة والـكرب . فهو يوم القيامة الذي يشمر فيه عن الساعد ويكشف فيه عن الساق ،ويشتد الـكرب والضيق .. ويدعى هؤلاء المتـكبرون إلى السجود فلا يملـكون السجود.إما لأن وقته قد فات . وإما لأنهم كما وصفهم في موضع آخر يكونون : « مهطعين مقنعي رؤوسهم » وكأن أجسامهم وأعصابهم مشدودة من الهـول على غير إرادة منهـم ! وعلى أية حال فهو تعبير يشي بالـكرب والعجز والتحدي المخيف . .

ثم يـكمل رسم هيئتهم: « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة» . . هؤلاء المتـكبرون المتبجحون. والأبصار الخاشعة والذلة المرهقة هما المقابلان للهامات الشامخة والـكبرياء المنفوخة .وهي تذكر بالتهديد الذي جاء في أول السورة :« سنسمه على الخرطوم » . . فإيحاء الذلة والانـكسار ظاهر عميق مقصود !

وبينما هم في هذا الموقف المرهق الذليل ، يذكرهم بما جرهم إليه من إعراض واستكبار: « وقد كانوا يدعـون إلى السجود وهم سالمون » . . قادرون على السجود . فـكانوا يأبون ويستكبرون . . كانوا . فهم الآن في ذلك المشهد المرهق الذليل . والدنيا وراءهم . وهم الآن يدعون إلى السجود فلا يستطيعون !

وبينما هم في هذا الـكرب ، يجيئهم التهديد الرعيب الذي يهد القلوب :

« فذرني ومن يـكذب بهذا الحديث » . .

وهو تهديد مزلزل .. والجبار القهار القوي المتين يقول للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : خل بيني وبين من يكذب بهذا الحديث . وذرني لحربه فأنا به كفيل !

ومن هو هذا الذي يكذب بهذا الحديث ؟

إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف ! هذه النملة المضعوفة . بل هذه الهباءة المنثورة . . بل هذا العدم الذي لايعني شيئا أمام جبروت الجبار القهار العظيم !

فيا محمد . خل بيني وبين هذا المخلوق . واسترح أنت ومن معك من المؤمنين . فالحرب

معى لامعك ولا مع المؤمنين . الحرب معى . وهذا المخلوق عدوى ، وأنا سأتولى أمره فدعه لى ، وذرنى معه ، واذهب أنت ومن معك فاستريحوا !

أى هول مزلزل للمكذبين ! وأى طمأنينة للنبى والمؤمنين . . المستضعفين . . ؟

ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف !

« سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » . .

وإن شأن المكذبين ، وأهل الأرض أجمعين ، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير . . ولكنه — سبحانه — يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان . وليعلموا أن الأمان الظاهر الذى يدعه لهم هو الفخ الذى يقعون فيه وهم غارّون . وأن إمهالهم على الظلم والبغى والإعراض والضلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير . وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب ، مستحقين للخزى والرهق والتعذيب . .

وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتدبير ، عدلا ولا رحمة . والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته فى هذا التحذير وذلك النذير . وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، فقد كشف القناع ووضحت الأمور !

إنه سبحانه يمهل ولا يهمل . ويملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سنته التى قدرها بمشيئته . ويقول لرسوله — صلى الله عليه وسلم — ذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، وخل بينى وبين المعتزين بالمال والبنين والجاه والسلطان . فسأملى لهم ، وأجعل هذه النعمة فخهم ! فيطمئن رسوله ، ويحذر أعداءه . . ثم يدعهم لذلك التهديد الرعيب !

وفى ظل مشهد القيامة المكروب وظل هذا التهديد المرهوب يكمل الجدل والتحدى والتعجيب من موقفهم الغريب :

« أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ » . .

فثقل الغرامة التى تطلبها منهم أجرا على الهداية هو الذى يدفعهم إلى الإعراض والتكذيب ، ويجعلهم يؤثرون ذلك المصير البشع ، على فداحة مايؤدون ؟ !

« أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ » . .

ومن ثم فهم على ثقة مما فى الغيب ، فلا يخيفهم ماينتظرهم فيه ، فقد اطلعوا عليه وكتبوه وعرفوه ؟ أو أنهم هم الذين كتبوا مافيه . فكتبوه ضامنا لما يشتهون ؟

ولا هذا ولا ذاك ؟ فما لهم يقفون هذا الموقف الغريب المريب ؟ !

* * *

وبذلك التعبير العجيب الموحى الرعيب: « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث » .. وبالإعلان عن خطة المعركة والكشف عن سنة الحرب بين الله وأعدائه المخدوعين .. بهذا وذلك يخلى الله النبى — صلى الله عليه وسلم — والمؤمنين من المعركة بين الإيمان والكفر . وبين الحق والباطل. فهى معركته — سبحانه — وهى حربه التى يتولاها بذاته .

والأمر كذلك فى حقيقته . مهما بدا أن للنبى — صلى الله عليه وسلم — وللمؤمنين دورا فى هذه الحرب أصيلا . إن دورهم حين ييسره الله لهم هو طرف من قدر الله فى حربه مع أعدائه . فهم أداة يفعل الله بها أو لا يفعل . وهو فى الحالين فعال لما يريد . وهو فى الحالين يتولى المعركة بذاته وفق سنته التى يريد .

وهذا النص نزل والنبى — صلى الله عليه وسلم — فى مكة ، والمؤمنون معه قلة لا تقدر على شىء . فكانت فيه الطمأنينة للمستضعفين ، والفزع للمغترين بالقوة والجاه والمال والبنين . ثم تغيرت الأحوال والأوضاع فى المدينة . وشاء الله أن يكون للرسول ومن معه من المؤمنين دور ظاهر فى المعركة . ولكنه هنالك أكد لهم ذلك القول الذى قاله لهم وهم فى مكة قلة مستضعفون . وقال لهم وهم منتصرون فى بدر : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله سميع عليم » ..

وذلك ليقر فى قلوبهم هذه الحقيقة . حقيقة أن المعركة معركته هو سبحانه . وأن الحرب حربه هو سبحانه . وأن القضية قضيته هو سبحانه . وأنه حين يجعل لهم فيها دورا فإنما ذلك ليبليهم منه بلاء حسنا . وليكتب لهم بهذا البلاء أجرا . أما حقيقة الحرب فهو الذى يتولاها . وأما حقيقة النصر فهو الذى يكتبها .. وهو سبحانه يجريها بهم وبدونهم . وهم حين يخوضونها أداة لقدرته ليست هى الأداة الوحيدة فى يده !

وهى حقيقة واضحة من خلال النصوص القرآنية فى كل موضع ، وفى كل حال ، وفى كل وضع . كما أنها هى الحقيقة التى تتفق مع التصور الإيمانى لقدرة الله وقدره ، ولسنته ومشيئته ، ولحقيقة القدرة البشرية التى تنطلق لتحقيق قدر الله .. أداة .. ولن تزيد على أن تكون أداة ..

وهى حقيقة تسكب الطمأنينة فى قلب المؤمن،فى حالتى قوته وضعفه على السواء .مادام يخلص قلبه لله ، ويتوكل فى جهاده على الله . فقوته ليست هى التى تنصره فى معركة الحق والباطل والإيمان والكفر ، إنما هو الله الذى يكفل له النصر . وضعفه لايهزمه لأن قوة الله من ورائه وهى التى تتولى المعركة وتكفل له النصر . ولكن الله يملى ويستدرج ويقدر الأمور فى مواقيتها وفق مشيئته وحكمته ، ووفق عدله ورحمته .

كما أنها حقيقة تفزع قلب العدو ، سواء كان المؤمن أمامه فى حالة ضعف أم فى حالة قوة. فليس المؤمن هو الذى ينازله . إنما هو الله الذى يتولى المعركة بقوته وجبروته . الله الذى يقول لنبيه « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث » وخل بينى وبين هذا البائس المتعوس ! والله يملى ويستدرج فهو فى الفخ الرعيب المفزع المخيف ، ولوكان فى أوج قوته وعدته . فهذه القوة هى ذاتها الفخ وهذه العدة هى ذاتها المصيدة . . « وأملى لهم إن كيدى متين » ! أما متى يكون . فذلك علم الله المكنون ! فمن يأمن غيب الله ومكره؟ وهل يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون؟

***

وأمام هذه الحقيقة يوجه الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — إلى الصبر . الصبر على تكاليف الرسالة . والصبر على التواءات النفوس . والصبر على الأذى والتكذيب . الصبر حتى يحكم الله فى الوقت المقدر كما يريد . ويذكره بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف ،فلولا أن تداركته نعمة الله لنبذ وهو مذموم :

« فاصبر لحكم ربك،ولاتكن كصاحب الحوت.إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » . .

وصاحب الحوت هو يونس — عليه السلام — كما جاء فى سورة الصافات . وملخص تجربته التى يذكر الله بها محمدا — صلى الله عليه وسلم — لتكون له زادا ورصيدا ، وهو خاتم النبيين ، الذى سبقته تجارب النبيين أجمعين فى حقل الرسالة ، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير ، وصاحب الرصيد الأخير ، وصاحب الزاد الأخير . فيعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير . عبء هداية البشرية جميعها لاقبيلة ولاقرية ولاأمة . وعبء هداية الأجيال جميعها لاجيل واحد ولاقرن واحد كما كانت مهمة الرسل قبله . وعبء إمداد البشرية بعده بكل أجيالها وكل أقوامها بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية مايجد فى حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب . وكل يوم يأتى بجديد . .

ملخص تلك التجربة أن يونس ابن متى ـ سلام الله عليه ـ أرسله الله إلى أهل قرية . قيل اسمها نينوى بالموصل : فاستبطأ إيمانهم ، وشق عليه تلكؤهم ، فتركهم مغاضبا ، قائلا فى نفسه : إن الله لن يضيق علىّ بالبقاء بين هؤلاء المتعنتين المعاندين ، وهو قادر على أن يرسلنى إلى قوم آخرين ! وقد قاده الغضب والضيق إلى شاطئ البحر ، حيث ركب سفينته ، فلما كانوا فى وسط اللج ثقلت السفينة وتعرضت للغرق . فأقرعوا بين الركاب للتخفف من واحد منهم لتخف السفينة . . فكانت القرعة على يونس . فألقوه فى اليم . فابتلعه الحوت .

عندئذ نادى يونس ـ وهو كظيم ـ فى هذا الكرب الشديد فى الظلمات فى بطن الحوت ، وفى وسط اللجة ، نادى ربه : « لا إله إلا أنت سبحانك ! إنى كنت من الظالمين » فتداركته نعمة من ربه ، فنبذه الحوت على الشاطىء . . لحما بلا جلد . . ذاب جلده فى بطن الحوت . وحفظ الله حياته بقدرته التى لا يقيدها قيد من مألوف البشر المحدود !

وهنا يقول : إنه لولا هذه النعمة لنبذه الحوت وهو مذموم . أى مذموم من ربه . . على فعلته . وقلة صبره . وتصرفه فى شأن نفسه قبل أن يأذن الله له . ولكن نعمة الله وقته هذا ، وقبل الله تسبيحه واعترافه وندمه . وعلم منه ما يستحق عليه النعمة والاجتباء . « فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » . .

هذه هى التجربة التى مر بها صاحب الحوت . يذكر الله بها رسوله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى موقف العنت والتكذيب . بعد ما أخلاه من المعركة كما هى الحقيقة ، وأمره بتركها له يتولاها كما يريد . وقتما يريد . وكلفه الصبر لحكم الله وقضائه فى تحديد الموعد ، وفى مشقات الطريق حتى يحين الموعد المضروب !

إن مشقة الدعوة الحقيقية هى مشقة الصبر لحكم الله ، حتى يأتى موعده ، فى الوقت الذى يريده بحكمته . وفى الطريق مشقات كثيرة . مشقات التكذيب والتعذيب . ومشقات الالتواء والعناد . ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه . ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون . ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق ، لا ترتاب ولا تتردد فى قطع الطريق ، مهما تكن مشقات الطريق . . وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق . . أما المعركة ذاتها فقد قضى الله فيها ، وقدر أنه

هو الذى يتولاها، كما قدر أنه يملى ويستدرج لحكمة يراها . كذلك وعد نبيه الكريم ، فصدقه الوعد بعد حين .

* * *

وفى الختام يرسم مشهدا للكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم ، فى غيظ عنيف ، وحسد عميق ينسكب فى نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه ، ويصفها القرآن بما لا مزيد عليه :

« وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر . ويقولون: إنه لمجنون».

فهذه النظرات تكاد تؤثر فى أقدام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتجعلها تزل وتزلق وتفقد توازنها على الأرض وثباتها ! وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحنق وشر وحسد ونقمة وضغن ، وحمى وسم . . مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسب القبيح ، والشتم البذىء ، والافتراء الذميم : « ويقولون : إنه لمجنون » . .

وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة وتسجله من مشاهد الدعوة العامة فى مكة . فهو لا يكون إلا فى حلقة عامة بين كبار المعاندين المجرمين ، الذين ينبعث من قلوبهم وفى نظراتهم كل هذا الحقد الذميم المحموم !

يعقب عليه بالقول الفصل الذى ينهى كل قول :

« وماهو إلا ذكر للعالمين » .

والذكر لا يقوله مجنون ، ولا يحمله مجنون . .

وصدق الله وكذب المفترون . .

* * *

ولابد قبل نهاية الحديث من لفتة إلى كلمة « للعالمين » . . هنا والدعوة فى مكة تقابل بذلك الجحود ، ويقابل رسولها بتلك النظرات المسمومة المحمومة ، ويرصد المشركون لحربها كل ما يملكون . . وهى فى هذا الوقت المبكر ، وفى هذا الضيق المستحكم ، تعلن عن عالميتها . كما هى طبيعتها وحقيقتها . فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت فى المدينة ـ كما يدعى المفترون اليوم ـ إنما كانت صفة مبكرة فى أيام مكة الأولى . لأنها حقيقة ثابتة فى صلب هذه الدعوة منذ نشأتها .

كذلك أرادها الله . وكذلك اتجهت منذ أيامها الأولى . وكذلك تتجه إلى آخر الزمان . والله الذى أرادها كما أرادها هو صاحبها وراعيها . وهو الدافع عنها وحاميها . وهو الذى يتولى المعركة مع المكذبين . وليس على أصحابها إلا الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . .

سورة الحاقة مكية وآياتها ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« ٱلْحَاقَّةُ * مَا ٱلْحَاقَّةُ ؟ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ؟ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ، فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ؟ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتُ بِٱلْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَى ٱلْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ .

« فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * وَٱنْشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ .

« فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ ٱقْرَأُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ .

« وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ .

« خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ .

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » ...

هذه سورة هائلة رهيبة ؛ قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة ؛ وهى منذ افتتاحها إلى ختامها تقرع هذا الحس ، وتطالعه بالهول القاصم ، والجد الصارم ، والمشهد تلو المشهد ، كله إيقاع ملح على الحس ، بالهول آنا وبالجلال آنا ، وبالعذاب آنا ، وبالحركة القوية فى كل آن !

والسورة بجملتها تلقى فى الحس بكل قوة وعمق إحساسا واحدا بمعنى واحد . . أن هذا الأمر ، أمر الدين والعقيدة ، جد خالص حازم جازم . جد كله لاهزل فيه . ولامجال فيه للهزل . جد فى الدنيا وجد فى الآخرة ، وجد فى ميزان الله وحسابه . جد لايحتمل التلفت عنه هنا أوهناك كثيرا ولاقليلا . وأى تلفت عنه من أى أحد يستنزل غضب الله الصارم ، وأخذه الحاسم . ولوكان الذى يتلفت عنه هو الرسول . فالأمر أكبر من الرسول وأكبر من البشر .. إنه الحق . حق اليقين . من رب العالمين .

يبرز هذا المعنى فى اسم القيامة المختار فى هذه السورة ، والذى سميت به السورة : «الحاقة» .. وهى بلفظها وجرسها ومعناها تلقى فى الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار . وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شىء برفع الثقل طويلا ، ثم استقراره استقرارا آمكينا . رفعه فى مدة الحاء بالألف، وجده فى تشديد القاف بعدها ، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التى تنطق هاء ساكنة .

ويبرز فى مصارع المكذبين بالدين وبالعقيدة وبالآخرة قوما بعد قوم، وجماعة بعد جماعة. مصارعهم العاصفة القاصمة الحاسمة الجازمة : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم ، فأخذهم أخذة رابية . إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » .. وهكذا كل من تلفت عن هذا الأمر أخذ أخذة مروعة داهمة قاصمة ، تتناسب مع الجد الصارم الحاسم فى هذا الأمر العظيم الهائل، الذى لا يحتمل هزلا ، ولا يحتمل لعبا ، ولا يحتمل تلفتاً عنه من هنا أوهناك !

ويبرز فى مشهد القيامة المروع، وفى نهاية الكون الرهيبة ، وفى جلال التجلى كذلك وهو أروع وأهول : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية..والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » . .

ذلك الهول . وهذا الجلال . يخلعان الجد الرائع الجليل على مشهد الحساب عن ذلك الأمر المهول . ويشاركان فى تعميق ذلك المعنى فى الحس مع سائر إيقاعات السورة وإيحاءاتها . هو ومابعده من مقالة الناجين والمعذبين: « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول: هاؤم اقرأوا كتابيه. إنى ظننت أنى ملاق حسابيه » . . فقد نجا ومايكاد يصدق بالنجاة . . « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ماحسابيه . ياليتها كانت القاضية . ماأغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه » . . بهذا التفجع الطويل ، الذى يطبع فى الحس وقع هـذا المصير . .

ثم يبدو ذلك الجد الصارم والهول القاصم فى النطق العلوى بالقضاء الرهيب الرعيب ، فى اليوم الهائل ، وفى الموقف الجليل : « خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها

سبعون ذراعا فاسلكوه » . . وكل فقرة كأنها تحمل ثقل السماوات والأرض ، وتنقضّ في جلال مذهل، وفي هول مروع ، وفي جد ثقيل ..

ثم ما يعقب كلة القضاء الجليل ، من بيان لموجبات الحكم الرهيب ونهاية المذنب الرعيبة : « إنه كان لايؤمن بالله العظيم . ولايحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم . ولاطعام إلامن غسلين . لايأكله إلا الخاطئون » ..

ثم يبرز ذلك المعنى في التلويح بقسم هائل ، وفي تقرير الله لحقيقة الدين الأخير : « فلا أقسم بما تبصرون ومالاتبصرون . إنه لقول رسول كريم . وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ، ولابقول كاهن ، قليلا ماتذكرون . تنزيل من رب العالمين » .،

وأخيرا يبرز الجد في الإيقاع الأخير. وفي التهديد الجازم والأخذ القاصم لكل من يتلاعب في هذا الأمر أويبدل ، كائنا من كان ، ولو كان هو محمدا الرسول : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » .. فهو الأمر الذى لاتسامح فيه ولاهوادةولا لين ..

وعندئذ تختم السورة بالتقرير الجازم الحاسم والقول الفصل الأخير عن هذا الأمر الخطير : « وإنه لتذكرة للمتقين .وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين .. فسبح باسم ربك العظيم » . . وهو الختام الذى يقطع كل قول ، ويلقى بكلمة الفصل ، وينتهى إلى الفراغ من كل لغو، والتسبيح باسم الله العظيم . .

* * *

ذلك المعنى الذى تتمحض السورة لإلقائه في الحس ، يتكفل أسلوبها وإيقاعها ومشاهدها وصورها وظلالها بإلقائه وتقريره وتعميقه بشكل مؤثر حى عجيب :

إن أسلوب السورة يحاصر الحس بالمشاهد الحية ، المتناهية الحيوية ، بحيث لايملك منها فكاكا ، ولايتصور إلا أنهاحية واقعة حاضرة ،تطالعه بحيويتها وقوتها وفاعليتها بصورة عجيبة !

فهذه مصارع ثمود وعاد وفرعون وقرى لوط (المؤتفكات) حاضرة شاخصة ، والهول المروع يجتاح مشاهدها بصورة لافكاك للحس منها . وهذا مشهد الطوفان وبقايا البشرية محمولة في الجارية مرسوما في آيتين اثنتين سريعتين . ومن ذا الذى يقرأ : « وأما عاد فأهلكوا

بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ؟ » . . ولا يتمثل لحسه منظر العاصفة المزمجرة المحطمة المدمرة . سبع ليال وثمانية أيام. ومشهد القوم بعدها صرعى مجدلين « كأنهم أعجاز نخل خاوية ! » . وهو مشهد حى ماثل للعين ، ماثل للقلب ، ماثل للخيال ! وكذلك سائر مشاهد الأخذ الشديد العنيف فى السورة .

ثم هـذه مشاهد النهاية المروعة لهذا الـكون . هذه هى تخايل للحس ، وتقرقع حوله ، وتغمره بالرعب والهول والـكآبة . ومن ذا الذى يسمع : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » .. ولا يسمع حسه القرقعة بعد ماترى عينه الرفعة ثم الدكة !! ومن الذى يسمع : « وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها » .. ولا يتمثل خاطره هـذه النهاية الحزينة ، وهذا المشهد المفجع للسماء الجميلة المتينة ؟! ثم من الذى لا يغمر حسه الجلال والهول وهو يسمع : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . .

ومشهد الناجى الآخذ كتابه بيمينه والدنيا لاتسعه من الفرحة ، وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه فى رنة الفرح والغبطة : « هاؤم اقرأوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه » !

ومشهد الهالك الآخذ كتابه بشماله . والحسرة تئن فى كلماته ونبراته وإيقاعاته : « ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ماحسابيه . ياليتها كانت القاضية . ماأغنى عنى ماليه، هلك عنى سلطانيه» .

ومن ذا الذى لا يرتعش حسه ، وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب : « خذوه ، فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . . . الخ » . . وهو يشهد كيف يتسابق المأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجليل فى ذلك البائس الحسير !

وحاله هنـاك : « فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعـام إلا من غسلين . لا يأ كلـه إلا الخاطئون » .

وأخيرا فمن ذا الذى لا تأخذه الرجفة وتلفه الرهبة ، وهو يتمثل فى الخيال صورة التهديد الشديد: « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ! » . .

إنها مشاهد من القوة والحيوية والحضور بحيث لا يملك الحس أن يتلفت عنها طوال السورة، وهى تلح عليه ، وتضغط ، وتتخلل الأعصاب والمشاعر فى تأثير حقيقى عنيف !

* * *

ويشارك إيقـاع الفاصلة فى السورة ، برنته الخاصة ، وتنوع هـذه الرنة ، وفق المشاهـد والمواقف فى تحقيق ذلك التأثير الحى العميق .. فمن المد والتشديد والسكت فى مطلع السورة : « الحاقة . ما الحاقة ؟ وما أدراك ما الحاقة ؟ » . . إلى الرنة المدوية فى الياء والهاء السا كنة بعدها . سواء كانت تاء مربوطة يوقف عليها بالسكون ، أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع ، طوال مشاهد التدمير فى الدنيا والآخرة ، ومشاهد الفرحة والحسرة فى موقف الجزاء . ثم يتغير الإيقاع عند إصدار الحـكم إلى رنة رهيبة جليلة مديدة : « خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . . . » . . ثم يتغير مرة أخرى عند تقرير أسباب الحـكم ، وتقرير جدية الأمر ، إلى رنة رزينة جادة حاسمة ثقيلة مستقرة على الميم أو النون : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين. فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين » .. « وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » . .

وهذا التغير فى حرف الفاصلة وفى نوع المد قبلها وفى الإيقاع كله ظاهرة ملحوظة تتبع تغير السياق والمشاهد والجو ،وتتناسق مع الموضوع والصور والظلال تمام التناسق .وتشارك فى إحياء المشاهد وتقوية وقعها على الحس . فى السورة القوية الإيقاع العميقة التأثير.

إنها سورة هائلة رهيبة . قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . وهى بذاتها أقوى من كل استعراض ومن كل تحليل ، ومن كل تعليق ! .

* * *

« الحاقة . ما الحاقة ؟ . وما أدراك ما الحاقة ؟ » . .

القيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة. ومن ثم تبدأ السورة باسمها ،وتسمى به،وهو اسم مختار بجرسه ومعناه كما أسلفنا. فالحاقة هى التى تحق فتقع .أو تحق فتنزل بحكمها على الناس. أو تحق فيكون فيها الحق . . وكلها معان تقريرية جازمة تناسب اتجاه السورة وموضوعها . ثم هى بجرسها كما بينا من قبل تلقى إيقاعا معينا يساوق هذا المعنى الـكامن فيها ، ويشارك فى إطلاق الجو المراد بها ؛ ويمهد لما حق على المـكذبين بها . فى الدنيا وفى الآخرة جميعا .

والجو كله فى السورة جو جد وجزم ، كما أنه جو هول وروع . وهو يوقع فى الحس إلى جانب ماأسلفنا فى التقديم ،شعورا بالقدرة الإلهية الكبرى من جهة، وبضآلة الكائن الإنسانى تجاه هذه القدرة من جهة أخرى ؛ وأخذها له أخذا شديدا فى الدنيا والآخرة ، عندما يحيد أو يتلفت عن هذا النهج الذى يريده الله للبشرية ، ممثلا فيما يجىء به الرسل من الحق والعقيدة والشريعة ؛فهو لايجىء ليهمل ،ولا ليبدل ،إنما يجىء ليطاع ويحترم ،ويقابل بالتحرج والتقوى. وإلا فهناك الأخذ والقصم ، وهناك الهول والروع .

والألفاظ فىالسورة بجرسها وبمعانيها وباجتماعها فى التركيب ، وبدلالة التركيب كله.. تشترك فى إطلاق هذا الجو وتصويره . فهو يبدأ فيلقيها كلمة مفردة ، لا خبرلها فى ظاهر اللفظ : « الحاقة » . . ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم : « ما الحاقة ؟ » . . ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل ، وإخراج المسألة عن حدود العلم والإدراك : « وما أدراك ما الحاقة ؟ » .. ثم يسكت فلا يجيب على هذا السؤال . ويدعك واقفا أمام هذا الأمر المستهول المستعظم ، الذى لاتدريه ، ولا يتأتى لك أن تدريه ! لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والإدراك !

***

ويبدأ الحديث عن المكذبين به ، وما نالهم من الهول ، وما أخذوا به من القصم ، فذلك الأمر جد لا يحتمل التكذيب ، ولا يذهب ناجيا من يصر فيه على التكذيب :

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما .فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ »

وهذا اسم جديد للحاقة . إنها فوق أنها تحق..فهى تقرع .. والقرع ضرب الشىء الصلب والنقرعليه بشىء مثله . والقارعةتقرع القلوب بالهول والرعب ،وتقرع الكون بالدماروالحطم. وهاهى ذى بجرسها تقعقع وتقرقع،وتقرع وتفزع .. وقد كذبت بها ثمود وعاد. فلننظر كيف كانت عاقبةالتكذيب . .

« فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » . .

وثمود — كما جاء فى مواضع أخرى — كانت تسكن الحجر فى شمالى الحجاز بين الحجاز

والشام . وكان أخذهم بالصيحة كما سماها فى غير موضع . أماهنا فهو يذكر وصف الصيحة دون لفظها . . « بالطاغية » . . لأن هذا الوصف يفيض بالهول المناسب لجو السورة . ولأن إيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة فى هـذا المقطع منها . ويكتفى بهذه الآية الواحدة تطوى ثمود طيا ، وتغمرهم غمرا ، وتعصف بهم عصفا ، وتطغى عليهم فلاتبقى لهم ظلا !

وأماعاد فيفصل فى أمر نكبتها ويطيل ، فقد استمرت وقعتها سبع ليال وثمانية أيام حسوما . على حين كانت وقعة ثمود خاطفة .. صيحة واحدة . طاغية.. « وأماعاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » . والريح الصرصر : الشديدة الباردة . واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح . وزاد شدتها بوصفها « عاتية» .. لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكى فى القرآن، وقد كانوا يسكنون الأحقاف فى جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت . وكانوا أشداء بطاشين جبارين .هذه الريح الصرصر العاتية : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » . . والحسوم القاطعة المستمرة فى القطع . والتعبير يرسم مشهد العاصفة المزمجرة المدمرة المستمرة هـذه الفترة الطويلة المحددة بالدقة : « سبع ليال وثمانية أيام ». ثم يعرض المشهد بعدها شاخصا : « فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية» .. فترى.. فالمنظر معروض تراه ، والتعبير يلح به على الحس حتى يتملاه! « صرعى » .. مصروعين مجدلين متناثرين « كأنهم أعجاز نخل » بأصولها وجذوعها «خاوية» فارغة تآكلت أجوافها فارتمت ساقطة على الأرض هامدة ! إنه مشهد حاضر شاخص . مشهد ساكن كئيب بعد العاصفة المزمجرة المدمرة .. « فهل ترى لهم من باقية ؟ » .. لا ! فليس لهم من باقية !!!

ذلك شأن عاد وثمود . . وهو شأن غيرهما من المكذبين . وفى آيتين اثنتين يجمل وقائع شتى :

« وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية » . .

وفرعون كان فى مصر ـ وهو فرعون موسى ـ ومن قبله لايذكر عنهم تفصيل . والمؤتفكات قرى لوط المدمرة التى ائتفكت أى انقلبت أوالتى اتبعت الإفك ، فاللفظ يعنى هذا وهذا . ويجمل السياق فعال هؤلاء جميعا ، فيقول عنهم إنهم جاءوا « بالخاطئة » أى بالفعلة الخاطئة .. من الخطيئة .. « فعصوا رسول ربهم » .. وهم عصوا رسلا متعددين ؛ ولكن حقيقتهم واحدة ، ورسالتهم

فى صميمها واحدة . فهم إذن رسول واحد، يمثل حقيقة واحدة ـ وذلك من بدائع الإشارات القرآنية الموحية ـ وفى إجمال يذكر مصيرهم فى تعبير يلقى الهول والحسم حسب جو السورة : « فأخذهم أخذة رابية » . . والرابية العالية الغامرة الطامرة . لتناسب « الطاغية » التى أخذت ثمود « والعاتية » التى أخذت عادا ، وتناسب جو الهول والرعب فى السياق بدون تفصيل ولا تطويل !

ثم يرسم مشهد الطوفان والسفينة الجارية ، مشيرا بهذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا . وممتنا على البشر بنجاة أصولهم التى انبثقوا منها ، ثم لم يشكروا ولم يعتبروا بتلك الآية الكبرى :

« إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » . .

ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغى ، كلاهما يتناسق مع مشاهد السورة وظلالها . وجرس الجارية وواعية يتمشى كذلك مع إيقاع القافية . وهذه اللمسة « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » تلمس القلوب الخامدة والآذان البليدة ، التى تكذب بعد كل ماسبق من النذر وكل ماسبق من المصائر ، وكل ماسبق من الآيات ، وكل ماسبق من العظات، وكل ماسبق من آلاء الله ونعمه على أصول هؤلاء الغافلين !

* * *

وكل هذه المشاهد المروعة الهائلة القاصمة الحاسمة تبدو ضئيلة صغيرة إلى جانب الهول الأكبر . هول الحاقة والقارعة التى يكذب بها المكذبون ، وقد شهدوا مصارع المكذبين . .

إن الهول فى هذه المصارع ـ على ضخامتها ـ محدود إذا قيس إلى هول القارعة المطلق من الحدود المدخر لذلك اليوم المشهود . وهنا بعدهذا التمهيد يكمل العرض ، ويكشف عن الهول كأنه التكملة المدخرة للمشاهد الأولى :

« فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » . .

ونحن نؤمن أن هناك نفخة فى الصور وهو البوق تحدث بعدها هذه الأحداث. ولا نزيد

فى تفصيلها شيئا . لأنها غيب . ليس عندنا من دلائله إلا مثل هذه النصوص المجملة ؛ وليس لنا مصدر آخر لتفصيل هذا الإجمال . والتفصيل لايزيد فى حكمة النص شيئا ، والجرى وراءه عبث لا طائل تحته ، إلا اتباع الظن المنهى عنه أصلا .

فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ،فتبع هذه النفخة تلك الحركة الهائلة : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة» .. ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة تسوى عاليها بسافلها .. مشهد مروع حقا . هذه الأرض التى يجوس الإنسان خلالها آمنا مطمئنا ،وهى تحته مستقرة مطمئنة . وهـذه الجبال الراسيـة الوطيدة الراسخة التى تهول الإنسان بروعتهـا واستقرارها .. هذه مع هذه تحمل فتدك كالكرة فى يد الوليد .. إنه مشهد يشعر معه الإنسان بضآلته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة ، فى ذلك اليوم العظيم . .

فإذا وقع هذا . إذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة .. فهو حينئذ الأمر الذى تتحدث عنه السورة : « فيومئذ وقعت الواقعة » .. والواقعة اسم من أسمائها كالحاقة والقارعة . فهى الواقعة لأنها لابد واقعة. كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة ! وهو اسم ذو إيحاء معين وهو إيحـاء مقصود فى صـدد الارتياب فيها والتكذيب !

ولايقتصر الهول على حمل الأرض والجبال ودكها دكة واحدة ، فالسماء فى هـذا اليوم الهائل ليست بناجية :

« وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » . .

ونحن لاندرى على وجه التحقيق ما السماء المقصودة بهذا اللفظ فى القرآن . ولـكن هذا النص والنصوص الأخرى التى تشير إلى الأحداث الكونية فى ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الـكون المنظور ، واختلال روابطه وضوابطه التى تمسك به فى هذا النظام. البديع الدقيق ، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس ..

ولعله من المصادفات الغريبة أن يتنبأ الآن علماء الفلك بشىء يشبه هـذا تـكون فيه نهاية العالم، استنباطا من ملاحظتهم العلمية البحتة ، وحسب القليل الذى عرفوه من طبيعة هذا الـكون ، وقصته كما افترضوها . .

فأما نحن فنـكاد نشهد هذه المشاهد المذهلة ، من خلال النصوص القرآنية الجازمة؛ وهى

نصوص مجملة توحى بشىء عام؛ ونحن نقف عند إيحاء هذه النصوص، فهى عندنا الخبر الوحيد المستيقن عن هذا الشأن، لأنها صادرة من صاحب الشأن، الذى خلق، والذى يعلم ماخلق علم اليقين. نكاد نشهد الأرض وهى تحمل بجبالها بكتلتها هذه، الضخمة بالقياس إلينا، الصغيرة كالهباءة بالقياس إلى الكون، فتدك دكة واحدة؛ ونكاد نشهد السماء وهى مشققة واهية والكواكب وهى متناثرة منكدرة.. كل ذلك من خلال النصوص القرآنية الحية، المشخصة المشاهد بكامل قوتها كأنها حاضرة..

ثم يغمر الجلال المشهد ويغشيه، وتسكن الضجة التى تملأ الحس من النفخة والدكة والتشقق والانتثار. يسكن هذا كله ويظهر فى المشهد عرش الواحد القهار:

« والملك على أرجائها، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ..

والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشقة وأطرافها، والعرش فوقهم يحمله ثمانية.. ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف منهم، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم، أو ثمانية مما يعلم الله. لاندرى نحن من هم ولاماهم. كما لاندرى نحن ماالعرش؟ ولا كيف يحمل؟ ونخلص من كل هذه الغيبيات التى لاعلم لنا بها، ولم يكلفنا الله من علمها إلا ماقص علينا. نخلص من مفردات هذه الغيبيات إلى الظل الجليل الذى تخلعه على الموقف. وهو المطلوب منا أن تستشعره ضمائرنا. وهو المقصود من ذكر هذه الأحداث ليشعر القلب البشرى بالجلال والرهبة والخشوع، فى ذلك اليوم العظيم، وفى ذلك الموقف الجليل:

« يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية » ..

فالكل مكشوف. مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير. وتسقط جميع الأستار التى كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعرى الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود.. ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح منه ما كان حريصا على أن يستره حتى عن نفسه! وما أقسى الفضيحة على الملأ. وما أخزاها على عيون الجموع! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها فى كل آن. ولكن لعل الإنسان لايشعر بهذا حق الشعور، وهو مخدوع بستور الأرض. فهاهو ذا يشعر به كاملا وهو مجرد فى يوم القيامة. وكل شىء بارز فى الكون كله. الأرض مدكوكة مسواة لاتحجب شيئا وراء نتوء ولا بروز. والسماء متشققة واهية لاتحجب وراءها شيئا،

والأجسام معراة لايسترها شيء ، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر !

ألا إنه لأمر عصيب . أعصب من دك الأرض والجبال ، وأشد من تشقق السماء ! وقوف الإنسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ماظهر منه وما استتر . أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله ، من الإنس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع . .

وإن طبيعة الإنسان لمعقدة شديدة التعقيد ؛ ففى نفسه منحنيات شتى ودروب ، تتخفى فيها نفسه وتتدسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها . وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخزة إبرة ، فتنطوى سريعا ، وتنكمش داخل القوقعة ، وتغلق على نفسها تماما . إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عينا تدسست عليه فكشفت منه شيئا مما يخفيه ، وأن لمحة أصابت منه دربا خفيا أو منحنى سريا ! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد فى خلوة من خلواته الشعورية . .

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان . عريان حقا . عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير . عريان من كل ساتر . عريان . . . كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار ؟ !

ألا أنه لأمر . أمرٌ من كل أمر ! ! !

* * *

وبعدئذ يعرض مشهد الناجين والمعذبين ، كأنه حاضر تراه العيون . .

« فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه .. فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية. قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » .

وأخذ الكتاب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية، وقد يكون تمثيلا لغويا جاريا على اصطلاحات اللغة العربية من تعبيرهم عن وجهة الخير باليمين ووجهة الشر بالشمال

أو من وراء الظهر . . وسواء كان هذا أو ذاك فالمدلول واحد ، وهو لايستدعى جدلا يضيع فيه جلال الموقف !

والمشهد المعروض هو مشهد الناجى فى ذلك اليوم العصيب ، وهو ينطلق فى فرحة غامرة ، بين الجموع الحاشدة ، تملأ الفرحة جوانحه ، وتغلبه على لسانه ، فيهتف : « هاؤم اقرأوا كتابيه » . . ثم يذكر فى بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج ، بل كان يتوقع أن يناقش الحساب . . « ومن نوقش الحساب عذب » كما جاء فى الأثر : عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من نوقش الحساب عذب » فقلت : أليس يقول الله تعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا » فقال : « إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك (١) » .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا بشر ابن مطر الواسطى ، حدثنا يزيد ابن هارون ، أخبرنا عاصم ، عن الأحول ، عن أبى عثمان ، قال : المؤمن يعطى كتابه بيمينه فى ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغير لونه ، حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات . قال : فعند ذلك يقول : « هاؤم اقرأوا كتابيه » .

وروى عن عبد الله ابن حنظلة — غسيل الملائكة (٢) — قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدى — أى يظهر — سيئاته فى ظهر صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم أى رب ! فيقول له : إنى لم أفضحك به ، وإنى قد غفرت لك . فيقول عند ذلك : « هاؤم اقرأوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه » .

وفى الصحيح من حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى ، فقال : « سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « يدنى الله العبد يوم القيامة ، فيقرره بذنوبه كلها ، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله تعالى : إنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » . .

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذى وابو داود .

(٢) استشهد حنظلة ابن أبى عامر فى غزوة أحد فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . « إن صاحبكم — يعنى حنظلة — لتغسله الملائكة » . فسألوا أهله : ماشأنه ؟ فسئلت صاحبته عنه ، فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة (من رواية ابن إسحاق) .

ثم يعلن على رؤوس الأشهاد ما أعد لهذا الناجى من النعيم ، الذى تبدو فيه هنا ألوان من النعيم الحسى ، تناسب حال المخاطبين إذ ذاك ، وهم حديثو عهد بجاهلية ، ولم يسر من آمن منهم شوطا طويلا فى الإيمان ، ينطبع به حسه ، ويعرف به من النعيم ماهو أرق وأعلى من كل متاع :

« فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » . .

وهذا اللون من النعيم ، مع هذا اللون من التكريم فى الالتفات إلى أهله بالخطاب وقوله : « كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » .. فوق أنه اللون الذى تبلغ إليه مدارك المخاطبين بالقرآن فى أول العهد بالصلة بالله ، قبل أن تسمو المشاعر فترى فى القرب من الله ماهو أعجب من كل متاع .. فوق هذا فإنه يلبي حاجات نفوس كثيرة على مدى الزمان . والنعيم ألوان غير هذا وألوان . .

« وأما من أوتى كتابه بشماله » وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته ، وأن إلى العذاب مصيره ، فيقف فى هذا العرض الحافل الحاشد ، وقفة المتحسر الكسير الكئيب . . « فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيه ! ولم أدر ماحسابيه ! ياليتها كانت القاضية ! ما أغنى عنى ماليه ! هلك عنى سلطانيه ! » . .

وهى وقفة طويلة ، وحسرة مديدة ، ونغمة يائسة ، ولهجة بائسة . والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لاتنتهى إلى نهاية ، وأن هذا التفجع والتحسر سيمضى بلا غاية ! وذلك من عجائب العرض القرآنى فى إطالة بعض المواقف ، وتقصير بعضها ، وفق الإيحاء النفسي الذى يريد أن يتركه فى النفوس . وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير . ومن ثم يطول ويطول ، فى تنغيم وتفصيل . ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت هذا الموقف ، ولم يؤت كتابه ، ولم يدر ماحسابه ؛ كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هى القاضية ، التى تنهى وجوده أصلا فلا يعود بعدها شيئا . . ثم يتحسر أن لاشىء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه : « ماأغنى عنى ماليه » . . « هلك عنى سلطانيه » . . فلا المال أغنى أو نفع . ولا السلطان بقى أو دفع . . والرنة الحزينة الحسيرة المديدة فى طرف الفاصلة الساكنة

وفى ياء العلة قبلها بعد المد بالألف ، فى تحزن وتحسر . . هى جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاء عميقا بليغا [١] . .

ولا يقطع هذه الرنة الحزينة المديدة إلا الأمر العاوى الجازم ، بجلاله وهوله وروعته :

« خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . .

ياللهول الهائل ! ويا للرعب القاتل ! ويا للجلال الماثل !

« خذوه » . .

كلمة تصدر من العلى الأعلى. فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل . ويبتدره المكلفون بالأمر من كل جانب، كما يقول ابن أبى حاتم بإسناده عن المنهال ابن عمرو : « إذا قال الله تعالى : خذوه ابتدره سبعون ألف ملك . إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقى سبعين ألفا فى النار » . . كلهم يبتدر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة !

« فغلوه » . .

فأى السبعين ألفا بلغه جعل الغل فى عنقه ؟ !

« ثم الجحيم صلوه » . .

ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصليه . .

« ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . .

وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه ! ولكن إيحاء التطويل والتهويل ينضح من وراء لفظ السبعين وصورتها . ولعل هذا الإيحاء هو المقصود ! [٢] .

فإذا انتهى الأمر ، نشرت أسبابه على الحشود :

« إنه كان لايؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين » . .

إنه قد خلا قلبه من الإيمان بالله ، والرحمة بالعباد . فلم يعد هذا القلب يصلح إلا لهذه النار وذلك العذاب .

خلا قلبه من الإيمان بالله فهو موات ، وهو خرب ، وهو بور . وهو خلو من النور . وهو

---

(١) يراجع فصل: التناسق الفنى. فى كتاب: التصوير الفنى فى القرآن. كما تراجع سورة الحاقة فى كتاب: مشاهد القيامة فى القرآن .

(٢) مشاهد القيامة : سورة الحاقة .

مسخ من الـكائنات لايساوى الحيوان بل لايساوى الجماد . فـكل شىء مؤمن ، يسبح بحمد ربه ، موصول بمصدر وجوده . أما هو فمقطوع من الله . مقطوع من الوجود المؤمن بالله .

وخلا قلبه من الرحمة بالعباد. والمسكين هوأحوج العباد إلى الرحمة. ولـكن هذالم يستشعر قلبه مايدعو إلىالاحتفال بأمر المسكين .ولم يحض على طعامه وهى خطوة وراء إطعامه. توحى بأن هناك واجبا اجتماعيا يتحاض عليه المؤمنون . وهو وثيق الصلة بالإيمان .يليه فى النص ويليه فى الميزان !

« فليس له اليوم هاهنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لايأ كله إلا الخاطئون » . .

وهى تـكملة الإعلان العلوى عن مصير ذلك الشقى . فلقدكان لايؤمن بالله العظيم ،وكان لايحض على طعام المسكين . فهو هنا مقطوع « فليس له اليوم هاهنا حميم » . . وهو ممنوع : «ولا طعام إلا من غسلين » .. والغسلين هو غسالة أهل جهنم من قيح وصديد اوهويناسب قلبه النـكد الخاوى من الرحمة بالعبيد! طعام « لايأ كله إلا الخاطئون » .. المذنبون المتصفون بالخطيئة . . وهو منهم فى الصميم !

وبعد، فذلك هوالذى يجعله الله مستحقا للأخذ والغلوالتصلية والسلسلة التىذرعها سبعون ذراعا فى الجحيم .وهو أشد دركات جهنم عذابا .. فـكيف بمن يمنع طعام المسكين ومن يجيع الأطفال والنساء والشيوخ ، ومن يبطش بطشة الجبارين بمن يمد إليهم يده باللقمة والـكساء فى برد الشتاء ؟ أين ترى يذهب هؤلاء ، وهم يوجدون فىالأرض بين الحينوالحين ؟ وما الذى أعده الله لهم وقد أعد لمن لايحض على طعام المسكين ، ذلك العذاب فى الجحيم ؟

وينتهى هذا المشهد العنيف المثير . الذى لعله جاء فى هذه الصورة المفزعة لأن البيئة كانت جبارة قاسية عنيدة تحتاجإلى عرض هذه المشاهد العنيفة كىتؤثر فيها وتهزها وتستحيها .ومثل هذه البيئة يتـكرر فى الجاهليات التى تمر بها البشرية ، كما أنه يوجد فى الوقت الواحد مع أرق البيئات وأشدها تأثرا واستجابة . لأن رقعة الأرض واسعة . وتوزيع المستويات والنفسيات فيهـا مختلف . والقرآن يخاطب كل مستوى وكل نفس بما يؤثر فيهـا ، وبما تستجيب له حين يدعوها .والأرض تحتوى اليوم فى بعض نواحيها قلوبا أقسى ،وطبائع أجسى، وجبلات لايؤثر فيهـا إلا كلمات من نار وشواظ كهذه الـكلمات . ومشاهد وصور مثيرة كهذه المشاهـد والصور المثيرة . .

* * *

وفى ظل هذه المشاهد العنيفة المثيرة ، المتوالية منذ أول السورة ، مشاهد الأخذ فى الدنيا والآخرة ، ومشاهد التدمير الكونية الشاملة ، ومشاهد النفوس المكشوفة العارية ، ومشاهد الفرحة الطائرة والحسرة الغامرة ..

فى ظل هذه المشاهد العميقة الأثر فى المشاعر يجىء التقرير الحاسم الجازم عن حقيقة هذا القول الذى جاءهم به الرسول الكريم ، فتلقوه بالشك والسخرية والتكذيب :

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ماتؤمنون. ولا بقول كاهن ، قليلا ماتذكرون . تنزيل من رب العالمين » ..

إن الأمر لايحتاج إلى قسم وهو واضح هـذا الوضوح ، ثابت هذا الثبوت ، واقع هـذا الوقوع . لايحتاج إلى قسم أنه حق ، صادر عن الحق ، وليس شعر شاعر ، ولا كهانة كاهن، ولا افتراء مفتر ! لا . فما هو بحاجة إلى توكيد بيمين :

« فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون » ..

بهذه الفخامة وبهـذه الضخامة ، وبهـذا التهويل بالغيب المكنون ، إلى جانب الحاضر المشهود . . والوجود أضخم بكثير مما يرى البشر . بل مما يدركون . وما يبصر البشر من الكون وما يدركون إلا أطرافا قليلة محصورة ، تلبي حاجتهم إلى عمارة هذه الأرض والخلافة فيها ــ كما شاءالله لهم ــ والأرض كلها ليست سوى هباءة لاتكاد ترى أو تحس فى ذلك الكون الكبير . والبشر لايملكون أن يتجاوزوا ماهو مأذون لهم برؤيته وبإدراكه من هذا الملك العريض ، ومن شؤونه وأسراره ونواميسه التى أودعها إياه خالق الوجود . .

« فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون » . .

ومثل هذه الإشارة تفتح القلب وتنبه الوعى إلى أن هناك وراء مد البصر ووراء حدود الإدراك جوانب وعوالم وأسرارا أخـرى لايبصرها ولا يدركها . وتوسع بذلك آفاق التصور الإنسانى للكون والحقيقة . فلا يعيش الإنسان سجين ماتراه عيناه ، ولا أسير ما يدركه وعيه المحدود . فالكون أرحب والحقيقة أكبر من ذلك الجهاز الإنسانى المزود بقـدر محدود من الطاقة يناسب وظيفته فى هذا الكون. ووظيفته فى الحياة الدنيا هى الخلافة فى هذه الأرض .. ولكنه يملك أن يكبر ويرتفع إلى آماد وآفاق أكبر وأرفع حين يستيقن أن عينه ومداركه محدودة، وأن هناك وراء ماتدركه عينه ووعيه عوالم وحقائق أكبر ــ بما لايقاس ــ مما وصل

إليه . . عندئذ يتسامى على ذاته ويرتفع على نفسه ، ويتصل بينابيع المعرفة الكلية التى تفيض على قلبه بالعلم والنور والاتصال المباشر بما وراء الستور !

إن الذين يحصرون أنفسهم فى حدود ماترى العين ، ويدرك الوعى ، بأدواته الميسرة له .. مساكين ! سجناء حسهم وإدراكهم المحدود . محصورون فى عالم ضيق على سعته ، صغير حين يقاس إلى ذلك الملك الكبير . .

وفى فترات مختلفة من تاريخ هذه البشرية كان كثيرون أوقليلون يسجنون أنفسهم بأيديهم فى سجن الحس المحدود ، والحاضر المشهود ؛ويغلقون على أنفسهم نوافذ المعرفة والنور ،والاتصال بالحق الكبير ،عن طريق الإيمان والشعور . ويحاولون أن يغلقوا هذه النوافذ على الناس بعد ماأغلقوها على أنفسهم بأيديهم .. تارة باسم الجاهلية .وتارة باسم العلمانية !وهذه كتلك سجن كبير . وبؤس مرير . وانقطاع عن ينابيع المعرفة والنور !

والعلم يتخلص فى هذاالقرن الأخير من تلك القضبان الحديدية التى صاغها بحمق وغرور ـ حول نفسه فى القرنين الماضيين . . يتخلص من تلك القضبان ، ويتصل بالنور ـ عن طريق تجاربه ذاتها ـ بعد ماأفاق من سكرة الغرور والاندفاع من أسر الكنيسة الطاغية فى أوربا (١) ؛ وعرف حدوده ، وجرب أن أدواته المحدودة تقوده إلى غير المحدود فى هذا الكون وفى حقيقته المكنونة. وعاد « العلم يدعو إلى الإيمان »(٢) فى تواضع تبشر أوائله بالفرج ! أى نعم بالفرج . فما يسجن الإنسان نفسه وراء قضبان المادة الموهومة إلا وقد قدر عليه الضيق !

ولقد رأينا العالم المثل ألكسيس كاريل الطبيب المتخصص فى بحوث الخلية و نقل الدم والمشتغل بالطب علما وجراحة وإشرافا على معاهد العلاج والنظريات العلاجية ، وصاحب جائزة نوبل سنة ١٩١٢ ومدير معهد الدراسات الإنسانية بفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية يرى :

« أن الكون على رحبه مملوء بعقول فعالة غير عقولنا ، وأن العقل الإنسانى هاد قاصد بين دروب التيه التى حوله إذا كان معوله كله على هدايته . وأن الصلاة من وسائل الاتصال بالعقول التى حولنا ، وبالعقل الأبدى المسيطر على مقادير الأكوان قاطبة ، فيما هو ظاهر لنا وما هو محتجب عنا فى طى الخفاء» (٣).

---

(١) يراجع بتوسع كتاب: الإنسان بين المادية والإسلام لمحمد قطب .. فصل نظرة المسيحية وفصل فرويد.
(٢) عنوان ترجمة كتاب ا . كريسى موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك لمحمود صالح الفلكى .
(٣) عن كتاب : عقائد المفكرين فى القرن العشرين للعقاد .

«وأن الشعور بالقداسة مع غيره من قوى النشاط الروحانى له شأن خاص فى الحياة ، لأنه يقيمنا على اتصال بآفاق الخفاء الهائل من عالم الروح » . . [1] .

ورأينا طبيبا آخر مثل « دى نوى » الذى اشتغل بمباحث التشريح والعلم الطبيعى ،وعمل مع الأستاذ كورى وقرينته ، واستدعاه معهد روكفلر لمواصلة بحث مع أعضائه فى خصائص وعلاج الجراح . . يقول :

« كثير من الأذكياء وذوى النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله لأنهم لايستطيعون أن يدركوه . على أن الإنسان الأمين الذى تنطوى نفسه على الشوق العلمى لايلزمه أن يتصور الله إلا كما يلزم العالم الطبيعى أن يتصور الكهرب . فإن التصور فى كلتا الحالتين ناقص وباطل . وليس الكهرب قابلا للتصور فى كيانه المادى ! وإنه مع هذا لأثبت فى آثاره من قطعة الخشب » .. [1] .

ورأينا عالما طبيعيا مثل سير أرثر طومسون المؤلف الاسكتلندى الشهير يقول : « إننا فى زمن شفت فيه الأرض الصلبة ، وفقد فيه الأثير كيانه المادى ، فهو أقل الأزمنة صلاحاً للغلو فى التأويلات المادية » .

ويقول فى مجموعة « العلم والدين »:

«ليس للعقل المتدين أن يأسف اليوم لأن العالم الطبيعى لايخلص من الطبيعة إلى رب الطبيعة. إذ ليست هذه وجهته . وقد تكون النتيجة أكبر جدا من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطبيعة إلى مافوق الطبيعة . إلا أننا خلقاء أن نغتبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسروا للنزعة الدينية أن تتنفس فى جو العلم ، حيث لم يكن ذلك يسيرا فى أيام آبائنا وأجدادنا . . . فإذا لم يكن عمل الطبيعيين أن يبحثوا فى الله — كما زعم مستر لانجدون دافيز خطأ فى كتابه البديع عن الإنسان وعالمه —فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم ، أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى ، ولا نجاوز المعنى الحرفى حين نقول : إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضا جديدة ، وحفزه من ثم إلى غاية جهده العقلى ، فإذا به ، فى كثير من الأحيان ، لايجد السلام إلا حيث يتخطى مدى الفهم ، وذلك فى اليقين والاطمئنان إلى الله » [1] .

---

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين .

ورأينا عالما مثل « ا . كريسى موريسون» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك وعضوالمجلس التنفيذى لمجلس البحوث القومى بالولايات المتحدة سابقا يقول فى كتابه : « الإنسان لايقوم وحده [1] » :

«إننا نقترب فعلا من عالم المجهول الشاسع ، إذ ندرك أن المادة كلها قد أصبحت من الوجهة العلمية مجرد مظهر لوحدة عالية هى فى جوهرها كهربائية . ولكن مما لاريب فيه أن المصادفة لم يكن لها دخل فى تكوين الكون ، لأن هذا العالم العظيم خاضع للقانون .

« إن ارتقاء الإنسانى الحيوانى إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده ، هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادى ، ودون قصد ابتداعى .

« وإذا قبلت واقعية القصد ، فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازا . ولكن ماالذى يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدار لافائدة منه . والعلم لايعلل من يتولى إدارته ، وكذلك لايزعم أنه مادى .

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبسا من نوره . . . » .

وهكذا بدأ العلم يخرج من سجن المادية وجدرانها بوسائله الذاتية ، فيتصل بالجو الطليق الذى يشير القرآن إليه بمثل تلك الآية الكريمة : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » . ونظائره المتعددة. وإن يكن بيننا نحن من أقزام التفكير والشعور من لايزال يغلق بكلتا يديه نوافذ النور على نفسه وعلى من حوله باسم العلم ! فى تخلف عقلى عن العلم . وفى تخلف روحى عن الدين . وفى تخلف شعورى عن الحرية الطليقة فى معرفة الحقيقة ! وفى تخلف إنسانى عما يليق بالكائن الإنسانى الكريم !

فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون . . « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » . .

ولقد كان مما تقوّل به المشركون على القرآن وعلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قولهم : إنه شاعر . وإنه كاهن . متأثرين فى هذا بشبهة سطحية، منشؤها أن هذا القول فائق فى طبيعته على كلام البشر . وأن الشاعر فى وهمهم له رئى من الجن يأتيه بالقول الفائق ، وأن الكاهن

---

(١) المترجم بعنوان : العلم يدعو الى الإيمان .

كذلك متصل بالجن . فهم الذين يمدونه بعلم ماوراء الواقع ! وهى شبهة تسقط عند أقل تدبر لطبيعة القرآن والرسالة ، وطبيعة الشعر أو الكهانة . .

فالشعر قد يكون موسيقى الإيقاع ، رائع الأخيلة ، جميل الصور والظلال ؛ ولكنه لايختلط أبدا ولا يشتبه بهذا القرآن إن هنالك فارقا أساسيا فاصلا بينهما . إن هذا القرآن يقرر منهجا متكاملا للحياة يقوم على حق ثابت ، ونظرة موحدة ، ويصدر عن تصور للوجود الإلهى ثابت ، وللكون والحياة كذلك .والشعر انفعالات متوالية وعواطف جياشة ،قلما تثبت على نظرة واحدة للحياة فى حالات الرضى والغضب ، والانطلاق والانكماش ،والحب والكره، والتأثرات المتغيرة على كل حال !

هذا إلى أن التصور الثابت الذى جاء به القرآن قد أنشأه القرآن إنشاء من الأساس ، فى كلياته وجزئياته ، مع تعين مصدره الإلهى. فكل مافى هذا التصور يوحى بأنه ليس من عمل البشر ، فليس من طبيعة البشر أن ينشئوا تصورا كونيا كاملا كهذا التصور . . لم يسبق لهم هذا ولم يلحق . . وهذا كل ما أبدعته قرائح البشر من تصورات للكون والقوة المنشئة له المدبرة لنظامه . . هذا هو معروضا مسجلا فى الفلسفة وفى الشعر وفى غيرها من المذاهب الفكرية ؛ فإذا قرن إلى التصور القرآنى وضح أن هذا التصور صادر من جهة غير تلك الجهة ! وأنه متفرد بطابع معين يميزه من كل تصورات البشر.

كذلك الأمر فى الكهانة وما يصدر عنها . فلم يعرف التاريخ من قبل أو بعد كاهنا أنشأ منهجا متكاملا ثابتا كالمنهج الذى جاء به القرآن . وكل مانقل عن الكهنة أسجاع لفظية أو حكمة مفردة ، أو إشارة ملغزة !

وهناك لفتات ليس من طبيعة البشر أن يلتفتوها ، وقد وقفنا عند بعضها فى هذه الظلال أحيانا. فلم يسبق لبشر ولم يلحق كذلك أن أراد التعبير عن العلم الشامل الدقيق اللطيف ،فاتجه إلى مثل هذه الصورة التى جاءت فى القرآن :

« وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ، ويعلم مافى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين [1] » . . أو إلى مثل هذه الصورة : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج

---

(١) سورة الأنعام : آية ٥٩ .

فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير [١] » أو إلى مثل هذه الصورة : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير [٢] »

كذلك لم يسبق لبشر ولم يلحق أن التفت مثل هذه اللفتة إلى القدرة التي تمسك هذا الكون وتدبره : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده [٣] . . » أو هذه اللفتة إلى انبثاقات الحياة فى الكون من يد القدرة المبدعة وما يحيط بالحياة من موافقات كونية مدبرة مقدرة :

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله . فأنى تؤفكون . فالق الإصباح . وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » [٤] . .

وهذه اللفتات الكونية كثيرة فى القرآن كثرة ملحوظة ، ولا نظير لها فيما تتجه إليه خواطر البشر للتعبير عن مثل المعانى التى يعبر عنها القرآن . . وهذه وحدها كافية لمعرفة مصدر هذا الكتاب . . بغض النظر عن كل دلالة أخرى من صلب الكتاب أو من الملابسات المصاحبة له على السواء .

فالشبهة واهية سطحية . حتى حين كان القرآن لم يكتمل ، ولم تتنزل منه إلا سور وآيات عليها ذلك الطابع الإلهى الخاص ، وفيها ذلك القبس الموحى بمصدرها الفريد.

وكبراء قريش كانوا يراجعون أنفسهم ، ويردون على هذه الشبهة بين الحين والحين . ولكن

---

(١) سورة الحديد : آية ٤

(٢) سورة فاطر : آية ١١

(٣) سورة فاطر : آية ٤١

(٤) سورة الأنعام : آية ٩٥ — ٩٩

الغرض يعمى ويصم .وإذ لم يهتدوا به فسيقولون: هذا إفك قديم . كما يقول القرآن الـكريم !

وقد حكت كتب السيرة مواقف متعددة لزعماء قريش ،وهم يراجعون هذه الشبهة وينفونها فيما بينهم .

من ذلك مارواه ابن إسحاق عن الوليد ابن المغيرة ، وعن النضر ابن الحارث ، وعن عتبة ابن ربيعة وقد جاء فى روايته عن الأول:

«ثم إن الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش .وكان ذا سن فيهم ،وقد حضر الموسم. فقال لهم : يامعشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليـكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ؛ فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيـكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولـكم بعضه بعضا، فقالوا : فأنت ياأبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأيا نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن . قال : لاوالله ، ماهو بكاهن ، لقد رأينا الـكهان فما هو بزمزمة الـكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولاوسوسته. قالوا:فنقول: شاعر. قال: ماهو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فماهو بالشعر. قالوا : فنقول: ساحر . قال : ماهو بساحر ؛ لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . . قالوا : فما نقول ياأبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لمذق ، وإن فرعه لجناة (١) وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيـه لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس ـ حين قدموا الموسم ـ لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره . . . »

وحكى عن الثانى (النضر ابن الحارث) قال :

« فقال يامعشر قريش . إنه والله قد نزل بـكم أمر ماأتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيـكم ، وأصدقـكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر الا والله، ماهو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلتم كاهن ! لا والله ماهو بكاهن . قد رأينا الـكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم .

---

(١) المذق : الـكثير الشعب والأطراف . والجناة : مافيه ثمر يجنى .

وقلتم : شاعر ! لا والله ماهو بشاعر . قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه . وقلتم : مجنون! لقد رأينا الجنون فماهو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يامعشر قريش، فانظروا في شأنكم ، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم . . . » .

والمطابقة تكاد تكون تامة ــ بين قوله وقول عتبة . وقد يكون هو حادثا واحدا نسب مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك . ولكن لانستبعد كذلك أن يتطابق قولان لرجلين من كبار قريش فى موقفين متشابهين من مواقف حيرتهم تجاه هذا القرآن !

وأما موقف عتبة فقد سبقت حكايته فى استعراضنا لسورة القلم فى هذا الجزء .. وهو قريب من موقف الوليد والنضر تجاه محمد وتجاه القول الذى جاء به . .

فما كان قولهم : ساحر أو كاهن . إلا حيلة ماكرة أحيانا وشبهة مفضوحة أحيانا . والأمر أوضح من أن يلتبس عند أول تدبر وأول تفكير . وهو من ثم لايحتاج إلى قسم بما يعلمون وما لا يعلمون : إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر . ولا بقول كاهن . . إنما هو تنزيل من رب العالمين .

وتقرير أنه قول رسول كريم لايعنى أنه من إنشائه . ولكن المراد هنا أنه قول من نوع آخر . لايقوله شاعر . ولا يقوله كاهن . إنما يقوله رسول . يرسل به من عند الله . فيحمله من هناك . من ذلك المصدر الذى أرسله . والذى يعين هذا المعنى هو كلمة رسول . أى مرسل به من عند ربه ،وليس شاعرا ولا كاهنا يقوله من عند نفسه . أو بمساعدة رئى أو شيطان .. إنما هو رسول يقول مايحمله عمن أرسله . ويقرر هذا تقريرا حاسما ماجاء بعده : « تنزيل من رب العالمين » ..

والتعقيب : « قليلا ماتؤمنون » . . « قليلا ماتذكرون » . . مدلوله نفى الإيمان ، ونفى التذكر. وفق تعبيرات اللغة المألوفة . وفى الحديث فى وصف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « إنه كان يقل اللغو » . أى لايلغو أصلا .. فقد نفى عنهم أصل الإيمان وأصل التذكر .وإلا فما يقول مؤمن عن الرسول : إنه شاعر ، ولا يقول متذكر متدبر : إنه كاهن . إنما هما الكفر والغفلة ينضحان بهذا القول النكير !

* * *

وفى النهاية يجىء ذلك التهديد الرعيب ، لمن يفترى على الله فى شأن العقيدة وهى الجد الذى

لاهوادة فيه . يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذى لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه. بشهادة أن الله لم يأخذه أخذا شديدا. كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ :

« ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل .لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين .فما منكم من أحد عنه حاجزين » . .

ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ صادق فيما أبلغهم. وأنه لو تقول بعض الأقاويل التى لم يوح بها إليه ،لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذى وصفته الآيات . ولما كان هذا لم يقع فهو لابد صادق .

هذه هى القضية من الناحية التقريرية .. ولكن المشهد المتحرك الذى ورد فيه هذا التقرير شىء آخر ، يلقى ظلالا بعيدة وراء المعنى التقريرى . ظلالا فيها رهبة وفيها هول . كما أن فيها حركة وفيها حياة ، ووراءها إيحاءات وإيماءات وإيقاعات !

فيها حركة الأخذ باليمين وقطع الوتين. وهى حركة عنيفة هائلة مروعة حية فى الوقت ذاته. ووراءها الإيحاء بقدرة الله العظيمة وعجز المخلوق البشرى أمامها وضعفه . . البشر أجمعين . . كما أن وراءها الإيماء إلى جدية هذا الأمر التى لا تحتمل تسامحا ولا مجاملة لأحد كائنا من كان . ولو كان هو محمد الكريم عند الله الأثير الحبيب . ووراءها بعد هذا كله إيقاع الرهبة والهول والخشوع !

* * *

وأخيرا تجىء الخاتمة التقريرية بحقيقة هذا الأمر وطبيعته القوية :

« وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين .وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين » .

فهذا القرآن يذكر القلوب التقية فتذكر . إن الحقيقة التى جاء بها كامنة فيها .فهو يثيرها فيها ويذكرها بها فتتذكرها . فأما الذين لايتقون فقلوبهم مطموسة غافلة لاتتفتح ولا تتذكر ، ولا تفيد من هذا الكتاب شيئا . وإن المتقين ليجدون فيه من الحياة والنور والمعرفة والتذكير ما لا يجده الغافلون .

« وإنا لنعلم أن منكم مكذبين » .. ولكن هذا لايؤثر فى حقيقة هذا الأمر ، ولا يغير من هذه الحقيقة . فأمركم أهون من أن يؤثر فى حقائق الأمور .

« وإنه لحسرة على الكافرين » .. بما يرفع من شأن المؤمنين ،ويحط من قدر المكذبين. وبما ينتهى إليه من إقرار الحق وإزهاق الباطل الذى يستمسك به الكافرون . ثم إنه حجة عليهم عند الله فى اليوم الآخر ، يعذبون به ، ويتحسرون لما يصيبهم بسببه . فهو حسرة على الكافرين فى الدنيا والآخرة .

« وإنه لحق اليقين » .. مع تكذيب المكذبين .حق اليقين. فليس مجرد اليقين ،ولكنه الحق فى هذا اليقين . وهو تعبير خاص يضاعف المعنى ويضاعف التوكيد . وإن هذا القرآن لعميق فى الحق ، عميق فى اليقين . وإنه ليكشف من الحق الخالص فى كل آية مايشى بأن مصدره هو الحق الأول الأصيل ..

فهذه هى طبيعة هذا الأمر وحقيقته المستيقنة .لاهو قول شاعر .ولا هو قول كاهن . ولا هو تقول على الله . إنما هو التنزيل من رب العالمين . وهو التذكرة للمتقين . وهو حق اليقين .

هنا يجىء التلقين العلوى للرسول الكريم ،فى أنسب وقت وأنسب حالة لهذا التلقين :

« فسبح باسم ربك العظيم » . .

والتسبيح بما فيه من تنزيه وتمجيد . وبما فيه من اعتراف وتحقيق . وبما فيه من عبودية وخشوع . . . هو الشعور الذى يخالج القلب ،بعد هذا التقرير الأخير ،وبعد ذلك الاستعراض الطويل ، لقدرة الله العظيم ، وعظمة الرب الكريم . .

سورة المعارج مكيّة
وآياتها ٤٤

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

« سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللّٰهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ .

« إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ .

« فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ؟ * عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ؟ * أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ؟ * كَلَّا ! إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَارِقِ وَٱلْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ » . .

هذه السورة حلقة من حلقات العلاج البطىء ، المديد ، العميق ، الدقيق ، لعقابيل الجاهلية فى النفس البشرية كما واجهها القرآن فى مكة ؛ وكما يمكن أن يواجهها فى أية جاهلية أخرى مع اختلافات فى السطوح لا فى الأعماق! وفى الظواهر لا فى الحقائق!

أو هى جولة من جولات المعركة الطويلة الشاقة التى خاضها فى داخل هـذه النفس ، وفى خلال دروبها ومنحنياتها ، ورواسبها وركامها . وهى أضخم وأطول من المعارك الحربية التى خاضها المسلمون ــ فيما بعد ــ كما أن هذه الرواسب وتلك العقابيل هى أكبر وأصعب من القوى التى كانت مرصودة ضد الدعـوة الإسلاميـة والتى ما تزال مرصودة لها فى الجاهليـات القديمة والحديثة!

والحقيقة الأساسية التى تعالج السورة إقرارها هى حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ؛ وعلى وجه الخصوص ما فيهـا من عذاب للـكافرين ، كما أوعدهم القرآن الـكريم . وهى تلم ــ فى طريقها إلى إقرار هذه الحقيقة ــ بحقيقة النفس البشرية فى الضراء والسراء . وهى حقيقة تختلف حين تـكون مؤمنة وحين تـكون خاوية من الإيمان . كما تلم بسمات النفس المؤمنة ومنهجها فى الشعور والسلوك ، واستحقاقها للتـكريم . وبهوان الذين كفروا على الله وما أعده لهم من مذلة ومهانة تليق بالمستكبرين . . وتقرر السورة كذلك اختلاف القيم والمقاييس فى تقدير الله وتقدير البشر ، واختلاف الموازين . . .

وتؤلف بهذه الحقائق حلقة من حلقات العلاج الطويل لعقابيل الجاهلية وتصوراتها ،

أو جولة من جولات المعركة الشاقة فى دروب النفس البشرية ومنحنياتها. تلك المعركة التى خاضها القرآن فانتصر فيها فى النهاية مجردا من كل قوة غير قوته الذاتية . فقد كان انتصار القرآن الحقيقى فى داخل النفس البشرية ــ ابتداء ــ قبل أن يكون له سيف يدفع الفتنة عن المؤمنين به فضلا على أن يرغم به أعداءه على الاستسلام له!

والذى يقرأ هذا القرآن ــ وهو مستحضر فى ذهنه لأحداث السيرة ــ يشعر بالقوة الغالبة والسلطان البالغ الذى كان هذا القرآن يواجه به النفوس فى مكة ويروضها حتى تسلس قيادها راغبة مختارة . ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة تنوعا عجيبا . . تارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر من الدلائل الموحية والمؤثرات الجارفة اوتارة يواجهها بما يشبه الهراسة الساحقة التى لايثبت لها شىء مما هو راسخ فى كيانها من التصورات والرواسب اوتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس فلا يطيق وقعها ولا يصبر على لذعها ! وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة ، ولمسارة الودود ، التى تهفو لها المشاعر وتأنس لها القلوب ! وتارة يواجهها بالهول المرعب ،والصرخة المفزعة ،التى تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب ! وتارة يواجهها بالحقيقة فى بساطة ونصاعة لاتدع مجالا للتلفت عنها ولا الجدال فيها . وتارة يواجهها بالرجاء الصبوح والأمل الندى الذى يهتف لها ويناجيها . وتارة يتخلل مساربها ودروبها ومنحنياتها فيلقى عليها الأضواء التى تكشفها لذاتها فترى مايجرى فى داخلها رأى العين ،وتخجل من بعضه ، وتكره بعضه ، وتتيقظ لحركاتها وانفعالاتها التى كانت غافلة عنها ! . . ومئات من اللمسات ، ومئات من اللفتات ، ومئات من الهتافات ، ومئات من المؤثرات . . يطلع عليها قارىء القرآن ، وهو يتتبع تلك المعركة الطويلة ، وذلك العلاج البطىء . ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية فى تلك النفوس العصية العنيدة .

وهذه السورة تكشف عن جانب من هذه المحاولة فى إقرار حقيقة الآخرة ، والحقائق الأخرى التى ألمت بها فى الطريق إليها.

وحقيقة الآخرة هى ذاتها التى تصدت لها سورة الحاقة ، ولكن هذه السورة تعالجها بطريقة أخرى ، وتعرض لها من زاوية جديدة ، وصور وظلال جديدة . .

فى سورة الحاقة كان الاتجاه إلى تصوير الهول والرعب فى هذا اليوم ، ممثلين فى حركات عنيفة فى مشاهد الكون الهائلة : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال

فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة ،وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » .. وفى الجلال المهيب فى ذلك المشهد المرهوب : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » . . وفى التكشف الذى ترتج له وتستهوله المشاعر : « يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية » . .

كذلك كان الهول والرعب يتمثلان فى مشاهد العذاب، حتى فى النطق بالحكم بهذا العذاب: « خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » .. كما يتجلى فى صراخ المعذبين وتأوهاتهم وحسراتهم : « ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ماحسابيه . ياليتها كانت القاضية . . »

فأما هنا فى هذه السورة فالهول يتجلى فى ملامح النفوس وسماتها وخوالجها وخطواتها ، أكثر مما يتجلى فى مشاهد الكون وحركاته . حتى المشاهد الكونية يكاد الهول يكون فيها نفسيا ! وهو على كل حال ليس أبرز مافى الموقف من أهوال . إنما الهول مستكن فى النفس يتجلى مداه فى مدى مايحدثه فيها من خلخلة وذهول وروعة : « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه » . .

وجهنم هنا «نفس» ذات مشاعر وذات وعى تشارك مشاركة الأحياء فى سمة الهول الحى : « إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . .

والعذاب ذاته يغلب عليه طابع نفسى أكثر منه حسيا : « يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون » . .

فالمشاهد والصور والظلال لهذا اليوم تختلف فى سورة المعارج عنها فى سورة الحاقة ، باختلاف طابعى السورتين فى عمومه . مع اتحاد الحقيقة الرئيسية التى تعرضها السورتان فى هذه المشاهد .

ومن ثم فقد تناولت سورة المعارج ــ فيما تناولت ــ تصوير النفس البشرية فى الضراء والسراء ، فى حالتى الإيمان والخواء من الإيمان . وكان هذا متناسقا مع طابعها « النفسى » الخاص : فجاء فى صفة الإنسان :« إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه

الخير منوعا. إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون . . . الخ » . واستطرد السياق فصور هنا صفات النفوس المؤمنة وسماتها الظاهرة والمضمرة تمشيا مع طبيعة السورة وأسلوبها : «إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم يحافظون. والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون .إن عذاب ربهم غير مأمون. والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . . . » . .

***

ولقد كان الاتجاه الرئيسى فى سورة الحاقة إلى تقرير حقيقة الجد الصارم فى شأن العقيدة . ومن ثم كانت حقيقة الآخرة واحدة من حقائق أخرى فى السورة ، كحقيقة أخذ المكذبين أخذا صارما فى الأرض ؛ وأخذ كل من يبدل فى العقيدة بلا تسامح . . فأما الاتجاه الرئيسى فى سورة المعارج فهو إلى تقرير حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ، وموازين هذا الجزاء . فحقيقة الآخرة هى الحقيقة الرئيسية فيها .

ومن ثم كانت الحقائق الأخرى فى السورة كلها متصلة اتصالا مباشرا بحقيقة الآخرة فيها . من ذلك حديث السورة عن الفارق بين حساب الله فى أيامه وحساب البشر ، وتقدير الله لليوم الآخر وتقدير البشر : « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا . . . الخ » وهو متعلق باليوم الآخر .

ومنه ذلك الفارق بين النفس البشرية فى الضراء والسراء فى حالتى الإيمان والخلو من الإيمان. وهما مؤهلان للجزاء فى يوم الجزاء .

ومنه غرور الذين كفروا وطمعهم أن يدخلوا كلهم جنة نعيم ، مع هوانهم على الله وعجزهم عن سبقه والتفلت من عقابه . وهو متصل اتصالا وثيقا بمحور السورة الأصيل .

وهكذا تكاد السورة تقتصر على حقيقة الآخرة وهى الحقيقة الكبيرة التى تتصدى لإقرارها فى النفوس . مع تنوع اللمسات والحقائق الأخرى المصاحبة للموضوع الأصيل .

***

ظاهرة أخرى فى الإيقاع الموسيقى للسورة ، الناشىء من بنائها التعبيرى . . فقد كان التنوع

الإيقاعى فى الحاقة ناشئا من تغير القافية فى السياق من فقرة لفقرة . وفق المعنى والجو فيـه . .
فأما هنا فى سورة المعارج فالتنوع أبعد نطاقا ، لأنه يشمل تنوع الجملة الموسيقية كلها لا إيقاع القافية وحدها . والجمـلة الموسيقية هنا أعمق وأعرض وأشد تركيبا . ويـكثر هذا التنوع فى شطر السورة الأول بشكل ملحوظ .

ففى هذا المطلع ثلاث جمل موسيقية منوعة ـ مع اتحاد الإيقاع فى نهاياتها ـ من حيث الطول، ومن حيث الإيقاعات الجزئية فيها على النحو التالى : .

« سأل سائل بعذاب واقع. للـكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائـكة والروح إليه . فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبرا جميلا » . . حيث تنتهى بمد الألف فى الإيقاع الخامس .

« إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا » .. حيث يتـكرر الإيقاع بمد الألف مرتين .

« يوم تـكون السماء كالمهل . وتـكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميا » . . حيث تنتهى بمد الألف فى الإيقاع الثالث . مع تنوع الإيقاع فى الداخل .

« يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عـذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا إنها لظى » . . حيث ينتهى بمـد الألف فى الإيقاع الخامس كالأول .

« نزاعة للشوى . . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى . إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا .وإذا مسه الخيرمنوعا » .. حيث يتـكرر إيقاع المد بالألف خمس مرات منهما اثنتان فى النهاية تختلفان عن الثلاثة الأولى .

ثم يستقيم الإيقاع فى باقى السورة على الميم والنون وقبلها واو أو ياء . .

والتنويع الإيقاعى فى مطلع السورة عميق وشديد التعقيد فى الصياغة الموسيقية بشكل يلفت الأذن الموسيقية إلى مافى هذا التنويع المعقد الراقى ـ موسيقيا ـ من جمال غريب على البيئة العربية وعلى الإيقاع الموسيقى العربى . ولـكن الأسلوب القرآنى يطوعه ويمنحه اليسر الذى يدخل به إلى الأذن العـربية فتقبل عليـه ، وإن كان فنا إبداعيا عميقا جـديدا على مألوفها الموسيقى [١] .

---

(١) الذين يعرفون شيئا عن الأصول الموسيقية لن يجدوا صعوبة فى فهم مدلول هذا الـكلام . ولتقريبه للآخرين يراجع فصل : التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

والآن نستعرض السورة تفصيلا . . .

***

« سأل سائل بعذاب واقع، للكافرين ليس له دافع ، من الله ذى المعارج ، تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبرا جميلا ، إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ، يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميا ، يبصرونهم ،يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه، ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا ! إنها لظى ، نزاعة للشوى، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى » . .

كانت حقيقة الآخرة من الحقائق العسيرة الإدراك عند مشركى العرب ؛ وقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة ، وكانوا يتلقونها بغاية العجب والدهش والاستغراب ؛ وينكرونها أشد الإنكار ، ويتحدون الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى صور شتى أن يأتيهم بهذا اليوم الموعود، أو أن يقول لهم : متى يكون .

وفى رواية عن ابن عباس أن الذى سأل عن العذاب هو النضر ابن الحارث . وفى رواية أخرى عنه : قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم .

وعلى أية حال فالسورة تحكى أن هناك سائلا سأل وقوع العذاب واستعجله . وتقرر أن هذا العذاب واقع فعلا، لأنه كائن فى تقدير الله من جهة ،ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى. وأن أحدا لا يمكنه دفعه ولا منعه. فالسؤال عنه واستعجاله ــ وهو واقع ليس له من دافع ــ يبدو تعاسة من السائل المستعجل ؛ فردا كان أو مجموعة !

وهذا العذاب للكافرين . . إطلاقا . . فيدخل فيه أولئك السائلون المستعجلون كما يدخل فيه كل كافر . وهو واقع من الله « ذى المعارج » . . وهو تعبير عن الرفعة والتعالى ، كما قال فى السورة الأخرى : « رفيع الدرجات ذو العرش » . .

وبعد هذا الافتتاح الذى يقرر كلمة الفصل فى موضوع العذاب ،ووقوعه ،ومستحقيه ،ومصدره ، وعلو هذا المصدر ورفعته ، مما يجعل قضاءه أمرا عاليا نافذا لا مرد له ولا دافع . . بعد هذا أخذ فى وصف ذلك اليوم الذى سيقع فيه هذا العذاب ، والذى يستعجلون به وهو منهم قريب. ولكن تقدير الله غير تقدير البشر ، ومقاييسه غير مقاييسهم :

« تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبرا جميلا ، إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » . .

والأرجح أن اليوم المشار إليه هنا هو يوم القيامة ، لأن السياق يكاد يعين هذا المعنى . وفى هذا اليوم تصعد الملائكة والروح إلى الله. والروح : الأرجح أنه جبريل عليه السلام ، كما سمى بهذا الاسم فى مواضع أخرى . وإنما أفرد بالذكر بعد الملائكة لماله من شأن خاص. وعروج الملائكة والروح فى هذا اليوم يفرد كذلك بالذكر ، إيحاء بأهميته فى هذا اليوم وخصوصيته ، وهم يعرجون فى شؤون هذا اليوم ومهامه . ولا ندرى نحن — ولم نكلف أن ندرى — طبيعة هذه المهام ، ولا كيف يصعد الملائكة ، ولا إلى أين يصعدون . فهذه كلها تفصيلات فى شأن الغيب لاتزيد شيئا من حكمة النص ، وليس لنا إليها من سبيل ، وليس لنا عليها من دليل. فحسبنا أن نشعر من خلال هذا المشهد بأهمية ذلك اليوم ، الذى ينشغل فيه الملائكة والروح بتحركات تتعلق بمهام ذلك اليوم العظيم .

وأما « كان مقداره خمسين ألف سنة » . . فقد تكون كناية عن طول هذا اليوم كما هو مألوف فى التعبير العربى . وقد تعنى حقيقة معينة ، ويكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة من سنى أهل الأرض فعلا وهو يوم واحد ! وتصور هذه الحقيقة قريب جدا الآن . فإن يومنا الأرضى هو مقياس مستمد من دورة الأرض حول نفسها فى أربع وعشرين ساعة . وهناك نجوم دورتها حول نفسها تستغرق مايعادل يومنا هذا آلاف المرات . . ولا يعنى هذا أنه هو المقصود بالخمسين ألف سنة هنا . ولكننا نذكر هذه الحقيقة لتقرب إلى الذهن تصور اختلاف المقاييس بين يوم ويوم !

وإذا كان يوم واحد من أيام الله يساوى خمسين ألف سنة ، فإن عذاب يوم القيامة قد يرونه هم بعيدا ، وهو عند الله قريب . ومن ثم يدعو الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — إلى الصبر الجميل على استعجالهم وتكذيبهم بذلك العذاب القريب .

« فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » . .

والدعوة إلى الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة ، وتكررت لكل رسول ، ولكل مؤمن يتبع الرسول . وهى ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق ، ولحفظ هذه النفوس متماسكة راضية ، موصولة بالهدف البعيد ، متطلعة كذلك إلى الأفق البعيد . .

والصبر الجميل هو الصبر المطمئن ، الذى لايصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك فى صدق الوعد . صبر الواثق من العاقبة، الراضى بقدر الله، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء ، الموصول بالله المحتسب كل شيء عنده مما يقع به .

وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة . فهى دعوة الله ، وهى دعوة إلى الله. ليس له هو منها شيء . وليس له وراءها من غاية . فكل مايلقاه فيها فهو فى سبيل الله ، وكل مايقع فى شأنها هو من أمر الله . فالصبر الجميل إذن ينبعث متناسقا مع هذه الحقيقة ، ومع الشعور بها فى أعماق الضمير .

والله صاحب الدعوة التى يقف لها المكذبون ، وصاحب الوعد الذى يستعجلون به ويكذبون ،يقدر الأحداث ويقدر مواقيتها كما يشاء وفق حكمته وتدبيره للكون كله . ولكن البشر لايعرفون هذا التدبير وذلك التقدير ؛ فيستعجلون . وإذا طال عليهم الأمد يستريبون . وقد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم ، وتجول فى خاطرهم أمنية ورغبة فى استعجال الوعد ووقوع الموعود . . عندئذ يجيء مثل هذا التثبيت وهذا التوجيه من الله الخبير :

« فاصبر صبرا جميلا » . .

والخطاب هنا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تثبيتا لقلبه على مايلقى من عنت المناوأة والتكذيب . وتقريرا للحقيقة الأخرى : وهى أن تقدير الله للأمور غير تقدير البشر ؛ ومقاييسه المطلقة غير مقاييسهم الصغيرة :

« إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » . .

ثم يرسم مشاهد اليوم الذى يقع فيه ذلك العذاب الواقع ،الذى يرونه بعيدا ويراه الله قريبا. يرسم مشاهده فى مجالى الكون وأغوار النفس . وهى مشاهد تشى بالهول المذهل المزلزل فى الكون وفى النفس سواء :

« يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن » . .

والمهل ذوب المعادن الكدر كدردىّ الزيت . والعهن هو الصوف المنتفش . والقرآن يقرر فى مواضع مختلفة أن أحداثا كونية كبرى ستقع فى هذا اليوم ، تغير أوضاع الأجرام الكونية وصفاتها ونسبها وروابطها . ومن هذه الأحداث أن تكون السماء كالمعادن المذابة . وهذه النصوص جديرة بأن يتأملها المشتغلون بالعلوم الطبيعية والفلكية . فمن المرجح عندهم

أن الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى الدرجة الغازية ـ وهى بعد درجة الانصهار والسيولة بمراحل ـ فلعلها فى يوم القيامة ستنطفىء (كما قال: «وإذا النجوم انكدرت») وستبرد حتى تصير معادن سائلة! وبهذا تتغير طبيعتها الحالية وهى الطبيعة الغازية!

على أية حال هـذا مجرد احتمال ينفع الباحثين فى هذه العلوم أن يتدبروه. أما نحن فنقف أمام هذا النص نتملى ذلك المشهد المرهوب، الذى تـكون فيه السماء كذوب المعادن الـكدر، وتكون فيه الجبال كالصوف الواهن المتنفش. ونتملى ماوراء هـذا المشهد من الهول المذهل الذى ينطبع فى النفوس، فيعبر عنه القرآن أعمق تعبير:

«ولا يسأل حميم حميا. يبصرونهـم. يود المجرم لو يفتدى من عـذاب يومئذ ببنيه. وصاحبته وأخيه. وفصيلته التى تؤويه. ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه» . .

إن الناس فى هم شاغل، لايدع لأحد منهم أن يتلفت خارج نفسه، ولا يجد فسحة فى شعوره لغيره: «ولا يسأل حميم حميا» . . فلقد قطع الهول المروّع جميع الوشائج، وحبس النفوس على همها لاتتعداه . . وإنهم ليعرضون بعضهم على بعض «يبصرونهم» كأنما عمدا وقصدا! ولـكن لـكل منهم همه، ولـكل ضمير منهم شغله. فلا يهجس فى خاطر صديق أن يسأل صديقه عن حاله، ولا أن يسأله عونه. فالـكرب يلف الجميع، والهول يغشى الجميع . .

فما بال «المجرم»؟ إن الهول ليأخذ بحسه، وإن الرعب ليذهب بنفسه، وإنه ليود لو يفتدى من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه، ممن كان يفتديهم بنفسه فى الحياة، ويناضل عنهم، ويعيش لهم . . ببنيه. وزوجه. وأخيه. وعشيرته القريبة التى تؤويه وتحميه. بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الإطلاق، فيود لو يفتدى بمن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . . وهى صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبة الجامحة فى الإفلات! صورة مبطنة بالهول، مغمورة بالـكرب، موشاة بالفزع، ترتسم من خلال التعبير القرآنى الموحى.

وبينما المجرم فى هـذه الحال، يتمنى ذلك المحال، يسمع مايئيس ويقنط من كل بارقة من أمل، أو كل حديث خادع من النفس. كما يسمع الملأ جميعا حقيقة الموقف وما يجرى فيه:

«كلا! إنها لظى. نزاعة للشوى. تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى» . .

إنه مشهد تطير له النفس شعاعا، بعد ماأذهلها كرب الموقف وهوله . . «كلا» فى ردع عن تلك الأمانى المستحيلة فى الافتداء بالبنين والزوج والأخ والعشيرة ومن فى الأرض جميعا . . .

« كلا إنها لظى » نار تتلظى وتتحرق « نزاعة للشوى » تنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعا .. وهى غول مفزعة . ذات نفس حية تشارك فى الهول والعذاب عن إرادة وقصد : « تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . . تدعوه كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر ويتولى . ولكنه اليوم إذ تدعوه جهنم لايملك أن يدبر ويتولى ! ولقد كان من قبل مشغولا عن الدعوة بجمع المال وحفظه فى الأوعية ! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لايملك أن يلهو عنها . ولا يملك أن يفتدى بما فى الأرض كله منها !

والتوكيد فى هذه السورة والسورة السابقة قبلها وفى سورة القلم كذلك على منع الخير ، وعدم الحض على طعام المسكين ،وجمع المال فى الأوعية إلى جانب الكفر والتكذيب والمعصية .. هذا التوكيد يدل على أن الدعوة كانت تواجه فى مكة حالات خاصة يجتمع فيها البخل والحرص والجشع إلى الكفر والتكذيب والضلالة . مما اقتضى تكرار الإشارة إلى هذا الأمر ، والتخويف من عاقبته ، بوصفه من موجبات العذاب بعد الكفر والشرك بالله .

وفى هذه السورة إشارات أخرى تفيد هذه المعنى . وتؤكد ملامح البيئة المكية التى كانت تواجهها الدعوة. فقد كانت بيئة مشغولة بجمع المال من التجارة ومن الربا. وكان كبراء قريش هم أصحاب هذه المتاجر ، وأصحاب القوافل فى رحلتى الشتاء والصيف . وكان هنالك تكالب على الثراء ، وشح النفوس يجعل الفقراء محرومين ، واليتامى مضيعين . ومن ثم تكرر الأمر فى هذا الشأن وتكرر التحذير . وظل القرآن يعالج هذا الجشع وهذا الحرص ؛ ويخوض هذه المعركة مع الجشع والحرص فى أغوار النفس ودروبها قبل الفتح وبعده على السواء . مما هو ظاهر لمن يتتبع التحذير من الربا ، ومن أكل أموال الناس بالباطل ، ومن أكل أموال اليتامى إسرافا وبدارا أن يكبروا ! ومن الجور على اليتيمات واحتجازهن للزواج الجائر رغبة فى أموالهن !ومن نهر السائل . وقهر اليتيم ، ومن حرمان المساكين ... إلى آخر هذه الحملات المتتابعة العنيفة الدالة على الكثير من ملامح البيئة . فضلا على أنها توجيهات دائمة لعلاج النفس الإنسانية فى كل بيئة . وحب المال ، والحرص عليه ، وشح النفس به ، والرغبة فى احتجانه ، آفة تساور النفوس مساورة عنيفة ، وتحتاج للانطلاق من إسارها والتخلص من أوهاقها ، والتحرر من ربقتها ، إلى معارك متلاحقة ، وإلى علاج طويل !

* * *

والآن وقد انتهى من تصوير الهـول فى مشاهد ذلك اليوم ، وفى صورة ذلك العـذاب ؛ فإنه يتجه إلى تصوير حقيقة النفس البشرية فى مواجهة الشر والخير ، فى حالتى إيمانها وخلوها من الإيمان . ويقرر مصير المؤمنين كما قرر مصير المجرمين :

« إن الإنسان خلق هلوعا : إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عـذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غـير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك فى جنات مكرمون » .

وصورة الإنسان ــ عند خواء قلبه من الإيمان ــ كما يرسمها القرآن صورة عجيبة فى صدقها ودقتها وتعبيرها الكامل عن الملامح الأصيلة فى هذا المخلوق ؛ والتى لايعصمه منها ولا يرفعه عنها إلا العنصر الإيمانى ، الذى يصله بمصدر يجد عنده الطمأنينة التى تمسك به من الجزع عند ملاقاة الشر ، ومن الشح عند امتلاك الخير .

« إن الإنسان خلق هلوعا : إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا » . .

لكأنما كل كلمة لمسة من ريشة مبدعة تضع خطا فى ملامح هذا الإنسان . حتى إذا اكتملت الآيات الثلاث القصار المعدودة الكلمات نطقت الصورة ونبضت بالحياة . وانتفض من خلالها الإنسان بسماته وملامحه الثابتة . هلوعا . . جزوعا عند مس الشر ، يتألم للذعته ، ويجزع لوقعه ، ويحسب أنه دائم لا كاشف له . ويظن اللحظة الحاضرة سرمدا مضروبا عليه ؛ ويحبس نفسه بأوهامه فى قمقم من هذه اللحظة وما فيها من الشر الواقع به . فلا يتصور أن هناك فرجا ؛ ولا يتوقع من الله تغييرا . ومن ثم يأكله الجزع ، ويمزقه الهلع ! ذلك أنه لايأوى إلى ركن ركين يشد من عزمه ، ويعلق به رجاءه وأمله . . منوعا للخير إذا قدر عليه : يحسب أنه من كده وكسبه فيضن به على غيره ، ويحتجنه لشخصه ، ويصبح أسير ماملك منه ، مستعبدا للحرص عليه ! ذلك أنه لا يدرك حقيقة الرزق ودوره هو فيه . ولا يتطلع إلى خير منه عنـد ربه وهو منقطع عنه خاوى القلب من الشعور به . . فهو هلوع فى الحالتين . . هلوع من الشر . هلوع على الخير . . وهى صورة بائسة للإنسان ، حين يخلو قلبه من الإيمان .

ومن ثم يبدو الايمان بالله مسألة ضخمة فى حياة الإنسان . لا كلمة تقال باللسان ،ولا شعائر تعبدية تقام . إنه حالة نفس ومنهج حياة ، وتصور كامل للقيم والأحداث والأحوال . وحين يصبح القلب خاويا من هذا المقوم فإنه يتأرجح ويهتز وتتناوبه الرياح كالريشة ! ويبيت فى قلق وخوف دائم ، سواء أصابه الشر فجزع ، أم أصابه الخير فمنع . فأما حين يعمره الإيمان فهو منه فى طمأنينة وعافية ، لأنه متصل بمصدر الأحداث ومدبر الأحوال ؟ مطمئن إلى قدره شاعر برحمته، مقدر لابتلائه ، متطلع دائما إلى فرجه من الضيق ،ويسره من العسر . متجه إليه بالخير ، عالم أنه ينفق مما رزقه ، وأنه مجزى على ما أنفق فى سبيله ، معوض عنه فى الدنيا والآخرة . . فالإيمان كسب فى الدنيا يتحقق قبل جزاء الآخرة ، يتحقق بالراحة والطمأنينة والثبات والاستقرار طوال رحلة الحياة الدنيا .

وصفة المؤمنين المستثنين من الهلع ، تلك السمة العامة للإنسان ، يفصلها السياق هنا ويحددها :

« إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون » ..

والصلاة فوق أنها ركن الإسلام وعلامة الإيمان ، هى وسيلة الاتصال بالله والاستمداد من ذلك الرصيد . ومظهر العبودية الخالصة التى يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية فى صورة معينة . وصفة الدوام التى يخصصها بها هنا : « الذين هم على صلاتهم دائمون » . . تعطى صورة الاستقرار والاستطراد ، فهى صلاة لايقطعها الترك والإهمال والكسل .وهى صلة بالله مستمرة غير منقطعة . . وقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا عمل شيئا من العبادة أثبته — أى داوم عليه — وكان يقول : « وإن أحب الأعمال إلى الله تعالى مادام وإن قل [١] » . . لملاحظة صفة الاطمئنان والاستقرار والثبات على الاتصال بالله ، كما ينبغى من الاحترام لهذا الاتصال . فليس هو لعبة توصل أو تقطع . . حسب المزاج !

« والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . .

وهى الزكاة على وجه التخصيص والصدقات المعلومة القدر .. وهى حق فى أموال المؤمنين.. أو لعل المعنى أشمل من هذا وأكبر . وهو أنهم يجعلون فى أموالهم نصيبا معلوما يشعرون أنه حق للسائل والمحروم . وفى هذا تخلص من الشح واستعلاء على الحرص ؟ كما أن فيه شعورا

(١) من حديث لعائشة أخرجه الستة

بواجب الواجد تجاه المحروم ، فى هذه الأمة المتضامنة المتكافلة .. والسائل الذى يسأل ؛والمحروم الذى لايسأل ولايعبر عن حاجته فيحرم .أو لعله الذى نزلت به النوازل فحرم وعف عن السؤال. والشعور بأن للمحتاجين والمحرومين حقا فى الأموال هو شعور بفضل الله من جهة ، وبآصرة الإنسانية من جهة ، فوق مافيه من تحرر شعورى من ربقة الحرص والشح . وهو فى الوقت ذاته ضمانة اجتماعية لتكافل الأمة كلها وتعاونها . فهى فريضة ذات دلالات شتى . فى عالم الضمير وعالم الواقع سواء . . وذكرها هنا فوق أنه يرسم خطا فى ملامح النفس المؤمنة فهو حلقة من حلقات العلاج للشح والحرص فى السورة .

« والذين يصدقون بيوم الدين » . .

وهذه الصفة ذات علاقة مباشرة بموضوع السورة الرئيسى . وهى فى الوقت ذاته ترسم خطا أساسيا فى ملامح النفس المؤمنة . فالتصديق بيوم الدين شطر الإيمان. وهو ذو أثر حاسم فى منهج الحياة شعورا وسلوكا . والميزان فى يد المصدق بيوم الدين غير الميزان فى يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيه . ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث . . المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض، ولحساب الآخرة لا لحساب الدنيا. ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفى حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك ، فيضيف إليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقومها . . والمكذب بيوم الدين يحسب كل شىء بحسب مايقع له منه فى هذه الحياة القصيرة المحدودة، ويتحرك وحدوده هى حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر . ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه ، وينتهى إلى نتائج خاطئة فوق ماينحصر فى مساحة من المكان ومساحة من الزمان محدودة .. وهو بائس مسكين معذب قلق لأن مايقع فى هذا الشطر من الحياة الذى يحصر فيه تأملاته وحساباته وتقديراته ، قد لايكون مطمئنا ولا مريحا ولا عادلا ولا معقولا ، مالم يضف إليه حساب الشطر الآخر وهو أكبر وأطول . ومن ثم يشقى به من لايحسب حساب الآخرة أو يشقى غيره من حوله . ولا تستقيم له حياة رفيعة لايجد جزاءها فى هذه الأرض واضحا . . ومن ثم كان التصديق باليوم الآخر شطر الإيمان الذى يقوم عليه منهج الحياة فى الإسلام .

« والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون » . .

وهذه درجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين . درجة الحساسية المرهفة ، والرقابة

اليقظة، والشعور بالتقصير فى جناب الله على كثرة العبادة ، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب فى أية لحظة، والتطلع إلى الله للحماية والوقاية .

ولقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو من هو عند الله . وهو يعرف أن الله قد اصطفاه ورعاه . . كان دائم الحذر دائم الخوف لعذاب الله . وكان على يقين أن عمله لا يعصمه ولا يدخله الجنة إلا بفضل من الله ورحمة . وقال لأصحابه : « لن يدخل الجنة أحداً عمله » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته [١] »

وفى قوله هنا : « إن عذاب ربهم غير مأمون » . . إيحاء بالحساسية الدائمة التى لا تغفل لحظة ، فقد تقع موجبات العذاب فى لحظة الغفلة فيحق العذاب. والله لا يطلب من الناس إلا هذه اليقظة وهذه الحساسية ، فإذا غلبهم ضعفهم معها ، فرحمته واسعة ، ومغفرته حاضرة . وباب التوبة مفتوح ليست عليه مغاليق ! وهذا قوام الأمر فى الإسلام بين الغفلة والقلق . والإسلام غير هذا وتلك . والقلب الموصول بالله يحذر ويرجو ، ويخاف ويطمع ،وهو مطمئن لرحمة الله على كل حال .

« والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

وهذه تعنى طهارة النفس والجماعة ، فالإسلام يريد مجتمعا طاهرا نظيفا ، وفى الوقت ذاته ناصعا صريحا . مجتمعا تؤدى فيه كل الوظائف الحيوية ، وتلبى فيه كل دوافع الفطرة . ولكن بغير فوضى ترفع الحياء الجميل ، وبغير التواء يقتل الصراحة النظيفة . مجتمعا يقوم على أساس الأسرة الشرعية المتينة القوائم . وعلى البيت العلنى الواضح المعالم . مجتمعا يعرف فيه كل طفل أباه ، ولا يخجل من مولده . لا لأن الحياء منزوع من الوجوه والنفوس ، ولكن لأن العلاقات الجنسية قائمة على أساس نظيف صريح ، طويل الأمد ، واضح الأهداف ، يرمى إلى النهوض بواجب إنسانى واجتماعى ، لا لمجرد إرضاء النزوة الحيوانية والشهوة الجنسية !

ومن ثم يذكر القرآن هنا من صفات المؤمنين « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » . .

---

(١) رواه الشيخان والنسائى .

فيقرر نظافة الاتصال بالأزواج وبما ملكت الأيمان ـ من الإماء حين يوجدن بسبب مشروع ـ والسبب المشروع الوحيد الذى يعترف به الإسلام هو السبى فى قتال فى سبيل الله . وهى الحرب الوحيدة التى يقرها الإسلام ـ والأصل فى حكم هذا السبى هو ماذكرته آية سورة محمد : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ولكن قد يتخلف بعض السبى بلا منّ ولا فداء لملابسات واقعية ؛ فهذا يظل رقيقا إذا كان المعسكر الآخر يسترق أسرى المسلمين فى أية صورة من صور الرق ـ ولوسماه بغير اسمه ! ـ ويجوّز الإسلام وطءالإماء عندئذ من صاحبهن وحده، ويجعل عتقهن موكولا إلى الوسائل الكثيرة التى شرعها الإسلام لتجفيف هذا المورد . ويقف الإسلام بمبادئه صريحا نظيفا لايدع هؤلاء الأسيرات لفوضى الاختلاط الجنسى القذر كما يقع لأسيرات الحروب قديما وحديثا ؛ ولا يتدسس ويلتوى فيسميهن حرات وهن إماء فى الحقيقة !

« فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » . . وبذلك يغلق الباب فى وجه كل قذارة جنسية ، فى أية صورة غيرهاتين الصورتين الواضحتين الصريحتين .. فلا يرى فى الوظيفة الطبيعية قذارة فى ذاتها ؛ ولكن القذارة فى الالتواء بها . والإسلام نظيف صريح قويم . (١)

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وهذه من القوائم الأخلاقية التى يقيم الإسلام عليها نظام المجتمع. ورعاية الأمانات والعهود فى الإسلام تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التى عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . وهى أمانة العقيدة والاستقامة عليها اختيارا لااضطرارا .. ومن رعاية العهد الأول المقطوع على فطرة الناس وهم بعد فى الأصلاب أن الله ربهم الواحد ، وهم بخلقتهم على هذا العهد شهود . . ومن رعاية تلك الأمانة وهذا العهد تنبثق رعاية سائر الأمانات والعهود فى معاملات الأرض وقد شدد الإسلام فى الأمانة والعهد وكرر وأكد ،ليقيم المجتمع على أسس متينة من الخلق والثقة والطمأنينة .وجعل رعاية الأمانة والعهد سمة النفس المؤمنة ، كما جعل خيانة الأمانة وإخلاف العهد سمة النفس المنافقة والكافرة . وورد هـذا فى مواضع شتى من القرآن والسنة لاتدع مجالا للشك فى أهمية هـذا الأمر البالغة فى عرف الإسلام .

---

(١) راجع سورة المؤمنون جزء ١٨ ص ١١ـ١٢ وسورة محمد جزء ٢٦ ص ٥٠ ـ ٥٤

« والذين هم بشهاداتهم قائمون » . .

وقد ناط الله بأداء الشهادة حقوقاً كثيرة ، بل ناط بها حدود الله ، التى تقام بقيام الشهادة. فلم يكن بد أن يشدد الله فى القيام بالشهادة ، وعدم التخلف عنها ابتداء ، وعدم كتمانها عند التقاضى ، ومن القيام بها أداؤها بالحق دون ميل ولا تحريف . وقد جعلها الله شهادة له هو ليربطها بطاعته ، فقال : « وأقيموا الشهادة لله » . . وجعلها هنا سمة من سمات المؤمنين وهى أمانة من الأمانات ، أفردها بالذكر للتعظيم من شأنها وإبراز أهميتها . .

وكما بدأ سمات النفوس المؤمنة بالصلاة ، ختمها كذلك بالصلاة :

« والذين هم على صلاتهم يحافظون » . .

وهى صفة غير صفة الدوام التى ذكرت فى صدر هـذه الصفات . تتحقق بالمحافظة على الصلاة فى مواعيدها ، وفى فرائضها ، وفى سننها ، وفى هيئتها ، وفى الروح التى تؤدى بها . فلا يضيعونها إهمالا وكسلا . ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها . . وذكر الصلاة فى المطلع والختام يوحى بالاحتفال والاهتمام . وبهذا تختم سمات المؤمنين . .

وعندئذ يقرر مصير هذا الفريق من الناس بعد ماقرر من قبل مصير الفريق الآخر :

« أولئك فى جنات مكرمون » . .

ويجمع هذا النص القصير بين لون من النعيم الحسى ولون من النعيم الروحى . فهم فى جنات . وهم يلقون الكرامة فى هذه الجنات . فتجتمع لهم اللذة بالنعيم مع التكريم . جزاء على هذا الخلق الكريم . الذى يتميز به المؤمنون .

* * *

ثم يعرض السياق مشهدا من مشاهد الدعوة فى مكة ، والمشركون يسرعون الخطى إلى المكان الذى يكون فيه الرسول — صلى الله عليه وسلم — يتلو القرآن . ثم يتفرقون حواليه جماعات . ويستنكر إسراعهم هذا وتجمعهم فى غير مارغبة فى الاهتداء بما يسمعون :

« فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ؟ عن اليمين وعن الشمال عزين ؟ » . .

المهطع هو الذى يسرع الخطى مادا عنقه كالمقود . وعزين جمع عزة كفئة وزنا ومعنى . . وفى التعبير تهكم خفى بحركتهم المريبة . وتصوير لهذه الحركة وللهيئة التى تتم بها. وتعجب منهم. وتساؤل عن هـذا الحال منهـم ! وهم لايسرعون الخطى تجاه الرسول ليسمعوا ويهتـدوا ،

ولكن فقط ليستطلعوا فى دهشة ثم يتفرقوا كى يتحلقوا حلقات يتناجون فى الكيد والرد على مايسمعون !

مالهم ؟ « أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ؟ » . .

وهم على هذه الحال التى لاتؤدى إلى جنة نعيم ، إنما تؤدى إلى لظى مأوى المجرمين!

ألعلهم يحسبون أنفسهم شيئا عظيما عند الله؟ فهم يكفرون ؟ ويؤذون الرسول ، ويسمعون القرآن ويتناجون بالكيد . ثم يدخلون الجنة بعد هذا كله لأنهم فى ميزان الله شىء عظيم ؟!

« كلا ! » فى ردع وفى تحقير . . « إنا خلقناهم مما يعلمون » !

وهم يعلمون مم خلقوا ! من ذلك الماء المهين الذى يعرفون ! والتعبير القرآنى المبدع يلمسهم هذه اللمسة الخفيفة العميقة فى الوقت ذاته ؛ فيمسح بها كبرياءهم مسحا ، وينكس بها خيلاءهم تنكيسا . دون لفظة واحدة نابية ، أو تعبير واحد جارح . بينما هذه الإشارة العابرة تصور الهوان والزهادة والرخص أكمل تصوير ! فكيف يطمعون أن يدخلوا جنة نعيم على الكفر وسوء الصنيع ؟ وهم مخلوقون مما يعلمون ! وهم أهون على الله من أن تكون لهم دالة عليه ، وخرق لسنته فى الجزاء العادل باللظى وبالنعيم .

واستطرادا فى تهوين أمرهم ، وتصغير شأنهم ، وتنكيس كبريائهم ، يقرر أن الله قادر على أن يخلق خيرا منهم ، وأنهم لايعجزونه فيذهبون دون مايستحقون من جزاء أليم :

« فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين » .

والأمر ليس فى حاجة إلى قسم . ولكن التلويح بذكر المشارق والمغارب ، يوحى بعظمة الخالق . والمشارق والمغارب قد تعنى مشارق النجوم الكثيرة ومغاربها فى هذا الكون الفسيح . كما أنها قد تعنى المشارق والمغارب المتوالية على بقاع الأرض . وهى تتوالى فى كل لحظة. ففى كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس يطلع مشرق ويختفى مغرب . .

وأيا كان مدلول المشارق والمغارب ، فهو يوحى إلى القلب بضخامة هذا الوجود، وبعظمة الخالق لهذا الوجود. فهل يحتاج أمر أولئك المخلوقين مما يعلمون إلى قسم برب المشارق والمغارب،

على أنه ــ سبحانه ــ قادر على أن يخلق خيرا منهم،وأنهم لايسبقونه ولا يفوتونه ولا يهربون من مصيرهم المحتوم ؟ !

* * *

وعند مايبلغ السياق هذا المقطع ، بعد تصوير هول العذاب فى ذلك اليوم المشهود ؛ وكرامة النعيم للمؤمنين، وهوان شأن الكافرين . يتجه بالخطاب إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليدعهم لذلك اليوم ولذلك العذاب ، ويرسم مشهدهم فيه ، وهو مشهد مكروب ذليل :

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون » . .

وفى هــذا الخطاب من تهوين شأنهم ، ومن التهــديد لهم ، مايثير الخوف والترقب . وفى مشهدهم وهيئتهم وحركتهم فى ذلك اليوم مايثير الفزع والتخوف . كما أن فى التعبير من التهكم والسخرية مايناسب اعتزازهم بأنفسهم واغترارهم بمكانتهم . .

فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه .. وفى هذا التهكم تناسق مع حالهم فى الدنيا. لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب فى الأعياد ويتجمعون حولها . فهاهم أولاء يسارعون اليوم ، ولكن شتان بين يوم ويوم !

ثم تتم سماتهم بقوله : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » فنلمح من خلال الكلمات سماهم كاملة ، وترتسم لنا من قسماتهم صورة واضحة . صورة ذليلة عانية . . لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم أذلاء مرهقون . .

« ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون »

فكانوا يستريبون فيه ويكذبون ويستعجلون !

* * *

بهذا يلتئم المطلع والختام، وتتم هذه الحلقةمن حلقات العلاج الطويل لقضية البعث والجزاء، وتنتهى هذه الجولةمن جولات المعركة الطويلة بين التصور الجاهلى والتصور الإسلامى للحياة.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ : أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ : يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

« قَالَ : رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ، وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ، وَأَصَرُّوا ، وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ؟ * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ؟ * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ؟ * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا .

« قَالَ نُوحٌ : رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا *

وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُوا : لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ، وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا .

« مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً .

« وَقَالَ نُوحٌ : رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً * رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَلِوَالِدَيَّ ، وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً » . .

هذه السورة كلها تقص قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه ؛ وتصف تجربة من تجارب الدعوة فى الأرض ؛ وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية ، وشوطا من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل .

هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة، الضالة ، الذاهبة وراء القيادات المضللة، المستكبرة عن الحق، المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، المعروضة أمامها فى الأنفس والآفاق ، المرقومة فى كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون .

وهى فى الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى فى رعاية الله لهـذا الكائن الإنسانى ، وعنايته بأن يهتدى . تتجلى هذه العناية فى إرسال الرسل تترى إلى هـذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدى .

ثم هى بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضنى، والعناء المرهق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم من جانب الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة . وهم لا مصلحة لهم فى القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية ، ولا مكافأة ولا جُعل يحصلونه على حصول الإيمان ! كالمكافأة أو النفقة التى تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون ، فى زماننا هذا وفى كل زمان فى صورة نفقات للتعليم !

هذه الصورة التى يعرضها نوح ـ عليه السلام ـ على ربه ، وهو يقدم له حسابه الأخير بعد ألف سنة إلا خمسين عاما قضاها فى هذا الجهد المضنى ، والعناء المرهق ، مع قومه المعاندين ، الذاهبين وراء قيادة ضالة مضللة ذات سلطان ومال وعزوة . وهو يقول :

« رب . إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهـم ، وأصروا واستكبروا استكبارا .ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت : استغفروا ربكم ، إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لاترجون لله وقارا؟ وقد خلقكم أطوارا؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتا ،ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » . .

ثم يقول بعد عرض هذا الجهد الدائب الملح الثابت المصر :

« رب إنهم عصونى ، واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا : لاتذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا . . . » . .

وهى حصيلة مريرة . ولكن الرسالة هى الرسالة !

هذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو الذى انتهت إليه أمانة دعوة الله فى الأرض كلها فى آخر الزمان ، واضطلع بأكبر عبء كلفه رسول . . يرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل ، لإقرار حقيقة الإيمان فى الأرض . ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق ؛ وفساد القيادة الضالة وغلبتها على القيادة الراشدة . ثم إرادة الله فى إرسال الرسل تترى بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدى جدها نوح عليه السلام .

وتعرض على الجماعة المسلمة فى مكة ، وعلى الأمة المسلمة بعامة ، وهى الوارثة لدعوة الله فى الأرض ، وللمنهج الإلهى المنبثق من هـذه الدعوة ، القائمة عليه فى وسط الجاهليـة المشتركة يومذاك ، وفى وسط كل جاهلية تالية . . ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبى البشرية الثانى . كما ترى فيها عناية الله بالقلة المؤمنة ، وإنجاءها من الهلاك الشامل فى ذلك الحين .

وتعرض على المشركين ليروا فيهـا مصير أسلافهم المكذبين ؛ ويدركوا نعمة الله عليهـم فى إرساله إليهم رسولا رحيما بهم ، لايدعو عليهم بالهلاك الشامل ؛ وذلك لما قدره الله من الرحمة

بهم وإمهالهم إلى حين . فلم تصبهم من نبيهم دعوة كدعوة نوح ، بعد ماستنفد كل الوسائل ، وألهم الدعاء على القوم بما ألهم :

« ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » . .

« وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفاراً » . .

* * *

ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلهية على البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها ، وتأصل جذورها . كما يتجلى ارتباطها بالكون وبإرادة الله وقدره ، وأحداث الحياة الواقعة وفق قدر الله . وذلك من خلال دعوة نوح لقومه : « قال : ياقوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لايؤخر ، لو كنتم تعلمون » . . وفى حكاية قوله لهم : « مالكم لاترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » . .

ولإقرار هذه الحقيقة فى نفوس المسلمين قيمته فى شعورهم بحقيقة دعوتهم ، وحقيقة نسبهم العريق ! وحقيقة موكبهم المتصل من مطلع البشرية . وحقيقة دورهم فى إقرار هذه الدعوة والقيام عليها . وهى منهج الله القويم القديم .

* * *

وإن الإنسان ليأخذه الدهش والعجب ،كما تغمره الروعة والخشوع ،وهو يستعرض — بهذه المناسبة — ذلك الجهد الموصول من الرسل — عليهم صلوات الله وسلامه — لهداية البشرية الضالة المعاندة . ويتدبر إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل واحدا بعد واحد لهذه البشرية المعرضة العنيدة .

وقد يعن للإنسان أن يسأل : ترى تساوى الحصيلة هذا الجهد الطويل ، وتلك التضحيات النبيلة. من لدن نوح — عليه السلام — إلى محمد — عليه الصلاةوالسلام — ثم ما كان بينها وماتلاها من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام ؟

ترى هل تساوى هـذا الجهد الذى وصفه نوح فى هـذه السورة وفى غيرها من سور القرآن ، وقد استغرق عمرا طويلا بالغ الطول ، لم يكتف قومه فيه بالإعراض ، بل أتبعوه بالسخرية والاتهام . وهو يتلقاها بالصبر والحسنى ، والأدب الجميل والبيان النير .

ثم تلك الجهود الموصولة منذ ذلك التاريخ ، وتلك التضحيات النبيلة التى لم تنقطع على مدار التاريخ . من رسل يستهزأ بهم ، أو يحرقون بالنار ، أو ينشرون بالمنشار ، أو يهجرون الأهل والديار . . حتى تجىء الرسالة الأخيرة ، فيجهد فيها محمد — صلى الله عليه وسلم — ذلك الجهـد المشهود المعروف ،هو والمؤمنون معه .ثم تتوالى الجهود المضنية والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته فى كل أرض وفى كل جيل ؟ ؟

ترى تساوى الحصيلة كل هـذه الجهود ، وكل هذه التضحيات ، وكل هـذا الجهاد المرير الشاق ؟ ثم . . ترى هـذه البشرية كلها تساوى تلك العناية الكريمة من الله ، المتجلية فى استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل تترى بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار، من هذا الخلق الهزيل الصغير المسمى بالإنسان ؟ !

والجواب بعد التدبر : أن نعم . . وبلا جدال . . !

إن استقرار حقيقة الإيمان بالله فى الأرض يساوى كل هذا الجهد ، وكل هذا الصبر ، وكل هذه المشقة ، وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين فى كل جيل !

ولعل استقرار هـذه الحقيقة أكبر من وجـود الإنسان ذاته ؛ بل أكبر من الأرض وما عليها ؛ بل أكبر من هذا الكون الهائل الذى لاتبلغ الأرض أن تكون فيه هباءة ضائعة لاتكاد تحس أو ترى !

وقد شاءت إرادة الله أن يخلق هذا الكائن الإنسانى بخصائص معينة ، تجعل استقرار هذه الحقيقة فى ضميره وفى نظام حياته موكولا إلى الجهد الإنسانى ذاته ، بعون الله وتوفيقه . ولسنا نعلم لم خلق الله هـذا الكائن بهذه الخصائص . ووكله إلى إدراكه وجهده وإرادته فى تحقيق حقيقة الإيمان فى ذاته وفى نظام حياته ؛ولم يجبله على الإيمان والطاعة لايعرف غيرهما كالملائكة، أو يمحضه للشر والمعصية لايعرف غيرهما كإبليس .

لسنا نعلم سر هذا . ولكننا نؤمن بأن هنالك حكمة تتعلق بنظام الوجود كله فى خلق هذا الكائن بهذه الخصائص !

وإذن فلابد من جهد بشرى لإقرار حقيقة الإيمان فى عالم الإنسان . هـذا الجهد اختار الله له صفوة من عباده هم الأنبياء والرسل . وثلة مختارة من أتباعهم هم المؤمنون الصادقون . اختارهم لإقرار هذه الحقيقة فى الأرض، لأنها تساوى كل مايبذلون فيها من جهود مضنية مريرة ، وتضحيات شاقة نبيلة .

إن استقرار هـذه الحقيقة فى قلب معناه أن ينطوى هـذا القلب على قبس من نور الله ؛ وأن يـكون مستودعا لسر من أسراره ؛ وأن يـكون أداة من أدوات قدره النافذ فى هـذا الوجود . . وهذه حقيقة لا لمجرد تصوير وتقريب . . وهى حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسمائه ، ومن كل هذا الـكون الـكبير !

كما أن استقرار حقيقة الإيمان فى حياة البشر — أو جماعة منهم — معناه اتصال هـذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية ، وارتفاعها إلى المستوى الذى يؤهلها لهذا الاتصال . معناه اتصال الفناء بالبقاء والجزء بالـكل والمحدود الناقص بالـكمال المطلق . . . وهى حصيلة تربى على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوما أو بعض يوم فى عمر البشرية الطويل . لأن تحققها — ولو فى هـذه الصورة — يرفع أمام البشرية فى سائر أجيالها مشعل النور فى صورة عملية واقعية ، تجاهد لتبلغ إليها طوال الأجيال !

ولقد أثبت الواقع التاريخى المتكرر أن النفس البشرية لم تبلغ إلى آفاق الـكمال المقدر لها بأية وسيلة كما بلغتها باستقرار حقيقة الإيمـان بالله فيها . وأن الحياة البشرية لم ترتفع إلى هـذه الآفاق بوسيلة أخرى كما ارتفعت بهذه الوسيلة . وأن الفترات التى استقرت فيها هذه الحقيقة فى الأرض ، وتسلم أهلها قيادة البشرية كانت قمة فى تاريخ الإنسان سامقة . بل كانت حلما أكبر من الخيال ، ولـكنه متمثل فى واقع يحياه الناس .

وما يمكن أن ترتقى البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام ، إلى المستوى الذى وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله فى نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم . . وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل ، سواء جاءت مجملة كما هى فى الرسالات الأولى ، أو مفصلة شاملة دقيقة كما هى فى الرسالة الأخيرة .

والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله؛ هو هذا الذى أثبته الواقع التاريخى

من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الإيمان فى حياتها مالم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر: لا علم . ولا فلسفة . ولا فن . ولا نظام من النظم . وأنها حين فقدت قيادة المؤمنين الحقيقيين لم ينفعها شيء من ذلك كله ؛ بل انحدرت قيمها وموازينها وإنسانيتها ، كما غرقت فى الشقاء النفسى والحيرة الفكرية والأمراض العصبية ، على الرغم من تقدمها الحضارى فى سائر الميادين ، وعلى الرغم من توافر عوامل الراحة البدنية والمتاع العقلى ، وأسباب السعادة المادية بجملتها . ولكنها لم تنل السعادة والطمأنينة والراحة الإنسانية أبدا . ولم يرتفع تصورها للحياة قط كما ارتفع فى ظل الحقيقة الإيمانية ، ولم تتوثق صلتها بالوجود قط كما توثقت فى ظل هذه العقيدة ، ولم تشعر بكرامة « النفس الإنسانية » قط كما شعرت بها فى تلك الفترة التى استقرت فيها تلك الحقيقة . والدراسة الواعيــة للتصور الإسلامى لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنسانى تنتهى حتما إلى هذه النتيجة .

وهذا كله يستحق ـ بدون تردد ـ كل مايبذله المؤمنون من جهود مضنية ، ومن تضحيات نبيلة ، لإقرار حقيقة الإيمــان بالله فى الأرض . وإقامة قلوب تنطوى على قبس من نور الله ، وتتصل بروح الله . وإقامة حياة إنسانية يتمثل فيها منهج الله للحياة . وترتفع فيها تصورات البشر وأخلاقهم ، كما يرتفع فيها واقع حياتهم إلى ذلك المستوى الرفيع ، الذى شهدته البشرية واقعا فى فترة من فترات التاريخ .

وستعرض البشرية كما أعرضت عن دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم الكرام . وستذهب مع القيادات الضالة المضلة الممعنة فى الضلال . وستعذب الدعاة إلى الحق أنواعا مختلفة من العذاب ، وتنكل بهم ألوانا شتى من النكال . كما ألقت ابراهيم فى النار ، ونشرت غيره بالمنشار ، وسخرت واستهزأت بالرسل والأنبياء على مدار التاريخ .

ولكن الدعوة إلى الله لابد أن تمضى فى طريقها كما أراد الله . لأن الحصيلة تستحق الجهود المضنية والتضحيات النبيلة . ولو صغرت فانحصرت فى قلب واحد ينطوى على قبس من نور الله ، ويتصل بروح الله !

إن هــذا الموكب المتصل من الرسل والرسالات من عهد نوح ـ عليه السلام ـ إلى عهــد محمد ـ عليه أزكى السلام ـ لينبىء عن استقرار إرادة الله على اطراد الدعوة إلى حقيقة الإيمان الكبيرة ، وعلى قيمة هذه الدعوة وقيمة الحصيلة . وأقل نسبة لهــذه الحصيلة هى أن تستقر

حقيقة الإيمان في قلوب الدعاة أنفسهم حتى يلاقوا الموت وما هو أشد من الموت في سبيلها ولاينكصون عنها . وبهذا يرتفعون على الأرض كلها وينطلقون من جواذبها ، ويتحررون من ربقتها. وهذا وحده كسب كبير، أكبر من الجهد المرير . كسب للدعاة. وكسب للإنسانية التي تشرف بهذا الصنف منها وتكرم .وتستحق أن يسجد الله الملائكة لهذا الكائن ، الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء . ولكنه يتهيأ — بجهده هو ومحاولته وتضحيته — لاستقبال قبس من نور الله . كما يتهيأ لأن ينهض — وهو الضعيف العاجز — بتحقيق قدر الله في الأرض ، وتحقيق منهجه في الحياة . ويبلغ من الطلاقة والتحرر الروحي أن يضحي بالحياة، ويحتمل من المشقة ماهو أكبر من ضياع الحياة ، لينجو بعقيدته وينهض بواجبه في محاولة إقرارها في حياة الآخرين ، وتحقيق السعادة لهم والتحرر والارتفاع . وحين يتحقق لروح الإنسان هذا القدر من التحرر والانطلاق ، يهون الجهد ، وتهون المشقة ، وتهون التضحية ، ويتوارى هذا كله ، لتبرز تلك الحصيلة الضخمة التي ترجح الأرض والسماء في ميزان الله . . .

والآن نستعرض قصة نوح في هذه السورة ، وما تمثله من حقيقة تلك الحقيقة !

* * *

«إنا أرسلنا نوحا إلى قومه : أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم. قال : ياقوم: إني لكم نذير مبين : أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لايؤخر ، لو كنتم تعلمون » . .

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة والعقيدة وتوكيده : « إنا أرسلنا نوحا إلى قومه » . . فهذا هو المصدر الذي يتلقى منه الرسل التكليف ، كما يتلقون حقيقة العقيدة . وهو المصدر الذي صدر منه الوجود كله ، وصدرت منه الحياة . وهو الله الذي خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده ، فلما انحرفوا عنها وزاغوا أرسل إليهم رسله ، يردونهم إليه . ونوح — عليه السلام — كان أول هؤلاء الرسل — بعد آدم عليه السلام . وآدم لايذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض ، وممارسته لهذه الحياة ؟ ولعله كان معلما لأبنائه وحفدته حتى إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلوا عن عبادة الله الواحد ، واتخذوا لهم أصناما آلهة . اتخذوها في أول الأمر أنصابا ترمز إلى قوى قدسوها . قوى غيبية أومشهودة .ثم نسوا الرمز وعبدوا الأصنام ! وأشهرها تلك الخمسة التي سيرد ذكرها في السورة . فأرسل الله إليهم نوحا

يردهم إلى التوحيد ، ويصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة والوجود . والكتب المقدسة السابقة تجعل إدريس — عليه السلام — سابقا لنوح . ولكن ماورد فى هذه الكتب لايدخل فى تكوين عقيدة المسلم ، لشبهة التحريف والتزيد والإضافة إلى تلك الكتب .

والذى يتجه إليه من يقرأ قصص الأنبياء فى القرآن ، أن نوحا كان فى فجر البشرية ؛ وأن طول عمره الذى قضى منه ألف سنة إلا خمسين عاما فى دعوته لقومه ، ولابد أنهم كانوا طوال الأعمار بهذه النسبة . . أن طول عمره وأعمار جيله هكذا يوحى بأن البشر كانوا مايزالون قلة لم تتكاثر بعد كما تكاثرت فى الأجيال التالية . وذلك قياسا على مانراه من سنة الله فى الأحياء من طول العمر إذا قل العدد ، كأن ذلك للتعويض والتعادل . . والله أعلم بذلك . . إنما هى نظرة فى سنة الله وقياس !

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة وتوكيده ، ثم تذكر فحوى رسالة نوح فى اختصار وهى الإنذار :

« أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم » . .

والحالة التى كان قوم نوح قد انتهوا إليها ، من إعراض واستكبار وعناد وضلال — كما تبرز من خلال الحساب الذى قدمه نوح فى النهاية لربه — تجعل الإنذار هو أنسب ماتلخص به رسالته ، وأول مايفتتح به الدعوة لقومه . الإنذار بعذاب أليم ، فى الدنيا أو فى الآخرة ، أو فيهما جميعا .

ومن مشهد التكليف ينتقل السياق مباشرة إلى مشهد التبليغ فى اختصار ، البارز فيه هو الإنذار ، مع الإطماع فى المغفرة على ما وقع من الخطايا والذنوب ؛ وتأجيل الحساب إلى الأجل المضروب فى الآخرة للحساب ؛ وذلك مع البيان المجمل لأصول الدعوة التى يدعوهم إليها :

« قال: ياقوم إنى لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله، واتقوه، وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى . إن أجل الله إذا جاء لايؤخر لو كنتم تعلمون » . .

« ياقوم إنى لكم نذير مبين » . . مفصح عن نذارته ، مبين عن حجته ، لايتمتم ولا يجمجم ، ولا يتلعثم فى دعوته ، ولا يدع لبسا ولا غموضا فى حقيقة مايدعو إليه ، وفى حقيقة ماينتظر المكذبين بدعوته .

وما يدعو إليه بسيط واضح مستقيم : « أن اعبدوا الله، واتقوه وأطيعون » .. عبادة لله

وحده بلا شريك . وتقوى لله تهيمن على الشعور والسلوك . وطاعة لرسوله تجعل أمره هو المصدر الذى يستمدون منه نظام الحياة وقواعد السلوك .

وفى هذه الخطوط العريضة تتلخص الديانة السماوية على الإطلاق . ثم تفترق بعد ذلك فى التفصيل والتفريع . وفى مدى التصور وضخامته وعمقه وسعته وشموله وتناوله للجوانب المختلفة للوجود كله ، وللوجود الإنسانى فى التفصيل والتفريع .

وعبادة الله وحده منهج كامل للحياة ، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ؛ ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق ، ولحقيقة القوى والقيم فى الكون وفى حياة الناس .. ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور ، فيقوم منهج للحياة خاص ، منهج ربانى مرجعه إلى حقيقة الصلة بين العبودية والألوهية ، وإلى القيم التى يقررها الله للأحياء والأشياء .

وتقوى الله . . هى الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج ، وعدم التلفت عنه هنا أو هناك ، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء فى تنفيذه . كما أنها هى مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله ، بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة .

وطاعة الرسول . . هى الوسيلة للاستقامة على الطريق ، وتلقى الهدى من مصدره المتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية ، وبقاء الاتصال بالسماء عن طريق محطة الاستقبال المباشرة السليمة المضمونة !

فهذه الخطوط العريضة التى دعا نوح إليها قومه فى فجر البشرية هى خلاصة دعوة الله فى كل جيل بعده ، وقد وعدهم عليها ماوعد الله به التائبين الثائبين :

« يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى » . .

وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله هى المغفرة والتخليص من الذنوب التى سلفت ؛ وتأخير الحساب إلى الأجل المضروب له فى علم الله . وهو اليوم الآخر . وعدم الأخذ فى الحياة الدنيا بعذاب الاستئصال (وسيرد فى الحساب الذى قدمه نوح لربه أنه وعدهم أشياء أخرى فى أثناء الحياة) .

ثم بين لهم أن ذلك الأجل المضروب حتمى يجىء فى موعده ، ولا يؤخر كما يؤخر عذاب الدنيا . . وذلك لتقرير هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى :

« إن أجل الله إذا جاء لايؤخر ، لو كنتم تعلمون » . .

كما أن النص يحتمل أن يكون هذا تقريرا لكل أجل يضربه الله ؛ ليقر فى قلوبهم هذه الحقيقة بوجه عام . بمناسبة الحديث عن الوعد بتأخير حسابهم ـ لو أطاعوا وأنابوا ـ إلى يوم الحساب .

* * *

وراح نوح ـ عليه السلام ـ يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه ، بلا مصلحة له ، ولا منفعة ؛ ويحتمل فى سبيل هذه الغاية النبيلة مايحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء . . ألف سنة إلا خمسين عاما .. وعدد المستجيبين له لايكاد يزيد؛ ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد ! ثم عاد فى نهاية المطاف يقدم حسابه لربه الذى كلفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل ! عاد يصف ماصنع وما لاقى .. وربه يعلم . وهو يعرف أن ربه يعلم . ولكنها شكوى القلب المتعب فى نهاية المطاف ، إلى الجهة الوحيدة التى يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون حقيقة الإيمان . . إلى الله . .

« قال : رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ؛ وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكبارا . ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا. مالكم لاترجون لله وقارا ؟وقد خلقكم أطوارا ؟ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟والله أنبتكم من الأرض نباتا ،ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا » . .

هذا ماصنع نوح وهذا ما قال ؛ عاد يعرضه على ربه وهو يقدم حسابه الأخير فى نهاية الأمد الطويل . وهو يصور الجهد الدائب الذى لاينقطع : « إنى دعوت قومى ليلا ونهارا » . .

ولا يمل ولا يفتر ولا ييئس أمام الإعراض والإصرار : « فلم يزدهم دعائى إلا فرارا » .. فرارا من الداعى إلى الله . مصدر الوجود والحياة ، ومصدر النعم والآلاء ، ومصدر الهدى والنور . وهو لايطلب أجرا على السماع ولا ضريبة على الاهتداء ! الفرار ممن يدعوهم إلى الله ليغفر لهم ويخلصهم من جريرة الإثم والمعصية والضلال !

فإذا لم يستطيعوا الفرار ، لأن الداعى واجههم مواجهة ، وتحين الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته ، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم . وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم ، وأصروا على الضلال ، واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى : « وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا » .. وهى صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها ؛ وإصرارهم هم على الضلال . تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة . تبرز فى وضع الأصابع فى الآذان ، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب . والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولى الكامل ، وهو يقول : إنهم « جعلوا أصابعهم فى آذانهم » وآذانهم لاتسع أصابعهم كاملة، إنما هم يسدونها بأطراف الأصابع . ولكنهم يسدونها فى عنف بالغ ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها فى آذانهم ضمانا لعدم تسرب الصوت إليها بتاتا ! وهى صورة غليظة للإصرار والعناد ، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار !

ومع الدأب على الدعوة ، وتحين كل فرصة ، والإصرار على المواجهة . . اتبع نوح ــ عليه السلام ــ كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة ، ثم زاوج بين الإعلان والإسرار تارة : « ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا » . .

وفى أثناء ذلك كله أطمعهم فى خير الدنيا والآخرة . أطمعهم فى الغفران إذا استغفروا ربهم فهو ــ سبحانه ــ غفار للذنوب : « فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفارا » . . وأطمعهم فى الرزق الوفير الميسور من أسبابه التى يعرفونها ويرجونها وهى المطر الغزير ، الذى تنبت به الزروع، وتسيل به الأنهار ، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التى يحبونها ــ وهى البنين ــ والأموال التى يطلبونها ويعزونها : « يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » . .

وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق . وفى القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله ، وبين تيسير الأرزاق ، وعموم الرخاء . . جاء فى موضع : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون [١] » . . وجاء فى موضع : « ولو أن أهل الكتاب

(١) سورة الأعراف . آية : ٩٦

آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . . . [١] » . . وجاء فى موضع : « ألا تعبدوا إلا الله إنى لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله . . . [٢] »

وهذه القاعدة التى يقررها القرآن فى مواضع متفرقة، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله ، ومن سنة الحياة ؛ كما أن الواقع العملى يشهد بتحققها على مدار القرون . والحديث فى هذه القاعدة عن الأمم لاعن الأفراد . وما من أمة قام فيها شرع الله ، واتجهت اتجاها حقيقيا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبىء عن خشية الله . . مامن أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعا ، إلا فاضت فيها الخيرات ، ومكن الله لها فى الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء .

ولقد نشهد فى بعض الفترات أمما لاتتقى الله ولا تقيم شريعته ؛ وهى — مع هذا — موسع عليها فى الرزق ، ممكن لها فى الأرض . . ولكن هذا إنما هو الابتلاء : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ثم هو بعد ذلك رخاء مؤوف ، تأكله آفات الاختلال الاجتماعى والانحدار الأخلاقى ، أو الظلم والبغى وإهدار كرامة الإنسان . . وأمامنا الآن دولتان كبيرتان موسع عليهما فى الرزق ، ممكن لهما فى الأرض . إحداهما رأسمالية والأخرى شيوعية . وفى الأولى يهبط المستوى الأخلاقى إلى الدرك الأسفل من الحيوانية ، ويهبط تصور الحياة إلى الدرك الأسفل كذلك فيقوم كله على الدولار ! ! وفى الثانية تهدر قيمة « الإنسان » إلى درجة دون الرقيق وتسود الجاسوسية ويعيش الناس فى وجل دائم من المذابح المتوالية ؛ ويبيت كل إنسان وهو لايضمن أنه سيصبح ورأسه بين كتفيه لايطيح فى تهمة تحاك فى الظلام ! وليست هذه أو تلك حياة إنسانية توسم بالرخاء !

ونمضى مع نوح فى جهاده النبيل الطويل . فنجده يأخذ بقومه إلى آيات الله فى أنفسهم وفى الكون من حولهم ، وهو يعجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع الله ، وينكر عليهم ذلك الاستهتار :

---

(١) سورة المائدة . آية : ٦٥ — ٦٦

(٢) سورة هود . آية ٢ — ٣

« مالكم لاترجون لله وقارا ؟ وقد خلقكم أطوارا ؟ » . .

والأطوار التى يخاطب بها قوم نوح فى ذلك الزمان لابد أن تكون أمرا يدركونه ، أوأن يكون أحد مدلولاتها مما يملك أولئك القوم فى ذلك الزمان أن يدركوه . ليرجو من وراء تذكيرهم به أن يكون له فى نفوسهم وقع مؤثر ، يقودهم إلى الاستجابة . والذى عليه أكثر المفسرين أنها الأطوار الجنينية من النطفة إلىالعلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل.. وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم . لأن الأجنة التى تسقط قبل اكتمالها فى الأرحام يمكن أن تعطيهم فكرة عن هذه الأطوار .وهذا أحد مدلولات هذه الآية . ويمكن أن يكون مدلولها مايقوله علم الأجنة . من أن الجنين فى أول أمره يشبه حيوان الخلية الواحدة ؛ ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا . ثم يأخذ شكل حيوان مائى . ثم شكل حيوان ثديى . ثم شكل المخلوق الإنسانى . . وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح . فقد كشف هذا حديثا جدا . وقد يكون هذا هو مدلول قوله تعالى فى موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين : « ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين [1] » . . كما أن هذا النص وذاك قد تكون لهما مدلولات أخرى لم تتكشف للعلم بعد . . ولا نقيدهما . .

وعلى أية حال فقد وجه نوح قومه إلى النظرفى أنفسهم ، وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطوارا ، ثم هم بعد ذلك لايستشعرون فى أنفسهم توقيرا للجليل الذى خلقهم . . وهذا أعجب وأنكر مايقع من مخلوق !

كذلك وجههم إلى كتاب الكون المفتوح : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ؟وجعلالقمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا؟ » .. والسماوات السبع لايمكن حصرها فى مدلول مماتقول به الفروض العلمية فى التعريف بالكون .فهى كلها مجرد فروض . إنما وجه نوح قومهإلى السماء وأخبرهم ـ كما علمه الله ـ أنها سبع طباق . فيهن القمر نور وفيهن الشمس سراج . وهم يرون القمر ويرون الشمس ،ويرون مايطلق عليه اسم السماء . وهو هذا الفضاء ذو اللون الأزرق . أما ماهو ؟ فلم يكن ذلك مطلوبا منهم . ولم يجزم أحد إلى اليوم بشىء فى هذا الشأن .. وهذا التوجيه يكفى لإثارةالتطلع والتدبر فيماوراء هذه الخلائق الهائلة منقدرة مبدعة.. وهذا هوالمقصود منذلك التوجيه . ثم عاد نوح فوجه قومه إلى النظر فى نشأتهم من

(١) سورة المؤمنون : آيه ١٤

الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقرر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث: «والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا » . .

والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موح . وهو يكرر فى القرآن فى صور شتى . كقوله تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لايخرج إلا نكدا » . وهو يشير فى هذا إلى نشأة الناس كنشأه النبات . كما يقرن نشأة الإنسان بنشأة النبات فى مواضع متفرقة :ففى سورة الحج يجمع بينهما فى آية واحدة فىصدد البرهنة على حقيقة البعث فيقول : « ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، لنبين لكم، ونقر فىالأرحام مانشاءإلى أجلمسمى ثم نخرجكم طفلا ،ثم لتبلغوا أشدكم ،ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لايعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » . . وفى سورة « المؤمنون » يذكر أطوار النشأة الجنينية قريبا مما ذكرت فى سورة الحج ويجىء بعدها : « فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب » . . وهكذا . .

وهى ظاهرة تستدعى النظر ولا ريب . فهى توحى بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض ، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات . من عناصرها الأولية يتكون . ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو ، فهو نبات من نباتها . وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة . وكلاهما من نتاج الأرض ، وكلاهما يرضع من هذه الأم !

وكذلك ينشىء الإيمان فى المؤمن تصورا حقيقيا حيا لعلاقته بالأرض وبالأحياء. تصورا فيه دقة العلم وفيه حيوية الشعور . لأنه قائم على الحقيقة الحية فى الضمير . وهذه ميزة المعرفة القرآنية الفريدة .

والناس الذين نبتوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى . يعيدهم الله إليها كما أنبتهم منها . فيختلط رفاتهم بتربتها ، وتندمج ذراتهم فى ذراتها ، كما كانوا فيها من قبل أن ينبتوا منها ! ثم يخرجهم الذى أخرجهم أول مرة ؛ وينبتهم كما أنبتهم أول مرة . . مسألة سهلة يسيرة لاتستدعى التوقف عندها لحظة ، حين ينظر الإنسان إليها من هذه الزاوية التى يعرضها القرآن منها !

ونوح — عليه السلام — وجه قومه إلى هذه الحقيقة لتستشعر قلوبهم يد الله وهى تنبتهم من هذه الأرض نباتا ، وهى تعيدهم فيها مرة أخرى . ثم تتوقع النشأة الأخرى وتحسب حسابها ، وهى كائنة بهذا اليسر وبهذه البساطة . بساطة البداهة التى لاتقبل جدلا !

وأخيرا وجه نوح قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم فى تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم: «والله جعل لكم الأرض بساطا ،لتسلكوا منها سبلا فجاجا» .

وهذه الحقيقة القريبة من مشاهدتهم وإدراكهم تواجههم مواجهة كاملة ، ولا يملكون الفرار منها كما كانوا يفرون من صوت نوح وإنذاره . فهذه الأرض بالقياس إليهم مبسوطة ممهدة — حتى جبالها قد جعل لهم عبرها دروبا وفجاجا ، كما جعل فى سهولها من باب أولى . وفى سبلها ودروبها يمشون ويركبون وينتقلون ؛ويبتغون من فضل الله، ويتعايشون فى يسر وتبادل للمنافع والأرزاق .

وهم كانوا يدركون هذه الحقيقة المشاهدة لهم بدون حاجة الى دراسات علمية عويصة ، يدرسون بها النواميس التى تحكم وجودهم على هذه الأرض ، وتيسر لهم الحياة فيها . وكلما زاد الإنسان علما أدرك من هذه الحقيقة جوانب جديدة وآفاقا بعيدة (١)

هكذا سلك نوح — أو حاول أن يسلك — إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب ، ومتنوع الوسائل فى دأب طويل ، وفى صبر جميل ، وفى جهد نبيل ، ألف سنة إلا خمسين عاما . ثم عاد إلى ربه الذى أرسله إليهم ، يقدم حسابه ، ويبث شكواه ، فى هذا البيان المفصل ، وفى هذه اللهجة المؤثرة . ومن هذا البيان الدقيق نطلع على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة ،وهى حلقة واحدة فى سلسلة الرسالة السماوية لهذه البشرية الضالة العصية! فماذا كان بعد كل هذا البيان ؟

« قال نوح : رب إنهم عصونى ،واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا .ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لاتذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولاسواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا . ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » . .

---

(١) تراجع سورة الملك عند قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . ص ٥ ».

رب إنهم عصونى ! بعد كل هذا الجهاد ، وبعد كل هذا العناء . وبعد كل هذا التوجيه . وبعد كل هذا التنوير . وبعد الإنذار والإطماع والوعد بالمال والبنين والرخاء . . بعد هذا كله كان العصيان . وكان السير وراء القيادات الضالة المضلة ، التى تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد ، ومظاهر الجاه والسلطان . ممن « لم يزده ماله وولده إلا خسارا » فقد أغراهم المال والولد بالضلال والإضلال ، فلم يكن وراءهما إلا الشقاء والخسران .

هؤلاء القادة لم يكتفوا بالضلال .. « ومكروا مكرا كبارا » .. مكرا متناهيا فى الكبر. مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق فى وجهها إلى قلوب الناس . ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التى تخبط فيها القوم. وكان من مكرهم تحريض الناس على الاستمساك بالأصنام التى يسمونها آلهة : « وقالوا : لاتذرن آلهتكم » . . بهذه الإضافة : « آلهتكم » لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة فى قلوبهم . وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنا فخصوها بالذكر ليهيج ذكرها فى قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز . . « ولا تذرن ودا ، ولا سواعا ، ولا يغوث ، ويعوق ، ونسرا » . . وهى أكبر آلهتهم التى ظلت تعبد فى الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية .

وهكذا تلك القيادات الضالة المضلة تقيم أصناما ، تختلف أسماؤها وأشكالها ، وفق النعرة السائدة فى كل جاهلية ؛ وتجمع حوالها الأتباع ، وتهيج فى قلوبهم الحمية لهذه الأصنام ، كى توجههم من هذا الحطام إلى حيث تشاء ، وتبقيهم على الضلال الذى يكفل لها الطاعة والانقياد: « وقد أضلوا كثيرا » ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام . . أصنام الأحجار . وأصنام الأشخاص . وأصنام الأفكار . . سواء ! ! للصد عن دعوة الله، وتوجيه القلوب بعيدا عن الدعاة ، بالمكر الكبار ، والكيد والإصرار !

***

هنا انبعث من قلب النبى الكريم نوح ــ عليه السلام ــ ذلك الدعاء على الظالمين الضالين المضلين ، الماكرين الكائدين :

« ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » . .

ذلك الدعاء المنبعث من قلب جاهد طويلا ، وعانى كثيرا ، وانتهى ــ بعد كل وسيلة ــ إلى اقتناع بأن لاخير فى القلوب الظالمة الباغية العاتية ؛ وعلم أنها لاتستحق الهدى ولا تستأهل النجاة .

وقبل أن يعرض السياق بقية دعاء نوح ـ عليـه السلام ـ يعرض ماصار إليه الظالمون الخاطئون فى الدنيا والآخـرة جميعا ! فأمر الآخرة كأمر الدنيـا حاضر بالقياس إلى علم الله ، وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذى لاتغيير فيه :

« مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » .

فبخطيئاتهم وذنوبهم ومعصياتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . والتعقيب بالفاء مقصود هنا ،لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم ؛ والفاصل الزمنى القصير كأنه غير موجود ، لأنه فى موازين الله لايحسب شيئا . فالترتيب مع التعقيب كائن بين إغراقهم فى الأرض وإدخالهم النار يوم القيامة. وقد يكون هو عذاب القبر فى الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة . . « فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » . .

لابنون ولا مال ولا سلطان ولا أولياء من الآلهة المدعاة !

وفى آيتين اثنتين قصيرتين ينتهى أمر هؤلاء العصاة العتاة ، ويطوى ذكرهم من الحياة ! وذلك قبل أن يذكر السياق دعاء نوح عليهم بالهلاك والفناء . . ولا يفصل هنا قصة غرقهم ، ولا قصة الطـوفان الذى أغرقهم . لأن الظل المراد إبقاؤه فى هـذا الموقف هو ظل الإجهاز السريع ، حتى ليعبر المسافة بين الإغراق والإحـراق فى حرف الفاء ! على طريقة القرآن فى إيقاعاته التعبيرية والتصويرية المبدعة . فنقف نحن فى ظـلال السياق لانتعداها إلى تفصيل قصـة الإغراق . . ولا الإحراق . . . !

ثم يـكمل دعاء نوح الأخير ؛ وابتهاله إلى ربه فى نهاية المطاف :

« وقال نوح : رب لاتذر على الأرض من الـكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . رب اغفرلى ولوالدى ، ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا » . .

فقد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذى انتهى إليه القوم فى زمانه .وأحيانا لايصلح أى علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين، لأن وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائيا ، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين . وهى الحقيقة التى عبر عنها نوح، وهو يطلب الإجهاز على أولئك الظالمين إجهازا كاملا لايبقى منهم ديارا ـ أى صاحب ديار ـ فقال : « إنك إن تذرهم يضلوا عبادك » . . ولفظة « عبادك »

توحى بأنهم المؤمنون . فهى تجىء فى السياق القرآنى فى مثل هذا الموضع بهذا المعنى . وذلك بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة ، أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله فى عافية !

ثم إنهم يوجدون بيئة وجوا يولد فيها الكفار ، وتوحى بالكفر من الناشئة الصغار ، بما يطبعهم به الوسط الذى ينشئه الظالمون ، فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور ، من خلال ماتغمرهم به البيئة الضالة التى صنعوها . وهى الحقيقة التى أشار إليها قول النبى الكريم نوح عليه السلام ، وحكاها عنه القرآن : « ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » . . فهم يطلقون فى جو الجماعة أباطيل وأضاليل ، وينشئون عادات وأوضاعا ونظما وتقاليد ، ينشأ معها المواليد فجارا كفارا ، كما قال نوح . .

من أجل هذا دعا نوح ـ عليه السلام ـ دعوته الماحقة الساحقة .ومن أجل هذا استجاب الله دعوته ، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر ؛ وجرف المواثير التى لاتجرفها إلا قوة الجبار القدير .

وإلى جانب الدعوة الساحقة الماحقة التى جعلها خاتمة دعائه وهو يقول : « ولا تزد الظالمين إلا تبارا » ـ أى هلاكا ودمارا ـ إلى جانب هذا كان الابتهال الخاشع الودود :

« رب اغفرلى ولوالدى ، ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات . . . » . .

ودعاء نوح النبى لربه أن يغفر له .. هو الأدب النبوى الكريم فى حضرة الله العلى العظيم.. أدب العبد فى حضرة الرب . العبد الذى لاينسى أنه بشر ، وأنه يخطىء ، وأنه يقصر ، مهما يطع ويعبد ، وأنه لايدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله بفضله ، كما قال أخوه النبى الكريم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا هو الاستغفار الذى دعاقومه العصاة الخاطئين إليه، فاستكبروا عليه . . وهو هو النبى يستغفر بعد كل هذا الجهد وكل هذا العناء . يستغفر وهو يقدم لربه سجل الحساب !

ودعاؤه لوالديه . . هو بر النبوة بالوالدين المؤمنين ـ كما نفهم من هذا الدعاء ـ ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع فى شأن ولده الكافر الذى أغرق مع المغرقين (كما جاء فى سورة هود) .

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمنا .. هو بر المؤمن بالمؤمن ؛ وحب الخير لأخيه كما يحبه

لنفسه، وتخصيص الذى يدخل بيته مؤمنا، لأن هذه كانت علامة النجاة ، وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه فى السفينة .

ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات . . هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة فى كل زمان ومكان . وشعوره بآصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكن .وهو السر العجيب فى هذه العقيدة التى تربط بين أصحابها برباط الحب الوثيق، والشوق العميق ،على تباعد الزمان والمكان. السر الذى أودعه الله هذه العقيدة ، وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة . .

وفى مقابل هذا الحب للمؤمنين ، كان الكره للظالمين .

« ولا تزد الظالمين إلا تبارا » . .

* * *

وتختم السورة ، وقد عرضت تلك الصورة الوضيئة لجهاد النبى الكريم نوح عليه السلام. وتلك الصورة المطموسة لإصرار المعاندين الظالمين . . وقد تركت هذه وتلك فى القلب حبا لهذا الروح الكريم وإعجابا بهذا الجهاد النبيل .وزادا للسير فى هذا الطريق الصاعد .أيا كانت المشاق والمتاعب . وأيا كانت التضحيات والآلام .فهو الطريق الوحيد الذى ينتهى بالبشرية إلى أقصى الكمال المقدر لها فى هــذه الأرض . حين ينتهى بها إلى الله ، العلى الأعلى ، الجليل العظيم . .

سورة الجنّ مكيّة
وآياتها ٢٨

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

« قُلْ : أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ، فَقَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللّٰهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللّٰهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللّٰهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ، كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللّٰهَ فِي الْأَرْضِ ، وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا .

« وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا * وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلّٰهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللّٰهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا .

« قُلْ : إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً .

« قُلْ : إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً .

« قُلْ : إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً * إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً * حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً .

« قُلْ : إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ، فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ، وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً » . .

هذه السورة تبده الحس ـ قبل أن ينظر إلى المعانى والحقائق الواردة فيها ـ بشىء آخر واضح كل الوضوح فيها . . إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع، قوية التنغيم ، ظاهرة الرنين ؛ مع صبغة من الحزن فى إيقاعها ، ومسحة من الأسى فى تنغيمها ، وطائف من الشجى فى رنينها . يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة وظلالها ومشاهدها، ثم روح الإيحاء فيها . وبخاصة فى الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن، والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الخطاب الذى يثير العطف على شخص الرسول فى قلب المستمع لهذه السورة، عطفا مصحوبا بالحب وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شىء فى أمر هذه الدعوة إلا البلاغ ، والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ :

« قل : إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا .. قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ، إلا بلاغا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ، حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا .. قل : إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى

من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شيء عددا » . .

وذلك كله إلى جانب الإيقاع النفسى للحقائق التى وردت فى حكاية قول الجن ، وبيانهم الطويل المديد . وهى حقائق ذات ثقل ووزن فى الحس والتصور ؛ والاستجابة لها تغشى الحس بحالة من التدبر والتفكير ، تناسب مسحة الحزن ورنة الشجى المتمشية فى إيقاع السورة الموسيقى !

وقراءة هذه السورة بشىء من الترتيل الهادىء توقع فى الحس هذا الذى وصفناه من المسحة الغالبة عليها . .

* * *

فإذا تجاوزنا هذه الظاهرة التى تبده الحس ؛ إلى موضوع السورة ومعانيها واتجاهها فإننا نجدها حافلة بشتى الدلالات والإيحاءات .

إنها ابتداء شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التى كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها أشد الجدل ، ويرجمون فى أمرها رجما لا يستندون فيه إلى حجة، ويزعمون أحيانا أن محمدا — صلى الله عليه وسلم — يتلقى من الجن مايقوله لهم عنها! فتجىء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التى يجحدونها ويجادلون فيها ؛ وبتكذيب دعواهم فى استمداد محمد من الجن شيئا . والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد — صلى الله عليه وسلم — فهالهم وراعهم ومسهم منه ما يدهش ويذهل ، وملأ نفوسهم وفاض حتى مايملكون السكوت على ماسمعوا ، ولا الإجمال فيما عرفوا ، ولا الاختصار فيما شعروا . فانطلقوا يحدثون فى روعة المأخوذ ، ووهلة المشدوه ، عن هذا الحدث العظيم ، الذى شغل السماء والأرض والإنس والجن والملائكة والكواكب . وترك آثاره ونتائجه فى الكون كله ! . . وهى شهادة لها قيمتها فى النفس البشرية حتما .

ثم إنها تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن فى نفوس المخاطبين ابتداء بهذه السورة ، وفى نفوس الناس جميعا من قبل ومن بعد ؛ ووضع حقيقة هذا الخلق المغيب فى موضعها بلا غلو ولا اعتساف . فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطانا فى الأرض ، فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أو قفر ، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم

لما نزل فيه من الأرض ، فقال : أعوذ بسيد هـذا الوادى من سفهاء قومه . . ثم بات آمنا !
كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبأون بما يتنبأون . وفيهم من عبد الجن وجعل بينهم وبين الله نسبا ، وزعم له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلد له الملائكة !

والاعتقاد فى الجن على هـذا النحو أو شبهه كان فاشيا فى كل جاهلية ، ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا ! ! !

وبينما كانت الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم وتصوراتهم عن الجن فى القديم ، وما تزال . . نجد فى الصف الآخر اليوم منكرين لوجود الجن أصلا ، يصفون أى حديث عن هذا الخلق المغيب بأنه حديث خرافة . .

وبين الإغراق فى الوهم ، والإغراق فى الإنكار ، يقرر الإسلام حقيقة الجن ، ويصحح التصورات العامة عنهم ، ويحرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم :

فالجن لهم حقيقة موجودة فعلا وهم كما يصفون أنفسهم هنا : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا » . . ومنهم الضالون المضلون ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون: « وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ،وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا » . . وهم قابلون للهداية من الضلال ،مستعدون لإدراك القرآن سماعا وفهما وتأثرا : « قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا :إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا » . . وأنهم قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان والكفر فيهم :« وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا .وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا، وأما القاسطون ، فكانوا لجهنم حطبا » . . وأنهم لاينفعون الإنس حين يلوذون بهم بل يرهقونهم : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » . . وأنهم لايعلمون الغيب ، ولم‌تعد لهم صلة بالسماء : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له‌شهابا رصدا ، وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » . . وأنهم لاصهر بينهم وبين الله ــ سبحانه وتعالى ــ ولانسب : « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » . . وأن الجن لاقوة لهم مع قوة الله‌ولاحيلة : « وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا » . . .

وهذا الذى ذكر فى هذه السورة عن الجن بالإضافة إلى ماجاء فى القرآن من صفات أخرى كتسخير طائفة من الشياطين لسليمان ـ وهم من الجن ـ وأنهم لم يعلموا بموته إلا بعد فترة ، فدل هذا على أنهم لايعلمون الغيب : « فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلادابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين (١) » . .

ومثل قوله تعالى عن خصيصة من خصائص إبليس وقبيله ـ وهو من الجن ـ غير أنه تمحض للشر والفساد والإغراء : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم (٢) » . . وما يدل عليه من أن كيان الجن غير مرئى للبشر ، فى حين أن كيان الإنس مرئى للجن .

هذا بالإضافة إلى ماقرره فى سورة الرحمان عن المادة التى منها كيان الجن والمادة التى منها كيان الإنسان فى قوله : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار » . . يعطى صورة عن ذلك الخلق المغيب ، تثبت وجوده ، وتحدد الكثير من خصائصه ؛ وفى الوقت ذاته تكشف الأوهام والأساطير ، العالقة بالأذهان عن ذلك الخلق ، وتدع تصور المسلم عنه واضحا دقيقا متحررا من الوهم والخرافة ، ومن التعسف فى الإنكار الجامح كذلك !

وقد تكفلت هذه السورة بتصحيح ما كان مشركو العرب وغيرهم يظنونه عن قدرة الجن ودورهم فى هذا الكون . أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقا ، فلا أدرى علام يبنون هذا الإنكار ، بصيغة الجزم والقطع ، والسخرية من الاعتقاد بوجوده ، وتسميته خرافة !

ألأنهم عرفوا كل مافى هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ؟ ! إن أحدا من العلماء لايزعم هذا حتى اليوم . وإن فى هذه الأرض وحدها من الخلائق الحية لكثيراً مما يكشف وجوده يوما بعد يوم ، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء فى الأرض وقفت أو ستقف فى يوم من الأيام !

ألأنهم عرفوا كل القوى المكنونة فى هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟ ! إن أحدا لايدعى هذه الدعوى . فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم ؛ وهى كانت مجهولة بالأمس ،

(١) سورة سبأ . آية ١٤
(٢) سورة الأعراف آية ٢٧

والعلماء جادون فى التعرف إلى القوى الكونية ، وهم يعلنون فى تواضع قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها ، أنهم يقفون على حافة المجهول فى هذا الكون ، وأنهم لم يكادوا يبدأون بعد !

ألأنهم رأوا كل القوى التى استخدموها ، فلم يروا الجن من بينها ؟ ! ولا هذه . فإنهم يتحدثون عن الكهرب بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة . ولكن أحدا منهم لم ير الكهرب قط . وليس فى معاملهم من الأجهزة ما يفرزون به كهربا من هذه الكهارب التى يتحدثون عنها !

ففيم إذن هذا الجزم بنفى وجود الجن ؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لاتسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشىء ؟ ألأن هذا الخلق المسمى الجن تعلقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة ؟ إن طريقنا فى هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم، لاالتبجح بنفى وجود هذا الخلق من الأساس، بلا حجة ولا دليل ! ومثل هذا الغيب ينبغى تلقى نبئه من المصدر الوحيد الموثوق بصحته ، وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه . فما يقوله هو كلمة الفصل فى مثل هذا الموضوع .

* * *

والسورة التى بين أيدينا ــ بالإضافة إلى ماسبق ــ تساهم مساهمة كبيرة فى إنشاء التصور الإسلامى عن حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، ثم عن هذا الكون وخلائقه ، والصلة بين هذه الخلائق المنوعة .

وفى مقالة الجن مايشهد بوحدانية الله ، ونفى الصاحبة والولد، وإثبات الجزاء فى الآخرة ؛ وأن أحدا من خلق الله لايعجزه فى الأرض ولا يفلت من يديه ويفوته، فلا يلاقى جزاءه العادل. وتتكرر بعض هذه الحقائق فيما يوجه للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الخطاب : « قل : إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا . قل : إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا » . . وذلك بعد شهادة الجن بهذه الحقيقة شهادة كاملة صريحة .

كما أن تلك الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده ،وأن العبودية هى أسمى درجة يرتفع إليها البشر : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » . . ويؤكد السياق هذه الحقيقة فيما يوجه للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من خطاب : « قل : إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا » .

والغيب موكول لله وحده ؛ لاتعرفه الجن : « وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم

أراد بهم ربهم رشدا » . . ولاتعرفه الرسل إلا مايطلعهم الله عليه منه لحكمة يعلمها : « قل : إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . . . . » . .

أما العباد والعبيد فى هـذا الكون ، فقد علمتنا السورة أن بين بعضها والبعض الآخر مشاركات ومنافذ ،ولو اختلف تكوينها ، كالمشاركات التى بين الجن والإنس ،مما حكته السورة وحكاه القرآن فى مواضع أخرى . فالإنسان ليس بمعزل ــ حتى فى هذه الأرض ــ عن الخلائق الأخرى . وبينه وبينها اتصال وتفاعل فى صورة من الصور . وهذه العزلة التى يحسها الإنسان بجنسه ــ بله العزلة الفردية أو القبلية أو القومية ــ لاوجود لها فى طبيعة الكون ولا فى واقعه . وأحرى بهذا التصور أن يفسح فى شعور الإنسان بالكون وما يعمره من أرواح وقوى وأسرار . قد يجهلها الإنسان ، ولكنها موجودة بالفعل من حوله ، فهو ليس الساكن الوحيد لهذا الكون كما يعن له أحيانا أن يشعر !

ثم إن هناك ارتباطا بين استقامة الخلائق على الطريقة ، وتحركات هذا الكون ونتائجها ، وقدر الله فى العباد : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه .ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا » . . وهذه الحقيقة تؤلف جانبا من التصور الإسلامى للارتباطات بين الإنسان والكون وقدر الله .

وهكذا تمتد إيحاءات السورة إلى مساحات ومسافات وأبعاد وآماد واسعة بعيـدة ، وهى سورة لاتتجاوز الثمانى والعشرين آية ، نزلت فى حادثة معينة ومناسبة خاصة . .

* * *

فأما هذا الحادث الذى أشارت إليه السورة .حادث استماع نفر من الجن للقرآن. فتختلف بشأنه الروايات .

قال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه : « دلائل النبوة » : أخبرنا أبو الحسن على ابن أحمد ابن عبدان ، أخبرنا أحمد ابن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضى ، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : « ماقرأ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على الجن ولا رآهم .انطلق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، أرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا :

حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا :ماحال بينكم وبين خبر السماء إلاشيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ماهذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ماهذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو بنخلةعامدا إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا إليه ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم قالوا : «ياقومنا .. إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا بهولن نشرك بربناأحدا » . . وأنزل الله على نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « قل: أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » .. وإنما أوحى إليه قول الجن (ورواه البخارى عن مسدد بنحو هذا ، وأخرجه مسلم عن شيبان ابن فروخ عن أبى عوانة بهذا النص) .

فهذه رواية . وهناك رواية أخرى . . قال مسلم فى صحيحه : حدثنا محمد ابن المثنى حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود وهو ابن أبى هند ، عن عامر ، قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليلة الجن ؟ قال فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب، فقيل : استطير ؟ اغتيل ؟ قال : فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو ، جاء من قبل حراء . قال : فقلنا : يارسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : « أتانى داعى الجن، فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم » وسألوه الزاد فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر مايكون لحما ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم . قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم » . .

وهناك رواية أخرى عن ابن مسعود أنه كان تلك الليلة مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولكن إسناد الرواية الأولى أوثق . فنضرب عن هذه وأمثالها . . ومن الروايتين الواردتين فى الصحيحين يتبين أن ابن عباس يقول : إن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يعرف بحضور النفر من الجن ، وأن ابن مسعود يقول : إنهم استدعوه . ويوفق البيهقى بين الروايتين بأنهما حادثان لاحادث واحد .

وهناك رواية ثالثة لابن إسحاق قال :

« ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الأذى مالم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب ، فخرج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ماجاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده .

«قال ابن إسحاق: فحدثنى يزيد ابن زياد، عن محمد ابن كعب القرظى قال :لما انتهى رسول الله ــصلى الله عليه وسلمـ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة : ياليل ابن عمر ابن عمير ، ومسعود ابن عمرو ابن عمير ، وحبيب ابن عمرو ابن عمير . . . وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح . فجلس إليهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة (أى يمزقها) إن كان الله أرسلك! وقال الآخر :أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟وقال الثالث :والله لا أكلك أبدا لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ماينبغى لى أن أكلك . فقام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف . وقد قال لهم ــ فيما ذكر لى ــ : « إذ فعلتم مافعلتم فا كتموا عنى » . وكره رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يبلغ قومه عنه ، فيذئرهم (أى يحرشهم) ذلك عليه !

«فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط (أى بستان) لعتبة ابن ربيعة وشيبة ابن ربيعة ــ وهما فيه ــ ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلة من عنب (أى طاقة من قضبان الكرم)، فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان مالقى من سفهاء أهل الطائف . . . فلما اطمأن رسول الله ــصلى الله عليه وسلم ــ قال ــ فيما ذكر لى ــ :« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ،وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ،لك العتبى حتى ترضى ،ولا حول ولا قوة إلا بك » . .

«قال : فلمارآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة ومالقي تحركت له رحمهما ،فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له : عداس . فقال له : خذ قطفا من هذا العنب ، فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأ كل منه . ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه يده قال : « بسم الله »ثم أ كل .فنظر عداس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلاد .فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « ومن أهل أى البلاد أنت ياعداس؟ وما دينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى . فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى ؟» فقال عداس : وما يدريك مايونس ابن متى ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ذاك أخى .كان نبيا وأنا نبى » فأ كب عداس على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبل رأسه ويديه وقدميه .قال :يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك ياعداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : ياسيدى مافى الأرض شىء خير من هذا . لقد أخبرنى بأمر مايعلمه إلا نبى . قالا له : ويحك ياعداس ! لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه !

«قال : ثم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انصرف من الطائف راجعا إلى مكة، حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى . فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ،وهم ـ فيما ذكر لى ـ سبعة نفر من جن أهل نصيبين ،فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ماسمعوا . فقص الله خبرهم عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الله عز وجل : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن » إلى قوله :« ويجركم من عذاب أليم » . وقال تبارك وتعالى :« قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » إلى آخر القصة من خبرهم فى هذه السورة » .

وقد علق ابن كثير فى تفسيره على رواية ابن إسحاق هذه فقال : « هذا صحيح . ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ المذكور . وخروجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الطائف كان بعد موت عمه . وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن اسحاق وغيره . والله أعلم » .

وإذا صحت رواية ابن إسحاق عن أن الحادث وقع عقب عودة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الطائف ، مكسور الخاطر من التصرف اللئيم العنيد الذى واجهه به كبراء ثقيف ، وبعد ذلك الدعاء الكسير الودود لربه ومولاه ، فإنه ليكون عجيبا حقا من هذا الجانب . أن يصرف الله إليه ذلك النفر من الجن ، وأن يبلغه مافعلوا وما قالوا لقومهم . وفيه من الدلالات اللطيفة الموحية مافيه . .

وأيا كان زمان هذا الحادث وملابساته فهو أمر ولا شك عظيم . عظيم فى دلالاته وفيما انطوى عليه . وفيما أعقبه من مقالة الجن عن هذا القرآن وعن هذا الدين . . فلنمض مع هذا كله كما يعرضه القرآن الكريم .

***

« قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » .

والنفر مابين الثلاثة والتسعة كالرهط . وقيل كانوا سبعة .

وهذا الافتتاح يدل على أن معرفة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمر استماع الجن له ، وما كان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه .. كانت بوحى من الله سبحانه إليه ، وإخبارا عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن الله أطلعه عليه . وقد تكون هذه هى المرة الأولى ، ثم كانت هناك مرة أو مرات أخرى قرأ النبى فيها على الجن عن علم وقصد . ويشهد بهذا ما جاء بشأن قراءته ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة الرحمان « أخرجه الترمذى بإسناده ـ عن جابر رضى الله عنه قال : « خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمان إلى آخرها ، فسكتوا . فقال : « لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردودا منكم . كنت كلما أتيت على قوله تعالى : «فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » قالوا : لابشىء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » . . وهذه الرواية تؤيد رواية ابن مسعود ـ رضى الله عنه التى سبقت الإشارة إليها فى المقدمة .

ولا بد أن هذه المرة التى تحكيها هذه السورة هى التى تحكيها آيات الأحقاف : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن .فلما حضروه قالوا: أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين » . . .

فإن هذه الآيات ـ كالسورة ـ تنبىء عن وهلة الفاجأة بهذا القرآن للجن ؛ مفاجأة أطارت تماسكهم ، وزلزلت قلوبهم ، وهزت مشاعرهم ، وأطلقت فى كيانهم دفعة عنيفة من التأثر امتلأ بها كيانهم كله وفاض ، فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بمالا تملك له دفعا ، ولا تملك عليه صبرا ، قبل أن تفيضه على الآخرين فى هذا الأسلوب المتدفق ، النابض بالحرارة والانفعال ، وبالجد والاحتفال فى نفس الأوان ، وهى حالة من يفاجأ أول مرة بدفعة قوية ترج كيانه ، وتخلخل تماسكه ، وتدفعه دفعا إلى نقل مايحسه إلى نفوس الآخرين فى حماسة واندفاع ، وفى جد كذلك واحتفال !

« إنا سمعنا قرآنا عجبا » . . .

فأول مابدهم منه أنه « عجب » غير مألوف ،وأنه يثير الدهش فى القلوب ،وهذه صفة القرآن عند من يتلقاه بحس واع وقلب مفتوح ، ومشاعر مرهفة ، وذوق ذواق .. عجب ! ذو سلطان متسلط ، وذو جاذبية غلابة ، وذو إيقاع يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب . . عجب ! فملا يدل على أن أولئك النفر من الجن كانوا حقيقة يتذوقون !

« يهدى إلى الرشد » . .

وهذه هى الصفة الثانية البارزة كذلك فى هذا القرآن ،والتى أحسها النفر من الجن ،حين وجدوا حقيقتها فى قلوبهم . . وكلمة الرشد فى ذاتها ذات دلالة واسعة المدى . فهو يهدى إلى الهدى والحق والصواب . ولكن كلمة الرشد تلقى ظلا آخر وراء هذا كله . ظل النضوج والاستواء والمعرفة الرشيدة للهدى والحق والصواب . ظل الإدراك الذاتى البصير لهذه الحقائق والمقومات ، فهو ينشىء حالة ذاتية فى النفس تهتدى بها إلى الخير والصواب .

والقرآن يهدى إلى الرشد بما ينشئه فى القلب من تفتح وحساسية ، وإدراك ومعرفة ،

واتصال بمصدر النور والهدى ، واتساق مع النواميس الإلهية الكبرى . كما يهدى إلى الرشد بمنهجه التنظيمى للحياة وتصريفها . هذا المنهج الذى لم تبلغ البشرية فى تاريخها كله ، فى ظل حضارة من الحضارات ، أو نظام من الأنظمة ، ما بلغته فى ظله أفرادا وجماعات ، قلوبا ومجتمعات، أخلاقا فردية ومعاملات اجتماعية . . على السواء .

« فآمنا به » . .

وهى الاستجابة الطبيعية المستقيمة لسماع القرآن ، وإدراك طبيعته ، والتأثر بحقيقته .. يعرضها الوحى على المشركين الذين كانوا يسمعون هذا القرآن ثم لا يؤمنون . وفى الوقت ذاته ينسبونه إلى الجن ، فيقولون : كاهن أو شاعر أو مجنون . . وكلها صفات للجن فيها تأثير . وهؤلاء هم الجن مبهورين بالقرآن مسحورين متأثرين أشد التأثر ، منفعلين أشد الانفعال ، لا يملكون أنفسهم من الهزة التى ترج كيانهم رجا .. ثم يعرفون الحق ، فيستجيبون له مذعنين معلنين هذا الإذعان : « فآمنا به » غير منكرين لما مس نفوسهم منه ولا معاندين ، كما كان المشركون يفعلون !

« ولن نشرك بربنا أحدا » ..

فهو الإيمان الخالص الصريح الصحيح . غير مشوب بشرك ، ولا ملتبس بوهم ، ولا ممتزج بخرافة، الإيمان الذى ينبث من إدراك حقيقة القرآن ، والحقيقة التى يدعو إليها القرآن ، حقيقة التوحيد لله بلا شريك .

« وأنه تعالى جد ربنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

والجد : الحظ والنصيب . وهو القدر والمقام . وهو العظمة والسلطان . . وكلها إشعاعات من اللفظ تناسب المقام . والمعنى الإجمالى منها فى الآية هو التعبير عن الشعور باستعلاء الله — سبحانه — وبعظمته وجلاله عن أن يتخذ صاحبة — أى زوجة — وولدا بنين أو بنات !

وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله ، جاءته من صهر مع الجن ! فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة الأسطورية فى تسبيح لله وتنزيه ، واستنكاف من هذا التصور أن يكون! وكانت الجن حرية أن تفخر بهذا الصهر الخرافى الأسطورى لو كان يشبه أن يكون ! فهى قذيفة ضخمة تطلق على ذلك الزعم الواهى فى تصورات المشركين ! وكل تصور يشبه هذه التصورات ، ممن زعموا أن لله ولدا سبحانه فى أية صورة وفى أى تصوير !

« وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا » .

وهذه مراجعة من الجن لما كانوا يسمعون من سفهائهم من الشرك بالله ، وادعاء الصاحبة والولد والشريك، بعد ماتبين لهم من سماع القرآن أنه لم يكن حقا ولا صوابا ، وأن قائليه إذن سفهاء فيهم خرق وجهل ؛وهم يعللون تصديقهم لهؤلاء السفهاء من قبل بأنهم كانوا لايتصورون أن أحدا يمكن أن يكذب على الله من الإنس أو الجن . فهم يستعظمون ويستهولون أن يجرؤ أحد على الكذب على الله . فلما قال لهم سفهاؤهم :إن لله صاحبة وولدا ،وإن له شريكا صدقوهم ، لأنهم لم يتصوروا أنهم يكذبون على الله أبدا .. وهذا الشعور من هؤلاء النفر بنكارة الكذب على الله ، هو الذى أهلهم للإيمان . فهو دلالة على أن قلوبهم نظيفة مستقيمة ؛ إنما جاءها الضلال من الغرارة والبراءة ! فلما مسها الحق انتفضت ، وأدركت ، وتذوقت وعرفت . وكان منهم هذا الهتاف المدوى : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » . .

وهذه الانتفاضة من مس الحق ، جديرة بأن تنبه قلوبا كثيرة مخدوعة فى كبراء قريش ، وزعمهم أن لله شركاء أو صاحبة وولدا . وأن تثير فى هـذه القلوب الحذر واليقظة ، والبحث عن الحقيقة فيما يقوله محمـد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يقوله كبراء قريش ، وأن تزلزل الثقة العمياء فى مقالات السفهاء من الكبراء ! وقد كان هذا كله مقصودا بذكر هذه الحقيقة . وكان جولة من المعركة الطويلة بين القرآن وبين قريش العصية المعاندة ؛ وحلقة من حلقات العلاج البطىء لعقابيل الجاهلية وتصوراتها فى تلك القلوب . التى كان الكثير منها غرا بريئا، ولكنه مضلل مقود بالوهم والخرافة وأضاليل المضللين من القادة الجاهليين ! .

« وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » . .

وهذه إشارة من الجن إلى ما كان متعارفا فى الجاهلية ـ وما يزال متعارفا إلى اليوم فى بيئات كثيرة ـ من أن للجن سلطانا على الأرض وعلى الناس ،وأن لهم قدرة على النفع والضر ، وأنهم محكمون فى مناطق من الأرض أو البحر أو الجو . . إلى آخر هذه التصورات . مما كان يقتضى القوم إذا باتوا فى فلاة أو مكان موحش ،أن يستعيذوا بسيد الوادى من سفهاء قومه ،ثم يبيتون بعد ذلك آمنين !

والشيطان مسلط على قلوب بنى آدم ـ إلا من اعتصم بالله فهو فى نجوة منه ـ وأما من يركن إليه فهو لاينفعه . فهو له عدو . إنما يرهقه ويؤذيه . . وهؤلاء النفر من الجن يحكون ما كان يحدث : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » . . ولعل هذا الرهق هو الضلال والقلق والحيرة التى تنوش قلوب من يركنون إلى عدوهم ، ولا يعتصمون بالله منه ويستعيذون ! كما هم مأمورون منذ أبيهم آدم وما كان بينه وبين إبليس من العداء القديم !

والقلب البشرى حين يلجأ إلى غير الله ، طمعا فى نفع ، أو دفعا لضر ، لا يناله إلا القلق والحيرة ، وقلة الاستقرار والطمأنينة ... وهـذا هو الرهق فى أسوأ صوره . . الرهق الذى لايشعر معه القلب بأمن ولاراحة !

إن كل شىء ــ سوى الله ــ وكل أحد ، متقلب غير ثابت ، ذاهب غير دائم ، فإذا تعلق به قلب بقى يتأرجح ويتقلب ويتوقع ويتوجس ؛ وعاد يغير اتجاهه كلما ذهب هـذا الذى عقد به رجاءه . والله وحده هو الباقى الذى لايزول . الحى الذى لايموت . الدائم الذى لايتغير . فمن اتجه إليه اتجه إلى المستقر الثابت الذى لايزول ولايحول :

« وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » . .

يتحدثون إلى قومهم ، عن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يعوذون برجال من الجن ، يقولون : إنهم كانوا يظنون ــ كما أنكم تظنون ــ أن الله لن يبعث رسولا . ولكن هاهو ذا قد بعث رسولا ، بهذا القرآن الذى يهدى إلى الرشد . . أوأنهم ظنوا أنه لن يكون هناك بعث ولاحساب ــ كما ظننتم ــ فلم يعملوا للآخرة شيئا ، وكذبوا ماوعدهم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أمرها ، لأنهم كانوا لايعتقدون من قبل فيها .

وكلا الظنين لاينطبق على الحقيقة ، وفيه جهل وقلة إدراك لحكمة الله فى خلق البشر . فقد خلقهم باستعداد مزدوج للخير والشر والهدى والضلال (كما نعرف من هذه السورة أن للجن هذه الطبيعة المزدوجة كذلك إلا من تمحض منهم للشر كإبليس ، وطرد من رحمة الله بمعصيته الفاجرة ، وانتهى إلى الشر الخالص بلا ازدواج) ومن ثم اقتضت رحمة الله أن يعين أولئك البشر بالرسل ، يستجيشون فى نفوسهم عنصر الخير ، ويستنقذون مافى فطرتهم من استعداد للهدى . فلامجال للاعتقاد بأنه لن يبعث إليهم إحدا .

هـذا إذا كان المعنى هو بعث الرسل . فأما بعث الآخرة فهو ضرورة كذلك لهذه النشأة التى لاتستكمل حسابها فى الحياة الدنيا ، لحكمة أرادها الله ، وتتعلق بتنسيق للوجود يعلمه ولا نعلمه ؛ فجعل البعث فى الآخرة لتستوفى الخلائق حسابها ، وتنتهى إلى ماتؤهلها له سيرتها الأولى فى الحياة الدنيا . فلا مجال للظن بأنه لن يبعث أحدا من الناس . فهذا الظن مخالف للاعتقاد فى حكمة الله وكماله . سبحانه وتعالى ..

وهؤلاء النفر من الجن يصححون لقومهم ظنهم ، والقرآن فى حكايته عنهم يصحح للمشركين أوهامهم .

* * *

ويمضى الجن فى حكاية مالقوه وماعرفوه من شأن هذه الرسالة فى جنبات الكون ، وفى أرجاء الوجود ، وفى أحوال السماء والأرض ، لينفضوا أيديهم من كل محاولة لا تتفق مع إرادة الله بهذه الرسالة ، ومن كل ادعاء بمعرفة الغيب ، ومن كل قدرة على شىء من هذا الأمر :

« وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ؟ » . .

وهـذه الوقائع التى حكاها القرآن عن الجن من قولهم ، توحى بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة ــ ربما فى الفترة بينها وبين الرسالة التى قبلها وهى رسالة عيسى عليه السلام ــ كانوا يحاولون الاتصال بالملإ الأعلى ، واستراق شىء مما يدور فيه ، بين الملائكة، عن شؤون الخلائق فى الأرض ، مما يكلفون قضاءه تنفيذا لمشيئة الله وقدره . ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين ، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس ! على أيدى هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل ، ويروجونه بين جماهير الناس فى الفترة بين الرسالتين ، وخلو الأرض من رسول . . أما كيفية هذا وصورته فلم يقل لنا عنها شيئا ، ولاضرورة لتقصيها. إنما هذه هى جملة هذه الحقيقة وفحواها .

وهذا النفر من الجن يقول : إن استراق السمع لم يعد ممكنا ، وإنهم حين حاولوه الآن ــ وهو مايعبرون عنه بلمس السماء ــ وجدوا الطريق إليه محروسا بحرس شديد ، يرجمهم بالشهب ، فتنقض عليهم وتقتل من توجه إليه منهم . ويعلنون أنهم لايدرون شيئا عن الغيب المقدر

للبشر : « وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » .. فهذا الغيب موكول لعلم الله لايعلمه سواه . فأما نحن فلا نعلم ماذا قدر الله لعباده فى الأرض : قدر أن ينزل بهم الشر . فهم متروكون للضلال . أم قدر لهم الرشد — وهو الهداية — وقد جعلوها مقابلة للشر . فهى الخير ، وعاقبتها هى الخير.

وإذا كان المصدر الذى يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب ، يقرر أنه هو لايدرى عن ذلك شيئا ، فقد انقطع كل قول ، وبطل كل زعم ، وانتهى أمر الكهانة والعرافة. وتمحض الغيب لله ، لا يجترىء أحد على القول بمعرفته ، ولا على التنبؤ به . وأعلن القرآن تحرير العقل البشرى من كل وهم وكل زعم من هذا القبيل ! وأعلن رشد البشرية منذ ذلك اليوم وتحررها من الخرافات والأساطير !

أما أين يقف ذلك الحرس ؟ ومن هو ؟ وكيف يرجم الشياطين بالشهب ؟ فهذا كله مما لم يقل لنا عنه القرآن ولا الأثر شيئا ، وليس لنا مصدر سواهما نستقى منه عن هذا الغيب شيئا ؛ ولو علم الله أن فى تفصيله خيرا لنا لفعل . وإذ لم يفعل فمحاولتنا نحن فى هذا الاتجاه عبث ؛ لايضيف إلى حياتنا ولا إلى معرفتنا الثمرة شيئا !

ولا مجال كذلك للاعتراض أو الجدل حول الشهب ، وأنها تسير وفق نظام كونى ، قبل البعثة وبعدها ، ووفق ناموس يحاول علماء الفلك تفسيره ، بنظريات تخطىء وتصيب . وحتى على فرض صحة هذه النظريات فإن هذا لايدخل فى موضوعنا ، ولا يمنع أن ترجم الشياطين بهذه الشهب عند انطلاقها. وأن تنطلق هذه الشهب رجوما وغير رجوم وفق مشيئة الله الذى يجرى عليها القانون !

فأما الذين يرون فى هذا كله مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر من الالتباس بأى باطل ؛ وأنه لايجوز أن يؤخذ على ظاهره . . فسبب هذا عندهم أنهم يجيئون إلى القرآن بتصورات مقررة سابقة فى أذهانهم ، أخذوها من مصادر أخرى غير القرآن . ثم يحاولون أن يفسروا القرآن وفق تلك التصورات السابقة المقررة فى أذهانهم من قبل . . ومن ثم يرون الملائكة تمثيلا لقوة الخير والطاعة . والشياطين تمثيلا لقوة الشر والمعصية . والرجوم تمثيلا للحفظ والصيانة . . . الخ لأن فى مقرراتهم السابقة — قبل أن يواجهوا القرآن — أن هذه المسميات : الملائكة والشياطين أو الجن ، لايمكن أن يكون لها وجود مجسم على هذا النحو ، وأن تكون لها هذه التحركات الحسية ، والتأثيرات الواقعية ! ! !

من أين جاءوا بهذا ؟ من أين جاءوا بهذه المقررات التى يحا كمون إليها نصوص القرآن والحـديث ؟

إن الطريق الأمثل فى فهم القرآن وتفسيره ، وفى التصور الإسلامى وتـكوينه . . أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق ، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة ، وأن يبنى مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هـذا الوجود . ومن ثم لايحا كم القرآن والحـديث لغير القرآن . ولا ينفى شيئا يثبته القرآن ولا يؤوله ! ولا يثبت شيئا ينفيه القرآن أو يبطله .وما عدا المثبت والمنفى فى القرآن ،فله أن يقول فيه مايهديه إليه عقله وتجربته . .

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن . . . وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة فى عقولهم ، وتصورات سابقة فى أذهانهم لما ينبغى أن تـكون عليه حقائق الوجود [1] . .

فأما الذين لايؤمنون بهذا القرآن ، ويعتسفون نفى هذه التصورات لمجرد أن العلم لم يصل إلى شىء منها ، فهم مضحكون حقا ! فالعلم لايعلم أسرار الموجودات الظاهرة بين يديه ، والتى يستخدمها فى تجاربه . وهذا لاينفى وجودها طبعا ! فضلا على أن العلماء الحقيقيين أخذت كثرة منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين ، أوعلى الأقل لاينـكرون مالايعلمون ! لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم — عن طريقة العلم ذاته — أمام مجاهيل فيما بين أيديهم مما كانوا يحسبون أنهم فرغوا من الإحاطة بعلمه ! فتواضعوا تواضعا علميا نبيلا ليست عليه سمة الادعاء ، ولاطابع التطاول على المجهول ، كما يتطاول مدعو العلم ومدعو التفـكير العلمى ، ممن ينكرون حقائق الديانات ، وحقائق المجهول !

إن الـكون من حولنا حافل بالأسرار ، عامر بالأرواح ، حاشد بالقوى . وهذه السورة من القرآن — كغيرها — تمنحنا جوانب من الحقائق فى هـذا الوجود ، تعين على بناء تصور حقيقى صحيح للوجود ومافيه من قوى وأرواح وحيوات تعج من حولنا ، وتتفاعل مع حياتنا

(١) وما أبرىء نفسى أنى فيما سبق من مؤلفاتى وفى الأجزاء الأولى من هذه الظلال قد انسقت إلى شىء من هذا . . وأرجو أن أتداركه فى الطبعة التالية إذا وفق الله .. وما أقرره هنا هو ما أعتقده الحق بهداية من الله .

وذواتنا . وهذا التصور هو الذى يميز المسلم ويقف به وسطا بين الوهم والخرافة ، وبين الادعاء والتطاول . ومصدره هو القرآن والسنة . وإليهما يحاكم المسلم كل تصور آخر وكل قول وكل تفسير . .

وإن هنالك مجالا للعقل البشرى معينا فى ارتياد آفاق المجهول ؛ والإسلام يدفعه إلى هذا دفعا . . ولكن وراء هذا المجال المعين مالاقدرة لهذا العقل على ارتياده ، لأنه لاحاجة به إلى ارتياده . ومالا حاجة له به فى خلافة الأرض فلا مجال له إليه ،ولا حكمة فى إعانته عليه . لأنه ليس من شأنه ، ولا داخلا فى حدود اختصاصه . والقدر الضرورى له منه ليعلم مركزه فى الكون بالقياس إلى ماحوله ومن حوله ، قد تكفل الله سبحانه ببيانه له ، لأنه أكبر من طاقته . وبالقدر الذى يدخل فى طاقته . ومنه هذا الغيب الخاص بالملائكة والشياطين والروح والمنشأ والمصير . . .

فأما الذين اهتدوا بهدى الله ، فقد وقفوا فى هذه الأمور عند القدر الذى كشفه الله لهم فى كتبه وعلى لسان رسله . وأفادوا منه الشعور بعظمة الخالق ، وحكمته فى الخلق ، والشعور بموقف الإنسان فى الأرض من هذه العوالم والأرواح . وشغلوا طاقاتهم العقلية فى الكشف والعلم المهيأ للعقل فى حدود هذه الأرض وما حولها من أجرام بالقدر المكن لهم . واستغلوا ماعلموه فى العمل والإنتاج وعمران هذه الأرض والقيام بالخلافة فيها ،على هدى من الله ،متجهين إليه ، مرتفعين إلى حيث يدعوهم للارتفاع .

وأما الذين لم يهتدوا بهدى الله فانقسموا فرقتين كبيرتين :

فرقة ظلت تجاهد بعقولها المحدودة لإدراك غير المحدود من ذاته تعالى ، والمعرفة الحقيقية المغيبة عن غير طريق الكتب المنزلة .وكان منهم فلاسفة حاولوا تفسير هذا الوجود وارتباطاته، فظلوا يتعثرون كالأطفال الذين يصعدون جبلا شاهقا لاغاية لقمته ، أو يحاولون حل لغز الوجود وهم لم يتقنوا بعد أبجدية الهجاء ! وكانت لهم تصورات مضحكة ــ وهم كبار فلاسفة ــ مضحكة حقا حين يقرنها الإنسان إلى التصور الواضح المستقيم الجميل الذى ينشئه القرآن . مضحكة بعثراتها. ومضحكة بمفارقاتها. ومضحكة بتخلخلها. ومضحكة بقزامتها بالقياس إلى عظمة الوجود الذى يفسرونه بها . . لا أستثنى من هذا فلاسفة الإغريق الكبار ، ولا فلاسفة المسلمين الذين

قلدوهم فى منهج التفكير . ولا فلاسفة العصر الحديث ! وذلك حين يقاس تصورهم إلى التصور الإسلامى للوجود (١)

فهذه فرقة . فأما الفرقة الأخرى ، فقد يئست من جدوى هذا الاتجاه فى المعرفة . فعدلت عنه إلى حصر نفسها وجهدها فى العلم التجريبى والتطبيق . ضاربة صفحا عن المجهول ، الذى ليس إليه من سبيل . وغير مهتدية فيه بهدى الله . لأنها لا تستطيع أن تدرك الله ! وهذه الفرقة كانت فى أوج غلوائها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكنها أخذت منذ مطلع هذا القرن تفيق من الغرور العلمى الجامح ، على هروب المادة من بين أيديها وتحولها إلى إشعاع « مجهول الكنه » ويكاد يكون مجهول القانون !

وبقى الإسلام ثابتا على صخرة اليقين . يمنح البشر من المجهول القدر الذى لهم فيه خير . ويوفر طاقتهم العقلية للعمل فى خلافة الأرض . ويهىء لعقولهم المجال الذى تعمل فيه فى أمن . ويهديهم للتى هى أقوم فى المجهول وغير المجهول !

***

بعد ذلك أخذ الجن يصفون حالهم وموقفهم من هدى الله ؛ بما نفهم منه أن لهم طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان فى الاستعداد للهدى والضلال . ويحدثنا هذا النفر عن عقيدتهم فى ربهم وقد آمنوا به . وعن ظنهم بعاقبة من يهتدى ومن يضل :

« وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ، كنا طرائق قددا . وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا . وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون : فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » . .

وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين ، مسلمين وقاسطين ، يفيد ازدواج طبيعة الجن ، واستعدادهم للخير والشر كالإنسان — إلا من تمحض للشر منهم وهو إبليس وقبيله — وهو تقرير ذو أهمية بالغة فى تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق . فأغلبنا حتى الدارسين الفاقهين — على اعتقاد أن الجن يمثلون الشر ، وقد خلصت طبيعتهم له . وأن الإنسان وحده بين

(١) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان . . بحث يرجو المؤلف أن يوفق إلى إخراجه بعون الله .

الخلائق هو ذو الطبيعة المزدوجة . وهـذا ناشيء من مقررات سابقة فى تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود كما أسلفنا . وقد آن أن نراجعها على مقررات القرآن الصحيحة !

وهـذا النفر من الجن يقول : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك » . . ويصف حالهم بصفة عامة : « كنا طرائق قددا » . . أى لـكل منا طريقته المنفصلة المقدودة المنقطعة عن طريقة الفريق الآخر .

ثم يبين النفر معتقدهم الخاص بعد إيمانهم :

« وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ، ولن نعجزه هربا » . .

فهم يعرفون قدرة الله عليهم فى الأرض ، ويعرفون عجزهم عن الهرب من سلطانه ـ سبحانه ـ والإفلات من قبضته ، والفـكاك من قدره . فلاهم يعجزون الله وهم فى الأرض ، ولاهم يعجزونه بالهرب منها . وهو ضعف العبد أمام الرب ، وضعف المخلوق أمام الخالق . والشعور بسلطان الله القاهر الغالب .

وهؤلاء الجن هم الذين يعـوذ بهم رجال من الإنس ! وهم الذين يستعين بهـم الإنس فى الحوائج ! وهم الذين جعل المشركون بين الله ـ سبحانه ـ وبينهم نسبا ! وهؤلاء هم يعترفون بعجزهم وقدرة الله . وضعفهم وقوة الله . وانـكسارهم وقهر الله . فيصححون ، لا لقومهم فحسب بل للمشركين كذلك ، حقيقة القوة الواحدة الغالبة على هذا الـكون ومن فيه .

ثم يصفون حالهم عند ماسمعوا الهـدى ، وقد قرروه من قبل ، ولـكنهم يـكررونه هنا بمناسبة الحديث عن فرقهم وطوائفهم تجاه الإيمان :

« وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به » . .

كما ينبغى لـكل من يسمع الهـدى . وهم سمعوا القرآن . ولـكنهم يسمونه هـدى كما هى حقيقته ونتيجته .

ثم يقررون ثقتهم فى ربهم ، وهى ثقة المؤمن فى مولاه :

« فمن يؤمن بربه فلايخاف بخسا ولارهقا » . .

وهى ثقة المطمئن إلى عدل الله ، وإلى قدرته ، ثم إلى طبيعة الإيمان وحقيقته . . فالله ـ سبحانه ـ عادل . ولن يبخس المؤمن حقه ، ولن يرهقه بما فوق طاقته . والله ـ سبحانه ـ قادر . فسيحمى عبده المؤمن من البخس وهو نقص الاستحقاق إطلاقا ، ومن الرهق وهو الجهد

والمشقة فوق الطاقة . ومن ذا الذى يملك أن يبخس المؤمن أو يرهقه وهو فى حماية الله ورعايته ؟ ولقد يقع للمؤمن حرمان من بعض أعراض هذه الحياة الدنيا ؟ ولكن هذا ليس هو البخس ، فالعوض عما يحرمه منها يمنع عنه البخس . وقد يصيبه الأذى من قوى الأرض ؛ لكن هذا ليس هو الرهق ، لأن ربه يدركه بطاقة تحتمل الألم وتفيد منه وتكبر به ! وصلته بربه تهوّن عليه المشقة فتمحضها لخيره فى الدنيا والآخرة .

المؤمن إذن فى أمان نفسى من البخس ومن الرهق : « فلا يخاف بخسا ولا رهقا » .. وهذا الأمان يولد الطمأنينة والراحة طوال فترة العافية ، فلا يعيش فى قلق وتوجس . حتى إذا كانت الضراء لم يهلع ولم يجزع ، ولم يخف ، ولم تغلق على نفسه المنافذ . إنما يعد الضراء ابتلاء من ربه يصبر له فيؤجر . ويرجو فرج الله منها فيؤجر . وهو فى الحالين لم يخف بخسا ولا رهقا . ولم يكابد بخسا ولا رهقا .

وصدق النفر المؤمن من الجن فى تصوير هذه الحقيقة المنيرة .

ثم يقررون تصورهم لحقيقة الهدى والضلال . والجزاء على الهدى والضلال :

« وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون. فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » ..

والقاسطون : الجائرون المجانبون للعدل والصلاح . وقد جعلهم هذا النفر من الجن فريقا يقابل المسلمين . وفى هذا إيماءة لطيفة بليغة المدلول . فالمسلم عادل مصلح ، يقابله القاسط : الجائر المفسد . .

« فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » . . والتعبير بلفظ « تحروا » يوحى بأن الاهتداء إلى الإسلام معناه الدقة فى طلب الرشد والاهتداء — ضد الغى والضلال — ومعناه تحرى الصواب واختياره عن معرفة وقصد بعد تبين ووضوح . وليس هو خبط عشواء ولا انسياقا بغير إدراك . ومعناه أنهم وصلوا فعلا إلى الصواب حين اختاروا الإسلام . . وهو معنى دقيق وجميل . .

« وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » أى تقرر أمرهم وانتهى إلى أن يكونوا حطبا لجهنم . تتلظى بهم وتزداد اشتعالا ، كما تتلظى النار بالحطب . .

ودل هذا على أن الجن يعذبون بالنار . ومفهومه أنهم كذلك ينعمون بالجنة . . هكذا يوحى النص القرآنى . وهو الذى نستمد منه تصورنا . فليس لقائل بعد هذا أن يقول

شيئا يستند فيه إلى تصور غير قرآنى ، عن طبيعة الجن وطبيعة النار أوطبيعة الجنة.. فسيكون ماقاله الله حقا بلا جدال !

وماينطبق على الجن مما ينوه لقومهم ، ينطبق على الإنس وقد قاله لهم الوحى بلسان نبيهم . .

* * *

وإلى هنا كان الوحى يحكى قول الجن بألفاظهم المباشرة عن أنفسهم ؛ ثم عدل عن هـذا النسق إلى تلخيص مقالة لهم عن فعل الله مع الذين يستقيمون على الطريقة إليه ، وذكرها بفحواها لا بألفاظها :

« وأن لواستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا » . .

يقول الله ـ سبحانه ـ إنه كان من مقالة الجن عنا : مافحواه أن الناس لواستقاموا على الطريقة ،أو أن القاسطين لواستقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفورا نغدقه عليهم ، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء .. « لنفتنهم فيه » . . ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون .

وهـذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قولهم فى هذه النقطة ، يزيد مدلولها توكيدا بنسبة الإخبارفيها والوعد إلى الله سبحانه . ومثل هذه اللفتات كثيرفى الأسلوب القرآنى ، لإحياء المعانى وتقويتها وزيادة الانتباه إليها .

وهذه اللفتة تحتوى جملة حقائق ، تدخل فى تكوين عقيدة المؤمن ، وتصوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها .

والحقيقة الأولى : هى الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه ؛ وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه . وما تزال الحياة تجرى على خطوات المـاء فى كل بقعة . ومازال الرخاء يتبع هـذه الخطوات المباركة حتى هـذا العصر الذى انتشرت فيه الصناعة ، ولم تعد الزراعة هى المصدر الوحيد للرزق والرخاء. ولـكن المـاء هو الماء فى أهميته العمرانية . .

وهـذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين فى الأرض حقيقة قائمة . وقدكان العرب فى جوف الصحراء يعيشون فى شظف ، حتى استقاموا على الطريقة ،

ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء ، وتتدفق فيهـا الأرزاق . ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلابا . وما يزالون في نـكد وشظف ، حتى يفيئوا إلى الطريقة ، فيتحقق فيهم وعد الله .

وإذا كانت هناك أمم لاتستقيم على طريقة الله ، ثم تنال الوفر والغنى ، فإنها تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها ، تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء . وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته (كما سبق بيانه في سورة نوح) .

والحقيقة الثانية التي تنبثق من نص هـذه الآية : هي أن الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة . ونبلوكم بالشر والخير فتنة . والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة ! على عكس مايلوح للنظرة العجلى . . فـكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتماسكون لها ، بحكم ما تثيره في النفس من تجمع ويقظة ومقاومة ؛ ومن ذكر لله والتجاء إليه واستعانة به ، حين تسقط الأسناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره . فأما الرخاء فينسى ويلهي ، ويرخي الأعضاء وينيم عناصر المقاومة في النفس ، ويهيء الفرصة للغرور بالنعمة والاستنامة للشيطان !

إن الابتلاء بالنعمة في حاجة ملحة إلى يقظة دائمة تعصم من الفتنة . . نعمة المال والرزق كثيرا ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشـكر ، مع السرف أو مع البخل ، وكلاهما آفة للنفس والحياة . . ونعمة القوة كثيرا ماتقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر مع الطغيان والجور ، والتطاول بالقوة على الحق وعلى الناس ، والتهجم على حرمات الله . . ونعمة الجمال كثيرا ماتقود إلى فتنة الخيلاء والتيه وتردى في مدارك الإثم والغواية . . ونعمة الذكاء كثيرا ماتقود إلى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين وبالقيم والموازين . . وما تـكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا من ذكر الله فعصمه الله . .

والحقيقة الثالثة أن الإعراض عن ذكر الله ، الذي قد تنتهي إليه فتنة الابتلاء بالرخاء ، مؤد إلى عذاب الله . والنص يذكر صفة للعذاب « يسلـكه عذابا صعدا » . . توحي بالمشقة مذ كان الذي يصعد في المرتفع يجد مشقة في التصعيد كلما تصعد . وقد درج القرآن على الرمز للمشقة بالتصعيد . فجاء في موضع : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن

يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء [١] » . وجاء فى موضع : « سأرهقه صعودا [٢] » . وهى حقيقة مادية معروفة . والتقابل واضح بين الفتنة بالرخاء وبين العذاب الشاق عند الجزاء !

* * *

والآية الثالثة فى السياق يجوز أن تكون حكاية لقول الجن ، ويجوز أن تكون من كلام الله ابتداء :

« وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » .

وهى فى الحالتين توحى بأن السجود — أو مواضع السجود وهى المساجد — لاتكون إلا لله، فهناك يكون التوحيد الخالص،ويتوارى كل ظل لكل أحد، ولكل قيمة ، ولكل اعتبار. ويتفرد الجو ويتمحض للعبودية الخالصة لله . ودعاء غير الله قد يكون بعبادة غيره ؛ وقد يكون بالالتجاء إلى سواه ؛ وقد يكون باستحضار القلب لأحد غير الله .

فإن كانت الآية من مقولات الجن فهى توكيد لما سبق من قولهم : « ولن نشرك بربنا أحدا » فى موضع خاص ، وهو موضع العبادة والسجود . وإن كانت من قول الله ابتداء ، فهى توجيه بمناسبة مقالة الجن وتوحيدهم لربهم ، يجىء فى موضعه على طريقة القرآن .

وكذلك الآية التالية :

« وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » ..

أى متجمعين متكتلين عليه ، حين قام يصلى ويدعو ربه . والصلاة معناها فى الأصل الدعاء .

فإذا كانت من مقولات الجن ،فهى حكاية منهم عن مشركى العرب ،الذين كانوا يتجمعون فئات حول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يصلى أو وهو يتلو القرآن كما قال فى « سورة المعارج » : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين ؟ » .. يتسمعون فى دهش ولا يستجيبون . أو وهم يتجمعون لإيقاع الأذى به ، ثم يعصمه الله منهم كما وقع ذلك مرارا . . ويكون قول الجن هذا لقومهم للتعجيب من أمر هؤلاء المشركين !

---

(١) سورة الأنعام . آية : ١٢٥
(٢) سورة المدثر . آية : ١٧

وإذا كانت من إخبار الله ابتداء ، فقد تكون حكاية عن حال هذا النفر من الجن ، حين سمعوا القرآن . . العجب . . فأخذوا ودهشوا ، وتكأكأوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعضهم لصق بعض ، كما تكون لبدة الصوف المنسوق شعرها ، بعضه لصق بعض ! . . ولعل هـذا هو الأقرب لمدلول الآية لاتساقه مع العجب والدهشة والارتياع والوهلة البادية فى مقالة الجن كلها ! والله أعلم ..

* * *

وعندما تنتهى حكاية مقالة الجن عن هذا القرآن ، وعن هذا الأمر ، الذى فاجأ نفوسهم، وهز مشاعرهم، وأطلعهم على انشغال السماء والأرض والملائكة والكواكب بهذا الأمر ؛ وعلى ما أحدثه من آثار فى نسق الكون كله ؛ وعلى الجد الذى يتضمنه ، والنواميس التى تصاحبه .

عند ما ينتهى هذا كله يتوجه الخطاب إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى إيقاعات جادة صارمة حاسمة ، بالتبليغ ، والتجرد من هذا الأمر كله بعد التبليغ ، والتجرد كذلك من كل دعوى فى الغيب أو فى حظوظ الناس ومقادرهم . . وذلك كله فى جو عليه مسحة من الحزن والشجى تناسب مافيه من جد ومن صرامة :

« قل : إنما أدعو ربى ولاأشرك به أحدا . قل : إنى لاأملك لكم ضرا ولارشدا . قل : إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا . إلابلاغا من الله ورسالاته .ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا . حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا . قل : إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا . عالم الغيب فلايظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول . فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا » . .

قل يامحمد للناس : « إنما أدعو ربى ولاأشرك به أحدا » . . وهذا الإعلان يجىء بعد إعلان الجن لقومهم : « ولن نشرك بربنا أحدا » . . فيكون له طعمه وله إيقاعه . فهى كلمة الإنس والجن ، يتعارفان عليها . فمن شذ عنها كالمشركين فهو يشذ عن العالمين .

* * *

« قل : إنى لاأملك لكم ضرا ولارشدا » . . يؤمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يتجرد ، ويؤمر أن ينفض يديه من كل ادعاء لشىء هو من خصائص الله الواحد الذى يعبده

ولا يشرك به أحدا . فهو وحده الذى يملك الضر ويملك الخير . ويجعل مقابل الضر الرشد، وهو الهداية ، كما جاء التعبير فى مقالة الجن من قبل : « وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » . . فيتطابق القولان فى اتجاهها وفى ألفاظهما تقريبا ، وهو تطابق مقصود فى القصة والتعقيب عليها ، كما يكثر هـذا فى الأسلوب القرآنى . .

وبهذا وذلك يتجرد الجن ـ وهو موضع الشبهة فى القدرة على النفع والضر ـ ويتجرد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتتفرد الذات الإلهية بهذا الأمر . ويستقيم التصور الإيمانى على هذا التجرد الكامل الصريح الواضح .

« قل : إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا . إلا بلاغا من الله ورسالاته . . . » . .

وهـذه هى القولة الرهيبة ، التى تملأ القلب بجدية هذا الأمر . . أمر الرسالة والدعوة . . والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤمر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة . . إنى لن يجيرنى من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملجأ أو حماية ، إلا أن أبلغ هـذا الأمر ، وأؤدى هـذه الأمانة ، فهذا هو الملجأ الوحيد ، وهذه هى الإجارة المأمونة . إن الأمر ليس أمرى ، وليس لى فيه شىء إلا التبليغ ، ولا مفر لى من هذا التبليغ . فأنا مطلوب به من الله ولن يجيرنى منه أحد ، ولن أجد من دونه ملجأ يعصمنى ، إلا أن أبلغ وأؤدى !

يا للرهبة ! ويا للروعة ! ويا للجد !

إنها ليست تطوعا يتقدم به صاحب الدعوة . إنما هو التكليف . التكليف الصارم الجازم ، الذى لا مفر من أدائه . فالله من ورائه !

وإنها ليست اللذة الذاتية فى حمل الهدى والخير للناس . إنما هو الأمر العلوى الذى لا يمكن التلفت عنه ولا التردد فيه !

وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد . . إنها تكليف وواجب . وراءه الهول، ووراءه الجد ، ووراءه الكبير المتعال !

« ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا . حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا » .

فهو التهديد الظاهر والملفوف لمن يبلغه هـذا الأمر ثم يعصى . بعد التلويح بالجد الصارم فى التـكليف بذلك البلاغ .

وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد ، ويقيسون قوتهم إلى قوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين القلائل معه ، فسيعلمون حين يرون مايوعدون ـ إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ـ « من أضعف ناصرا وأقل عددا » . . وأى الفريقين هو الضعيف المخذول القليل الهزيل !

ونعود إلى مقالة الجن فنجدهم يقولون : « وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا » فنجد التعقيب على القصة يتناسق معها . ونجد القصة تمهد للتعقيب فيجىء فى أوانه وموعده المطلوب !

* * *

ثم يؤمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتجرد وينفض يديه من أمر الغيب أيضا :

« قل : إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا » . .

إن الدعوة ليست من أمره ، وليس له فيها شىء ، إلا أن يبلغها قياما بالتـكليف ، والتجاء بنفسه إلى منطقة الأمان ـ الذى لايبلغه إلا أن يبلغ ويؤدى . وإن مايوعدونه على العصيان والتـكذيب هو كذلك من أمر الله ، وليس له فيه يد ، ولا يعلم له موعدا . فما يدرى أقريب هو أم بعيد يجعل له الله أمدا ممتدا . سواء عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة . فـكله غيب فى علم الله ؛ وليس للنبى من أمره شىء ، ولا حتى علم موعده متى يكون ! والله ـ سبحانه ـ هو المختص بالغيب دون العالمين :

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » . .

ويقف النبى ـ صلى الله عليـه وسلم ـ متجردا من كل صفة إلا صفة العبودية . فهو عبد الله . وهذا وصفه فى أعلى درجاته ومقاماته .. ويتجرد التصور الإسلامى من كل شبهة ومن كل غبش . والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤمر أن يبلغ فيبلغ : « قل: إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا » . .

* * *

هناك فقط استثناء واحد . . وهو مايأذن به الله من الغيب ، فيطلع عليه رسله ، فى حدود

ما يعاونهم على تبليغ دعوته إلى الناس . فما كان مايوحى به إليهم إلا غيبا من غيبه ، يكشفه لهم فى حينه ويكشفه لهم بقدر ، ويرعاهم وهم يبلغونه ، ويراقبهم كذلك . . ويؤمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يعلن هذا فى صورة جادة رهيبة :

« إلامن ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شىء عددا » . .

فالرسل الذين يرتضيهم الله لتبليغ دعوته ، يطلعهم على جانب من غيبه ، هو هذا الوحى : موضوعه ، وطريقته ، والملائكة الذين يحملونه ، ومصدره ، وحفظه فى اللوح المحفوظ ... إلى آخر ما يتعلق بموضوع رسالتهم مما كان فى ضمير الغيب لا يعلمه أحد منهم .

وفى الوقت ذاته يحيط هؤلاء الرسل بالأرصاد والحراس من الحفظة ، للحفظ وللرقابة . يحمونهم من وسوسة الشيطان ونزغه ، ومن وسوسة النفس وتمنيتها ، ومن الضعف البشرى فى أمر الرسالة ، ومن النسيان أو الانحراف . ومن سائر ما يعترض البشر من النقص والضعف . .

والتعبير الرهيب — « فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا » . . يصور الرقابة الدائمة الكاملة للرسول ، وهو يؤدى هذا الأمر العظيم . . « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » . . والله يعلم . ولكن المقصود هو أن يقع منهم البلاغ فيتعلق به علمه فى عالم الواقع .

« وأحاط بما لديهم » . . فما من شىء فى نفوسهم وفى حياتهم ومن حولهم ، إلا وهو فى قبضة العلم لا يند منه شىء . .

« وأحصى كل شىء عددا » .. لا يقتصر على ما لدى الرسل ؛ بل يحيط بكل شىء إحصاء وعدا ، وهو أدق الإحاطة والعلم !

وتصور هذا الحال . والرسول محوط بالحراس والأرصاد . وعلم الله على كل ما لديه . وكل ما حوله . وهو يتلقى التكليف جنديا لا يملك إلا أن يؤدى . ويمضى فى طريقه ليس متروكا لنفسه ، ولا متروكا لضعفه ، ولا متروكا لهواه ، ولا متروكا لما يحبه ويرضاه . إنما هو الجد الصارم والرقابة الدقيقة . وهو يعلم هذا ويستقيم فى طريقه لا يتلفت هنا أو هناك . فهو يعلم ماذا حوله من الحرس والرصد ، ويعلم ما هو مسلط عليه من علم وكشف !

إنه موقف يثير العطف على موقف الرسول ، كما يثير الرهبة حول هذا الشأن الخطير .

***

وبهذا الإيقاع الهائل الرهيب تختم السورة ، التى بدأت بالروعة والرجفة والانبهار بادية فى مقالة الجن الطويلة المفصلة ، الحافلة بآثار البهر والرجفة والارتياع !

وتقرر السورة التى لاتتجاوز الثمانى والعشرين آية ، هذا الحشد من الحقائق الأساسية التى تدخل فى تكوين عقيدة المسلم ، وفى إنشاء تصوره الواضح المتزن المستقيم ، الذى لايغلو ولا يفرط ، ولايغلق على نفسه نوافذ المعرفة ، ولا يجرى — مع هذا — خلف الأساطير والأوهام .

وصدق النفر الذى آمن حين سمع القرآن ، وهو يقول : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به » . .

سورة المزمّل مكيّة
وآياتها ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ، وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا .

« وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا .

« إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ـ إِنْ كَفَرْتُمْ ـ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا .

« إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا .

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ ، وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ،

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

يروى في سبب نزول هذه السورة أن قريشا اجتمعت في دار الندوة تدبر كيدها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللدعوة التي جاءهم بها فبلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاغتم له ؛ والتف بثيابه وتزمل ونام مهموما . فجاءه جبريل عليه السلام بشطر هذه السورة الأول «ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا . . . الخ » وتأخر شطر السورة الثاني من قوله تعالى : إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل . . . » إلى آخر السورة . تأخر عاما كاملا . حين قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطائفة من الذين معه ، حتى ورمت أقدامهم ، فنزل التخفيف في الشطر الثاني بعد اثني عشر شهرا .

وتروى رواية أخرى تتكرر بالنسبة لسورة المدثر كذلك ـ كما سيجيء في عرض سورة المدثر إن شاء الله .

وخلاصتها أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتحنث في غار حراء ـ قبل البعثة بثلاث سنوات ـ أي يتطهر ويتعبد ـ وكان تحنثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ شهرا من كل سنة ـ هو شهر رمضان ـ يذهب فيه إلى غار حراء على مبعدة نحو ميلين من مكة ، ومعه أهله قريبا منه[1]. فيقيم فيه هذا الشهر ، يطعم من جاءه من المساكين ، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون ، وفيما وراءها من قدرة مبدعة . . وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة ، وتصوراتها الواهية ، ولكن ليس بين يديه طريق واضح ، ولا منهج محدد ، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه .

وكان اختياره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذه العزلة طرفا من تدبير الله له ليعده لما ينتظره من الأمر العظيم . ففي هذه العزلة كان يخلو إلى نفسه ، ويخلص من زحمة الحياة وشواغلها الصغيرة ؛ ويفرغ لموحيات الكون ، ودلائل الإبداع ؛ وتسبح روحه مع روح الوجود ؛ وتتعانق مع هذا الجمال وهذا الكمال ؛ وتتعامل مع الحقيقة الكبرى وتمرن على التعامل معها في إدراك وفهم .

ولا بد لأى روح يراد لها أن تؤثر فى واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى . لابد لهـذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت ، وانقطاع عن شواغل الأرض ، وضجة الحياة ، وهموم الناس الصغيرة التى تشغل الحياة .

لابد من فترة للتأمل والتدبر والتعامل مع الـكون الـكبير وحقائقه الطليقة . فالاستغراق فىواقع الحياة يجعل النفس تألفهوتستنيم له، فلاتحاول تغييره .أما الانخلاع منه فترة ، والانعزال عنه ، والحياة فى طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير ، ومن الشواغل التافهة فهو الذى يؤهل الروح الـكبير لرؤية ماهو أ كبر ، ويدربه على الشعور بتـكامل ذاته بدون حاجة إلى عرف الناس ، والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع !

وهـكذا دبر الله لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يعده لحمل الأمانة الـكبرى ، وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ .. دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات . ينطلق فى هـذه العزلة شهرا من الزمان ، مع روح الوجود الطليقة ، ويتدبر ماوراء الوجود من غيب مكنون ، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله .

فلما أن أذن ، وشاء ـ سبحانه ـ أن يفيض من رحمته هذا الفيض علىأهل الأرض ، جاء جبريل عليه السلام إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى غار حراء . . وكان ماقصه رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ من أمره معه فيما رواه ابن إسحق عن وهب ابن كيسان ، عن عبيد ، قال :

« فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ (وفى الروايات : ماأنا بقارىء) قال : فغتنىبه (أى ضغطنى) حتى ظننت أنهالموت .ثم أرسلنى. فقال : اقرأ . قلت : ماأقرأ . قال : فغتنى حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ . قال : فغتنى حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ قال : ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ماصنع بى. فقال: « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأ كرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » . قال : فقرأتها . ثم انتهى فانصرف عنى . وهببت من نومى فـكأنما كتبت فى قلبى كتابا . قال : فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فرفعت رأسى إلى السماء أنظر . فإذا جبريل فى صورة

رجل ، صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه . فما أتقدم وما أتأخر . وجعلت أحول وجهى عنه فى آفاق السماء . قال : فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكة ،ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك . ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا إلى أهلى ، حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى فخذها مضيفا إليها (أى ملتصقا بها مائلا إليها) فقالت ياأبا القاسم أين كنت ؟فوالله لقد بعثت فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلىّ . ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت : « أبشر ياابن عم واثبت . فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » .

ثم فتر الوحى مدة عن النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى أن كان بالجبل مرة أخرى فنظر فإذا جبريل ، فأدركته منه رجفة ، حتى جثى وهوى إلى الأرض ، وانطلق إلى أهله يرجف ، يقول : « زملونى . دثرونى » . . ففعلوا . وظل يرتجف مما به من الروع . وإذا جبريل يناديه : « ياأيها المزمل » . . (وقيل : ياأيها المدثر) والله أعلم أيتهما كانت .

وسواء صحت الرواية الأولى عن سبب نزول شطر السورة . أو صحت هذه الرواية الثانية عن سبب نزول مطلعها ، فقد علم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه لم يعد هناك نوم! وأن هنالك تكليفا ثقيلا، وجهادا طويلا، وأنه الصحو والكد والجهد منذ ذلك النداءالذى يلاحقه ولايدعه ينام !

وقيل لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — « قم » . . فقام . وظل قائما بعدها أكثر من عشرين عاما ! لم يسترح . ولم يسكن . ولم يعش لنفسه ولا لأهله . قام وظل قائما على دعوة الله . يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولاينوء به . عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض . عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد فى ميادين شتى .

حمل عبءالكفاح والجهادفى ميدان الضمير البشرى الغارق فىأوهام الجاهلية وتصوراتها، المثقل بأثقال الأرض وجواذبها ، المكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها . . حتى إذا خلص هذا الضمير فى بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية بدأ معركة أخرى فى ميدان آخر . . بل معارك متلاحقة . . مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها وعلى المؤمنين بها ،الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية فى منبتها ، قبل أن تنمو وتمد جذورها فى التربة وفروعها فى

الفضاء ، وتظلل مساحات أخرى . . ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانت الروم تعدّ لهذه الأمة الجديدة وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية .

وفى أثناء هذا كله لم تسكن المعركة الأولى ــ معركة الضمير ــ قد انتهت. فهى معركة خالدة، الشيطان صاحبها ؛ وهو لا ينى لحظة عن مزاولة نشاطه فى أعماق الضمير الإنسانى . . ومحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ قائم على دعوة الله هناك . وعلى المعركة الدائبة فى ميادينها المتفرقة. فى شظف من العيش والدنيا مقبلة عليه . وفى جهد وكد والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة. وفى نصب دائم لا ينقطع . . وفى صبر جميل على هذا كله . وفى قيام الليل . وفى عبادة لربه ، وترتيل لقرآنه وتبتل إليه ، كما أمره أن يفعل وهو يناديه : « ياأيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا . إن لك فى النهار سبحا طويلا . واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا . واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا » .

وهكذا قام محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهكذا عاش فى المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاما. لا يلهيه شأن عن شأن فى خلال هذا الأمد. منذ أن سمع النداء العلوى الجليل وتلقى منه التكليف الرهيب . . جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء . .

* * *

وشطر السورة الأول يمضى على إيقاع موسيقى واحد . ويكاد يكون على روى واحد. هو اللام المطلقة الممدودة . وهو إيقاع رخى وقور جليل ؛ يتمشى مع جلال التكليف ، وجدية الأمر ، ومع الأهوال المتتابعة التى يعرضها السياق . . هول القول الثقيل الذى أسلفنا ، وهول التهديد المروّع : « وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، إن لدينا أنكالا وجحيما ، وطعاما ذا غصة وعذابا أليما » . . وهول الموقف الذى يتجلى فى مشاهد الكون وفى أغوار النفوس : « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » . . « فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به ؛ كان وعده مفعولا »

فأما الآية الآخيرة الطويلة التى تمثل شطر السورة الثانى ؛ فقد نزلت بعد عام من قيام الليل حتى ورمت أقدام الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وطائفة من الذين معه . والله يعدّه ويعدّهم

بهذا القيام لما يعدهم له ! فنزل التخفيف ، ومعه التطمين بأنه اختيار الله لهم وفق علمه وحكمته بأعبائهم وتكاليفهم التى قدرها فى علمه عليهم . . أما هذه الآية فذات نسق خاص . فهى طويلة وموسيقاها متموجة عريضة ، وفيها هدوء واستقرار ، وقافية تناسب هذا الاستقرار: وهى الميم وقبلها مد الياء : « غفور رحيم » .

* * *

والسورة بشطريها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة . تبدأ بالنداء العلوى الكريم بالتكليف العظيم . وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل ، والصلاة ، وترتيل القرآن ، والذكر الخاشع المتبتل . والاتكال على الله وحده ، والصبر على الأذى ، والهجر الجميل للمكذبين ، والتخلية بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة ! . .

وتنتهى بلمسة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير . والتوجيه للطاعات والقربات ، والتلويح برحمة الله ومغفرته : « إن الله غفور رحيم » . .

وهى تمثل بشطريها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذى بذله ذلك الرهط المختار من البشرية ـ البشرية الضالة ، ليردها إلى ربها ، ويصبر على أذاها ، ويجاهد فى ضمائرها ؛ وهو متجرد من كل مافى الحياة من عرض يغرى ، ولذاذة تلهى ، وراحة ينعم بها الخليون . ونوم يلتذه الفارغون !

والآن نستعرض السورة فى نصها القرآنى الجميل .

* * *

« ياأيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أوانقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إناسنلقى عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا . إن لك فى النهار سبحا طويلا ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب لاإله إلا هو فاتخذه وكيلا » . .

« ياأيها المزمل .. قم .. » . . إنها دعوة السماء ، وصوت الكبير المتعال .. قم .. قم للأمر العظيم الذى ينتظرك ، والعبء الثقيل المهيأ لك . قم للجهد والنصب والكد والتعب . قم فقد مضى وقت النوم والراحة .. قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد . .

وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من دفء الفراش ، فى البيت

الهادىء والحضن الدافىء . لتدفع به فى الخضم ، بين الزعازع والأنواء ، وبين الشد والجذب فى ضمائر الناس وفى واقع الحياة سواء .

إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحا ، ولـكنه يعيش صغيرا ويموت صغيرا. فأما الـكبير الذى يحمل هذا العبء الـكبير .. فماله والنوم ؟ وماله والراحة؟ وماله والفراش الدافىء ،والعيش الهادىء ؟ والمتاع المريح ؟ ! ولقد عرف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حقيقة الأمر وقدّره، فقال لخديجة ــ رضى الله عنها ــ وهى تدعوه أن يطمئن وينام : « مضى عهد النوم ياخديجة » ! أجل مضى عهد النوم وماعاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق !

« ياأيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » . .

إنه الإعداد للمهمة الـكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة . .قيام الليل . أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه . وأقله ثلث الليل .. قيامه للصلاة وترتيل القرآن . وهو مد الصوت به وتجويده . بلا تغن ولا تطر ولا تخلع فى التنغيم .

وقد صح عن وتر رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ بالليل أنه لم يتجاوز إحدى عشرة ركعة . ولـكنه كان يقضى فى هــذه الركعات ثلثى الليل إلا قليلا، يرتل فيه القرآن ترتيلا .

روى الإمام أحمد فى مسنده قال : حدثنا يحى ابن سعيد ــ هو ابن أبى عروبة ــ عن قتادة ، عن زرارة ابن أوفى ، عن سعيد ابن هشام..أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ ؟ قال . نعم . قال : ائت عائشة فسلها ، ثم ارجع إلى فأخبرنى بردها عليك . . . ثم يقول سعيد ابن هشام : قلت : ياأم المؤمنين أنبئينى عن خلق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان القرآن . فهممت أن أقوم ، ثم بدا لى قيام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قلت : ياأم المؤمنين ، أنبئينى عن قيام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قالت : ألست تقرأ هذه السورة : « ياأيها المزمل » ؟ قلت : بلى. قالت : فإن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ؛ فقام رسول الله ــ صلى الله عليــه وعلى آله وسلم ــ وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم . وأمسك الله خاتمها فى السماء اثنى عشر شهرا. ثم أنزل التخفيف فى آخر هــذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة .. فهممت

أن أقوم ، ثم بدالى وتر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقلت : ياأم المؤمنين أنبئينى عن وتر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره ، فيبعثه الله كما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ، ثم يتوضأ ، ثم يصلى ثمان ركعات لا يجلس فيهن ، إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ، ثم ينهض ومايسلم ، ثم يقوم ليصلى التاسعة ، ثم يقعد فيذكر الله وحده ، ثم يدعوه ، ثم يسلم تسليما يسمعنا . ثم يصلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم ، فتلك إحدى عشرة ركعة يابنى ، فلما أسن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد مايسلم ، فتلك تسع يابنى . وكان رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها . وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أومرض صلى من نهار ثنتى عشرة ركعة . ولا أعلم نبى الله — صلى الله عليه وسلم — قرأ القرآن كله فى ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهرا كاملا غير رمضان ... » (١)

وكان هذا الإعداد للقول الثقيل الذى سينزله الله عليه ..

« إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ...

هو هذا القرآن وماوراءه من التكليف .. والقرآن فى مبناه ليس ثقيلا فهو ميسر للذكر . ولكنه ثقيل فى ميزان الحق ، ثقيل فى أثره فى القلب : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » فأنزله الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه . .

وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه ، لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة ، لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الاتصال بالملأ الأعلى وبروح الوجود وأرواح الخلائق الحية والجامدة على النحو الذى تهيأ لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب ، ولا تلفت هنا أوهناك وراء الهواتف والجواذب والمعوقات ، لثقيل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن قيام الليل والناس نيام ، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها ؛ والاتصال

---

(١) وأخرجه مسلم من حديث قتادة .. وهناك أحاديث كثيرة وأقوال متعددة فى صلاة الرسول — صلى الله عليه وسلم — بالليل ووتره ، صحت فيها كيفيات متعددة لهذه الصلاة (يراجع زاد المعاد لابن القيم فى هديه صلى الله عليه وسلم فى قيام الليل)

بالله ، وتلقى فيضه ونوره ، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه ، وترتيل القرآن والكون ساكن ، وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود فى لحظة الترتيل بلا لفظ بشرى ولا عبارة ؛ واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته فى الليل الساجى . . إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذى ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة فى كل جيل ! وينير للقلب فى الطريق الشاق الطويل ، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه فى الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير .

« إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا » . .

« ناشئة الليل» هى ماينشأ منه بعد العشاء ؛ والآية تقول : إن ناشئة الليل هى أشد وطأ: أى أجهد للبدن ، وأقوم قيلا : أى أثبت فى الخير (كما قال مجاهد) فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش ، بعد كد النهار ، أشد وطأ وأجهد للبدن ؛ ولكنها إعلان لسيطرة الروح ، واستجابة لدعوة الله ، وإيثار للأنس به ؛ ومن ثم فإنها أقوم قيلا ، لأن للذكر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة فيها شفافيتها . وإنها لتسكب فى القلب أنسا وراحة وشفافية ونورا ، قد لايجدها فى صلاة النهار وذكره . . والله الذى خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ،ويعلم مايتسرب إليه ومايوقع عليه ،وأى الأوقات يكون فيها أكثر تفتحا واستعدادا وتهيؤا ، وأى الأسباب أعلق به وأشد تأثيرا فيه .

والله ــ سبحانه ــ وهو يعد عبده ورسوله محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليتلقى القول الثقيل، وينهض بالعبء الجسيم ، اختار له قيام الليل ، لأن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا . ولأن له فى النهار مشاغله ونشاطه الذى يستغرق كثيرا من الطاقة والالتفات :

« إن لك فى النهار سبحا طويلا » . .

فلينقض النهار فى هذا السبح والنشاط ، وليخلص لربه فى الليل ، يقوم له بالصلاة والذكر :

« واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا » . .

وذكر اسم الله ، ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان ، على عدة المسبحة المئوية أو الألفية ! إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر؛ أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها . والتبتل هو الانقطاع الكلى عما عدا الله، والاتجاه الكلى إليه بالعبادة والذكر، والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر ، والحضور مع الله بكامل الحس والمشاعر .

ولما ذكر التبتل وهو الانقطاع عما عدا الله ، ذكر بعده مايفيد أنه ليس هناك إلا الله ، يتجه إليه من يريد الاتجاه :

« رب الشرق والمغرب ، لا إله إلا هو ، فاتخذه وكيلا » . .

فهو رب كل متجه . . رب المشرق والمغرب . . وهو الواحد الأحد الذى لا إله إلا هو . فالانقطاع إليه هو الانقطاع للحقيقة الوحيدة فى هذا الوجود ؛ والتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة فى هذا الوجود .والاتكال على الله وحده هو الثمرة المباشرة للاعتقاد بوحدانيته، وهيمنته على المشرق والمغرب ، أى على الكون كله . . والرسول الذى ينادى ; قم . . لينهض بعبئه الثقيل ، فى حاجة ابتداء للتبتل لله والاعتماد عليه دون سواه . فمن هنا يستمد القوة والزاد للعبء الثقيل فى الطريق الطويل .

* * *

ثم وجه الله الرسول إلى الصبر الجميل على مايلقاه من قومه من الاتهام والإعراض والصد والتعطيل . وأن يخلى بينه وبين المكذبين ! ويمهلهم قليلا . فإن لدى الله لهم عذابا وتنكيلا :

« واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا . إن لدينا أنكالا وجحيما . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما . يوم ترجف الأرض والجبال، وكانت الجبال كثيبا مهيلا .. إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا . فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به كان وعده مفعولا» . .

وإذا صحت الرواية الأولى عن نزول مطلع هذه السورة فى بدء البعثة ، فإن هذا الشوط الثانى منها يكون قد نزل متأخرا بعد الجهر بالدعوة ، وظهور المكذبين والمتطاولين ، وشدتهم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعلى المؤمنين . فأما إذا صحت الرواية الثانية فإن شطر السورة الأول كله يكون قد نزل بمناسبة مانال النبي — صلى الله عليه وسلم — من أذى المشركين وصدهم عن الدعوة .

وعلى أية حال فإننا نجد التوجيه إلى الصبر ، بعد التوجيه إلى القيام والذكر ، وهما كثيرا مايقترنان فى صدد تزويد القلب بزاد هذه الدعوة فى طريقها الشاق الطويل، سواء طريقها فى مسارب الضمير أو طريقها فى جهاد المناوئين ، وكلاهما شاق عسير .. نجد التوجيه إلى الصبر.

« فاصبر على مايقولون » . . مما يغيظ ويحنق ، « واهجرهم هجرا جميلا » . . لاعتاب معه ولاغضب ، ولا هجرفيه ولامشادة . وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة ـ وبخاصة في أوائلها .. كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر ، ومجرد بلاغ هادىء ومجرد بيان منير .

والهجر الجميل مع التطاول والتكذيب ، يحتاج إلى الصبر بعد الذكر . والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله ، مرة ومرة ومرة ؛ ولعباده المؤمنين برسله . ومايمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده ، والصبر جنته وسلاحه ، والصبر ملجؤه وملاذه. فهي جهاد .. جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها .. وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدبيرهم وكيدهم وأذاهم . ومع النفوس عامة وهي تتفصى من تكاليف هذه الدعوة ، وتتفلت ، وتتخفى في أزياء كثيرة وهي تخالف عنها ولاتستقيم عليها. والداعية لازاد له إلا الصبر أمام هذا كله ، والذكر وهو قرين الصبر في كل موضع تقريبا !

اصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا .. وخل بيني وبين المكذبين ، فأنا بهم كفيل : « وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » . . كلمة يقولها الجبار القهار القوى المتين . . « وذرني والمكذبين » . . والمكذبون بشر من البشر ، والذى يتهددهم هو الذى أنشأهم ابتداء وخلق هذا الكون العريض « بكن » ولاتزيد !

ذرني والمكذبين . . فهي دعوتي . وماعليك إلا البلاغ . ودعهم يكذبون واهجرهم هجرا جميلا . وسأتولى أنا حربهم ، فاسترح أنت من التفكير في شأن المكذبين !

إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار ، إلى هذه الخلائق الهينة المضعوفة .. « أولى النعمة » مهما يكن من جبروتهم في الأرض على أمثالهم من المخاليق !

« ومهلهم قليلا » ولومهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلاقليلا . وإن هي إلا يوم أو بعض يوم في حساب الله . وفى حسابهم هم أنفسهم حين تطوى ، بل إنهم ليحسونها في يوم القيامة ساعة من نهار ! فهي قليل أياكان الأمد ، ولومضوا من هذه الحياة ناجين من أخذ الجبار المنتقم الذى يمهل قليلا ويأخذ تنكيلا :

« إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما » . .

والأنكال ـ هي القيود ـ والجحيم والطعام ذو الغصة الذى يمزق الحلوق والعذاب الأليم .. كلها جزاء مناسب « لأولى النعمة » ! الذين لم يرعوا النعمة ، ولم يشكروا المنعم ، فاصبر يامحمد

عليهم صبرا جميلا وخل بينى وبينهم . ودعهم فإن عندنا قيودا تنكل بهم وتؤذيهم ، وجحيما تجحمهم وتصليهم ، وطعاما تلازمه الغصة فى الحلق ، وعذابا أليما فى يوم مخيف . . .

ثم يرسم مشهد هذا اليوم المخيف :

« يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » . .

فها هى ذى صورة للهول تتجاوز الناس إلى الأرض فى أكبر مجاليها . فترجف وتخاف وتتفتت وتنهار . فكيف بالناس المهازيل الضعاف !

ويلتفت السياق أمام مشهد الهول المفزع ، إلى المكذبين أولى النعمة ، يذكرهم فرعون الجبار ، وكيف أخذه الله أخذ عزيز قهار :

« إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا »

هكذا فى اختصار يهز قلوبهم ويخلعها خلعا ، بعد مشهد الأرض والجبال وهى ترجف وتنهار .

فذلك أخذ الآخرة وهذا أخذ الدنيا ؛ فكيف تنجون بأنفسكم وتقوها هذا الهول الرعيب ؟

« فكيف تتقون — إن كفرتم — يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به ؟ » . .

وإن صورة الهول هنا لتنشق لها السماء ، ومن قبل رجفت لها الأرض والجبال . وإنها لتشيب الولدان . وإنه لهول ترتسم صوره فى الطبيعة الصامتة ،وفى الإنسانية الحية ..فى مشاهد ينقلها السياق القرآنى إلى حس المخاطبين كأنها واقعة . . ثم يؤكدها تأكيدا . « كان وعده مفعولا » . . واقعا لاخلف فيه . وهو ماشاء فعل وما أرادكان !

وأمام هذا الهول الذى يتمثل فى الكون كما يتمثل فى النفس يلمس قلوبهم لتتذكر وتختار طريق السلامة . . طريق الله . .

«إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا» . .

وإن السبيل إلى الله لآمن وأيسر ، من السبيل المريب ، إلى هذا الهول العصيب !

وبينما تزلزل هذه الآيات قوائم المكذبين ، تنزل على قلب الرسول — صلى الله عليه وسلم — والقلة المؤمنة المستضعفة إذ ذاك بالروح والثقة واليقين .إذ يحسون أن ربهم معهم ،يقتل أعداءهم

وينكل بهم . وإن هى إلا مهلة قصيرة ، إلى أجل معلوم . ثم يقضى الأمر ، حينما يجىء الأجل ويأخذ الله أعداءه وأعداءهم بالنكال والجحيم والعذاب الأليم .

إن الله لايدع أولياءه لأعدائه . ولو أمهل أعداءه إلى حين . . .

***

والآن يجىء شطر السورة الثانى فى آية واحدة طويلة ، نزلت بعد مطلع السورة بعام على أرجح الأقوال :

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار . علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن : علم أن سيكون منكم مرضى . وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله . فاقرأوا ماتيسر منه ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم » . .

إنها لمسة التخفيف الندية ، تمسح على التعب والنصب والمشقة . ودعوة التيسير الإلهى على النبى والمؤمنين . وقد علم الله منه ومنهم خلوصهم له . وقد انتفخت أقدامهم من القيام الطويل للصلاة بقدر من القرآن كبير . وما كان الله يريد لنبيه أن يشقى بهذا القرآن وبالقيام . إنما كان يريد أن يعده للأمر العظيم الذى سيواجهه طوال مابقى له من الحياة . هو والمجموعة القليلة من المؤمنين الذين قاموا معه .

وفى الحديث مودة وتطمين : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » . . إنه رآك ! إن قيامك وصلاتك أنت وطائفة من الذين معك قبلت فى ميزان الله . . إن ربك يعلم أنك وهم تجافت جنوبكم عن المضاجع ؛ وتركت دفء الفراش فى الليلة القارسة ، ولم تسمع نداء المضاجع المغرى وسمعت نداء الله . . إن ربك يعطف عليك ويريد أن يخفف عنك وعن أصحابك . . « والله يقدر الليل والنهار » . . فيطيل من هذا ويقصر من ذاك . فيطول الليل ويقصر . وأنت ومن معك ماضون تقومون أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه . وهو يعلم ضعفكم عن الموالاة . وهو لايريد أن يعنتكم ولاأن يشق

عليكم . إنما يريد لكم الزاد وقد تزودتم فخففوا على أنفسكم ، وخذوا الأمر هينا : « فاقرأوا ماتيسر من القرآن » . . فى قيام الليل بلامشقة ولاعنت . . وهناك — فى علم الله — أمور تنتظركم تستنفد الجهد والطاقة ، ويشق معها القيام الطويل : « علم أن سيكون منكم مرضى» يصعب عليهم هـذا القيام « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » .. فى طلب الرزق والكد فيه ، وهو ضرورة من ضرورات الحيـاة . والله لايريد أن تدعوا أمور حياتكم وتنقطعوا لعبادة الشعائر انقطاع الرهبان ! « وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » . . فقد علم الله أن سيأذن لكم فى الانتصار من ظالمكم بالقتال ، ولإقامة راية للإسلام فى الأرض يخشاها البغاة ! خففوا إذن على أنفسكم « فاقرأوا ماتيسر منه» بلا عسر ولامشقة ولا إجهاد .. واستقيموا على فرائض الدين : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .. وتصدقوا بعد ذلك قرضا لله يبقى لكم خيره .. «وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا » .. واتجهوا إلى الله مستغفرين عن تقصيركم . فالإنسان يقصر ويخطىء مهما جد وتحرى الصواب : «واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » ..

إنها لمسة الرحمة والود والتيسير والطمأنينة تجيء بعد عام من الدعوة إلى القيام ! ولقد خفف الله عن المسلمين ، فجعل قيام الليل لهم تطوعا لافريضة . أما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد مضى على نهجه مع ربه ، لا يقل قيامه عن ثلث الليل ، يناجى ربه ، فى خلوة من الليل وهدأة ، ويستمد من هذه الحضرة زاد الحياة وزاد الجهاد . على أن قلبه ما كان ينام وإن نامت عيناه . فقد كان قلبه — صلى الله عليه وسلم — دائما مشغولا بذكر الله ، متبتلا لمولاه . وقد فرغ قلبه من كل شىء إلا من ربه . على ثقل مايحمل على عاتقه ، وعلى مشقة مايعانى من الأعباء الثقال ..

سورة المدثر مكية
وآياتها ٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر .

« فإذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير .

« ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا ! إنه كان لآياتنا عنيداً * سأرهقه صعوداً * إنه فكر وقدر ؟ * فقتل ! كيف قدر ؟ * ثم قتل ! كيف قدر ؟ * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر * وما أدراك ماسقر ؟ * لا تبقي ولا تذر * لواحة للبشر * عليها تسعة عشر .

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ كذلك يضل الله من يشاء ، ويهدي من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وماهي إلا ذكرى للبشر .

« كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيراً لِلْبَشَرِ .

« لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَاسَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ * قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا ٱلْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ .

« فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ؟ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ؟ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً * كَلَّا ! بَلْ لَا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ * كَلَّا ! إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ ، هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ » . .

ينطبق على هـذه السورة من ناحية سبب نزولها ، ووقت نزولها ماسبق ذكره عن سورة « المزمل » . فهناك روايات بأنها هى أول مانزل بعد سورة العلق ، ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

قال البخارى ، حدثنا يحى ، حدثنا وكيع ، عن على ابن المبارك ، عن يحى ابن أبى كثير قال : سألت أباسلمة ابن عبد الرحمن عن أول مانزل من القرآن ؟ فقال : « ياأيها المدثر » .. قلت : يقولون « اقرأ باسم ربك الذى خلق » فقال أبو سلمة : سألت جابر ابن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ماقلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ماحدثنا به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت ، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ، ونظرت أمامى فلم أر شيئا ، ونظرت خلفى فلم أر شيئا ، فرفعت رأسى فرأيت شيئا . فأتيت خديجة فقلت : « دثرونى وصبوا علىّ ماء باردا »

قال : فدثرونى وصبوا علىّ ماء باردا . قال : فنزلت : « ياأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر » . .

وقد رواه مسلم من طريق عقيل ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة . قال : أخبرنى جابر ابن عبد الله ، أنه سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحدث عن فترة الوحى ، فقال فى حديثه : فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء ، قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلى فقلت : زملونى ، فدثرونى ، فأنزل الله تعالى : « ياأيها المدثر . قم فأنذر . . . — إلى — والرجز فاهجر » قال أبو سلمة : والرجز الأوثان . ثم حمى الوحى وتتابع » . . ورواه البخارى من هـذا الوجه أيضا . . وهـذا لفظ البخارى .

وعلق ابن كثير فى التفسير على هذا الحديث بقوله : « وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحى قبل هذا لقوله: « فإذا الملك الذى جاءنى بحراء »وهو جبريل ،حين أتاه بقوله . . . « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علـم الإنسان مالم يعلم » . . ثم إنه حصل بعد هـذا فترة ،ثم نزل الملك بعد هـذا . ووجه الجمع أن أول شىء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة » . .

فهـذه رواية . وهناك رواية أخرى . . قال الطبرانى : حـدثنا محمد ابن على ابن شعيب السمسار ، حدثنا الحسن ابن بشر البجلى ، حدثنا المعافى ابن عمران ، عن إبراهيم ابن يزيد ، سمعت ابن أبى مليكة يقول : سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد ابن المغيرة صنع لقريش طعاما ، فلما أكلوا منه قال: ماتقولون فى هذا الرجل ؟فقال بعضهم: ساحر .وقال بعضهم: ليس بساحر . وقال بعضهم : كاهن . وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم: شاعر . وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : بل سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبى — صلى الله عليه وسلم — فحزن ، وقنع رأسه ، وتدثر . فأنزل الله تعالى : «ياأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر » . .

وتكاد تكون هذه الرواية هى ذاتها التى رويت عن سورة « « المزمل » . . مما يجعلنا لانستطيع الجزم بشىء عن أيتهما هى التى نزلت أولا . والتى نزلت بهذه المناسبة أو تلك .

غير أن النظر فى النص القرآنى ذاته يوحى بأن مطلع هـذه السورة إلى قوله تعالى :

« ولربك فاصبر » ربما يـكون قد نزل مبكرا فى أوائل أيام الدعوة . شأنه شأن مطلع سورة المزمل إلى قوله تعالى : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » . . وهذا وذلك لإعـداد نفس الرسول ــ صلى الله عليـه وسلم ــ للنهوض بالتبعة الـكبرى ،ومواجهة قريش بعد ذلك بالدعوة جهارا وكافة ،مما سيترتب عليه مشاق كثيرة متنوعة ، تحتاج مواجهتها إلى إعـداد نفسى سابق . . ويـكون ما تلا ذلك فى سورة المدثر ، وما تلا هذا فى سورة المزمل ،قد نزلا بعد فترة بمناسبة تـكذيب القوم وعنادهم ، وإيذائهم للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالاتهام الـكاذب والـكيد اللئيم .

إلاأن هذا الاحتمال لاينفى الاحتمال الآخر ،وهو أن يـكون كل من المطلعين قد نزل متصلا بما تلاه فى هذه السورة وفى تلك ، بمناسبة واحدة ، هى التـكذيب ، واغتمام رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ للـكيد الذى كادته قريش ودبرته .. ويـكون الشأن فى السورتين هو الشأن فى سورة القلم على النحو الذى بيناه هناك .

* * *

وأيا ماكان السبب والمناسبة فقد تضمنت هذه السورة فى مطلعها ذلك النداء العلوى بانتداب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لهذا الأمر الجلل ؛ وانتزاعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهاد والـكفاح والمشقة : « ياأيها المدثر . قم فأنذر » . . مع توجيهه ــ صلى الله عليـه وسلم ــ إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم ، والاستعانة عليه بهذا الذى وجهه الله إليه : « وربك فـكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستـكثر . ولربك فاصبر » .. وكان ختام التوجيه هنا بالصبر كما كان هناك فى سورة المزمل !

وتضمنت السورة بعد هذا تهديدا ووعيدا للـمكذبين بالآخرة ، وبحرب الله المباشرة ، كما تضمنت سورة المزمل سواء : « فإذا نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الـكافرين غير يسير . ذرنى ومن خلقت وحيـدا . وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد . كلا ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا » ..

وتعين سورة المدثر أحد المـكذبين بصفته ، وترسم مشهدا من مشاهد كيده ــ على نحو مما ورد فى سورة القلم ، وربما كان الشخص المعنى هنا وهناك واحدا ، قيل : إنه الوليد ابن المغيرة ــ (كما سيأتى تفصيل الروايات عند مواجهة النص) وتذكر سبب حرب الله سبحانه وتعالى له:

« إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل : كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » . . ثم تذكر مصيره : « سأصليه سقر . وماأدراك ماسقر ، لاتبقى ولاتذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر » . .

وبمناسبة مشهد سقر . والقائمين عليها التسعة عشر . وماأثاره هذا العدد من بلبلة وفتنة وتساؤل وشك واستهزاء فى أوساط المشركين وضعاف الإيمان ، تتحدث السورة عن حكمة الله فى ذكر هذا العدد ، ثم تفتح كوة على حقيقة غيب الله ، واختصاصه بهذا الغيب . وهى كوة تلقى ضوءا على جانب من التصور الإيمانى لحقيقة غيب الله المكنون : « وماجعلنا أصحاب النار إلاملائكة . وما جعلنا عدتهم إلافتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا ، ولايرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون،وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ كذلك يضل الله من يشاءويهدى من يشاء ، ومايعلم جنود ربك إلا هو ، وماهى إلا ذكرى للبشر » . .

ثم يصل أمر الآخرة وسقر ومن عليها بمشاهد كونية حاضرة ، ليجمع على القلوب إيحاء هذه وتلك فى معرض الإيقاظ والتحذير : « كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيرا للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أويتأخر » . .

كما يعرض مقام المجرمين ومقام أصحاب اليمين ، حيث يعترف المكذبون اعترافا طويلا بأسباب استحقاقهم للارتهان والقيد فى يوم الجزاء والحساب ، يعقب عليه بكلمة الفصل فى أمرهم الذى لاتنفعهم فيه شفاعة شافع : « كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون عن المجرمين : ماسلككم فى سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . . فماتنفعهم شفاعة الشافعين » . .

وفى ظل هذا المشهد المخزى ، والاعتراف المهين ، يتساءل مستنكرا موقف المكذبين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا المصير ، ويرسم لهم مشهدا ساخرا يثير الضحك والزراية من نفارهم الحيوانى الشموس : « فمالهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ! » .

ويكشف عن حقيقة الغرور الذى يساورهم فيمنعهم من الاستجابة لصوت المذكر الناصح . « بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة » ..فهوالحسد للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرغبة فى أن يؤتى كل منهم الرسالة ! والسبب الدفين الآخر هو قلة التقوى : « كلا ! بل لايخافون الآخرة » ..

وفى الختام يجىء التقرير الجازم الذى لامجاملة فيه : « كلا ! إنها تذكرة . فمن شاء ذكره » ورد الأمر كله إلى مشيئة الله وقدره : « ومايذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة » . .

* * *

وهكذا تمثل السورة حلقة من حلقات الكفاح النفسى الذى كافحه القرآن للجاهلية وتصوراتها فى قلوب قريش ؛ كما كافح العناد والكيد والإعراض الناشىء عن العمد والقصد بشتى الأساليب . . والمشابهات كثيرة بين اتجاهات هذه السورة واتجاهات سورة المزمل ، وسورة القلم، مما يدل على أنها جميعا نزلت متقاربة ، لمواجهة حالات متشابهة . . وذلك باستثناء الشطر الثانى من سورة المزمل ، وقد نزل لشأن خاص بالرياضة الروحية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطائفة من الذين معه كما تقدم .

* * *

وهذه السورة قصيرة الآيات . سريعة الجريان . منوعة الفواصل والقوافى . يتئد إيقاعها أحيانا ، ويجرى لاهثا أحيانا ! وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذب وهو يفكر ويقدر ويعبس ويبسر .. وتصوير مشهد سقر . لاتبقى ولا تذر . لواحة للبشر .. ومشهد فرارهم كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة !

وهذا التنوع فى الإيقاع والقافية بتنوع المشاهد والظلال يجعل للسورة مذاقا خاصا ؛ ولا سيما عند رد بعض القوافى ورجعها بعد انتهائها كقافية الراء الساكنة: المدثر. أنذر. فكبر .. وعودتها بعد فترة : قدر . بسر . استكبر . سقر ... وكذلك الانتقال من قافية إلى قافية فى الفقرة الواحدة مفاجأة ولكن لهدف خاص . عند قوله : « فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ! » . . ففى الآية الأولى كان يسأل ويستنكر . وفى الثانية والثالثة كان يصور ويسخر ! وهكذا . . .

والآن نأخذ فى الاستعراض التفصيلى للسورة :

* * *

« ياأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر » . .

إنه النداء العلوى الجليل، للأمر العظيم الثقيل . نذارة هذه البشرية وإيقاظها ، وتخليصها من الشر فى الدنيا ، ومن النار فى الآخرة ؛وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان .. وهو واجب ثقيل شاق ، حين يناط بفرد من البشر ــ مهما يكن نبيا رسولا ــ فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والالتواء والتفصى من هـذا الأمر ، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل مايكلفه إنسان من المهام فى هذا الوجود !

« ياأيها المدثر . قم فأنذر » .. والإنذار هو أظهر مافى الرسالة ،فهو تنبيه للخطر القريب الذى يترصد للغافلين السادرين فى الضلال وهم لايشعرون . وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد ، وهم لاينقصون فى ملكه شيئا حين يضلون ، ولا يزيدون فى ملكه شيئا حين يهتدون . غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم فى الآخرة ، ومن الشر الوبيق فى الدنيا . وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله !

ثم يوجه الله رسوله فى خاصة نفسه بعد إذ كلفه نذارة غيره :

يوجهه إلى تكبير ربه : « وربك فكبر » . . ربك وحده .. فهو وحده الكبير ، الذى يستحق التكبير . وهو توجيه يقــرر جانبا من التصور الإيمانى لمعنى الألوهية ، ومعنى التوحيد .

إن كل أحد ، وكل شىء ، وكل قيمة، وكل حقيقة . . صغير .. والله وحده هو الكبير .. وتتوارى الأجرام والأحجام ، والقوى والقيم ، والأحداث والأحوال ، والمعانى والأشكال ؛ وتنمحى فى ظلال الجلال والكمال ، لله الواحد الكبير المتعال .

وهو توجيه للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليواجه نذارة البشرية ، ومتاعبها وأهوالها وأثقالها ، بهذا التصور ، وبهذا الشعور ، فيستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة ، وهو يستشعر أن ربه الذى دعاه ليقوم بهذه النذارة ، هو الكبير . . ومشاق الدعوة وأهوالها فى حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور .

ويوجهه إلى التطهر : « وثيابك فطهر » . . وطهارة الثياب كناية فى الاستعمال العربى عن طهارة القلب والخلق والعمل . . طهارة الذات التى تحتويها الثياب ، وكل مايلم بها أو يمسها . . والطهارة هى الحالة المناسبة للتلقى من الملأ الأعلى : كما أنها ألصق شىء بطبيعة هــذه الرسالة . وهى بعد هــذا وذلك ضرورية لملابسة الإنذار والتبليغ ، ومزاولة الدعوة فى وسط التيارات والأهواء والمداخل والدروب ؛وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب ، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الـكاملة كى يملك استنقاذ الملوثين دون أن يتلوث ، وملابسة المدنسين من غير أن يتدنس . . وهى لفتة دقيقة عميقة إلى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام على هــذا الأمر بين شتى الأوساط ، وشتى البيئات ، وشتى الظــروف ، وشتى القلوب !

ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات العذاب : « والرجز فاهجر » .. والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان هاجرا للشرك ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة.فقد عافت فطرته السليمة ذلك الانحراف ، وهذا الركام من المعتقدات الشائهة ، وذلك الرجس من الأخلاق والعادات ، فلم يعرف عنه أنه شارك فى شىء من خوض الجاهلية .ولـكن هذا التوجيه يعنى المفاصلة وإعلان التميز الذى لاصلح فيه ولا هوادة . فهما طريقان مفترقان لايلتقيان . كما يعنى التحرز من دنس هذا الرجز ـ والرجز فى الأصل هو العذاب ، ثم أصبح يطلق على موجبات العذاب ـ تحرز التطهر من مس هذا الدنس !

ويوجهه إلى إنـكار ذاته وعدم المن بما يقدمه من الجهد ، أواستـكثاره واستعظامه : « ولاتمنن تستـكثر » .. وهو سيقدم الـكثير ، وسيبذل الـكثير ، وسيلقى الـكثير من الجهد والتضحية والعناء . ولـكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم مايقدمه ويستـكثره ويمتن به . . وهذه الدعوة لاتستقيم فى نفس تحس بما تبذل فيهــا . فالبذل فيها من الضخامة بحيث لاتحتمله النفس إلا حين تنساه . بل حين لاتستشعره من الأصل لأنها مستغرقة فى الشعور بالله ؛ شاعرة بأن كل ماتقدمه هو من فضله ومن عطاياه . فهو فضل يمنحها إياه ، وعطاء يختارهاله،ويوفقها لنيله . وهو اختيار واصطفاء وتـكريم يستحق الشكر لله . لاالمن والاستـكثار .

ويوجهه أخيرا إلى الصبر . الصبر لربه : « ولربك فاصبر » . . وهى الوصية التى تتـكرر عند كل تـكليف بهذه الدعوة أوتثبيت . والصبر هو هــذا الزاد الأصيل فى هــذه المعركة

الشاقة . معركة الدعوة إلى الله . المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس وأهواء القلوب ؛ ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات وتدفعهم شياطين الأهواء ! وهى معركة طويلة عنيفة لازاد لها إلاالصبر الذى يقصد فيه وجه الله ، ويتجه به إليه احتسابا عنده وحده .

* * *

فإذا انتهى هـذا التوجيه الإلهى للنبى الـكريم ، اتجه السياق إلى بيان ماينذر به الآخرين، فى لمسة توقظ الحس لليوم العسير ، الذى ينذر بمقدمه النذير :

« فإذا نقر فى الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الـكافرين غير يسير » . .

والنقر فى الناقور ، هو مايعبر عنه فى مواضع أخرى بالنفخ فى الصور .ولـكن التعبير هنا أشد إيحاء بشدة الصوت ورنينه ؛ كأنه نقر يصوّت ويدوّى . والصوت الذى ينقر الآذان أشد وقعا من الصوت الذى تسمعه الآذان .. ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الـكافرين ، ويؤكد هـذا العسر بنفى كل ظل لليسر فيه : « على الـكافرين غير يسير » . . فهو عسر كله . عسر لايتخلله يسر . ولايفصل أمر هـذا العسر ، بل يدعه مجملا مجهلا يوحى بالاختناق والـكرب والضيق .. فما أجدر الـكافرين أن يستمعوا للنذير ، قبل أن ينقر فى الناقور ، فيواجههم هذا اليوم العسير العسير !

* * *

وينتقل من هـذا التهديد العام إلى مواجهة فرد بذاته من المـكذبين ؛ يبدو أنه كان له دور رئيسى خاص فى التـكذيب والتبييت للدعوة ؛ فيوجه إليه تهديدا ساحقا ماحقا ، ويرسم له صورة منـكرة تثير الهزء والسخرية من حاله وملامح وجهه ونفسه التى تبرز من خلال الـكلمات كأنها حية شاخصة متحركة الملامح والسمات :

« ذرنى ومن خلقت وحيدا ،وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ،ومهدت له تمهيدا ؛ ثم يطمع أن أزيد ! كلا ! إنه كان لآياتنا عنيدا.سأرهقه صعودا . إنه فـكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هـذا إلاقول البشر . سأصليه سقر . وماأدراك ماسقر ؟ لاتبقى ولاتذر، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر .. » ..

وقد وردت روايات متعددة بأن المعنىّ هنا هو الوليد ابن المغيرة المخزومى .قال ابن جرير:

حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا محمد ابن ثورة ، عن معمر ، عن عبادة ابن منصور ، عن عكرمة ، أن الوليد ابن المغيرة جاء إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أباجهل ابن هشام ، فأتاه فقال له : أى عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا : قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمدا تتعرض لما قبله ! (يريد بخبث أن يثير كبرياءه من الناحية التى يعرف أن الوليد أشد بها اعتزازا) قال : قد علمت قريش أنى أكثرها مالا ! قال : فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له ! قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله مامنكم رجل أعلم بالأشعار منى ولاأعلم برجزه ولابقصيده ، ولابأشعار الجن ! والله مايشبه الذى يقوله شيئا من هذا . والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ماتحته ، وإنه ليعلو ومايعلى . . قال : والله لايرضى قومك حتى تقول فيه . . قال : فدعنى حتى أفكر فيه . . فلما فكر قال : إن هـذا إلا سحر يؤثره عن غيره . فنزلت : « ذرنى ومن خلقت وحيدا — حتى بلغ — عليها تسعة عشر » .

وفى رواية أخرى أن قريشا قالت : لئن صبأ الوليد ، لتصبئون قريش كلها ! فقال أبو جهل أنا أكفيكموه ! ثم دخل عليه !.. وأنه قال بعد التفكير الطويل : إنه سحر يؤثر . أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه ؟

هذه هى الواقعة كما جاءت بها الروايات . فأما القرآن فيسوقها هـذه السياقة الحية المثيرة . . يبدأ بذلك التهديد القاصم الرهيب .

« ذرنى ومن خلقت وحيدا » . . .

والخطاب للرسول — صلى الله عليـه وسلم — ومعناه خل بينى وبين هذا الذى خلقته وحيدا مجردا من كل شىء آخر مما يعتز به من مال كثير ممدود وبنين حاضرين شهود ونعم يتبطر بها ويختال ويطلب المزيد . خل بينى وبينه ولاتشغل بالك بمكره وكيده . فأنا سأتولى حربه . . وهنا يرتعش الحس ارتعاشة الفزع المزلزل ؛ وهو يتصور انطلاق القوة التى لاحد لها . . قوة الجبار القهار . . لتسحق هـذا المخلوق المضعوف المسكين الهزيل الضئيل ! وهى الرعشة التى يطلقها النص القرآنى فى قلب القارىء والسامع الآمنين منها . فما بال الذى تتجه إليه وتواجهه !

ويطيل النص فى وصف حال هذا المخلوق ، وماآتاه الله من نعمه وآلائه ، قبل أن يذكر إعراضه وعناده . فهو قد خلقه وحيدا مجردا من كل شىء حتى من ثيابه ! ثم جعل له مالا كثيرا

ممدودا . ورزقه بنين من حوله حاضرين شهودا ، فهو منهم فى أنس وعزوة . ومهد له الحياة تمهيدا ويسرها له تيسيرا .. « ثم يطمع أنأزيد » .. فهو لايقنع بما أوتى، ولايشكرويكتفى .. أم لعله يطمع فى أن ينزل عليه الوحى وأن يعطى كتابا كما سيجىء فى آخر السورة: « بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة » . . فقد كان ممن يحسدون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على إعطائه النبوة .

وهنا يردعه ردعا عنيفا عن هـذا الطمع الذى لم يقدم حسنة ولاطاعة ولاشكرا لله يرجو بسببه المزيد :

« كلا ! » ، وهى كلمة ردع وتبكيت ـ « إنه كان لآياتنا عنيدا » . . فعاند دلائل الحق وموحيات الإيمان . ووقف فى وجه الدعوة ، وحارب رسولها ، وصد عنهـا نفسه وغيره ، وأطلق حوالها الأضاليل .

ويعقب على الردع بالوعيد الذى يبدل اليسر عسرا ، والتمهيد مشقة !

« سأرهقه صعودا » ..

وهو تعبير مصور لحركة المشقة . فالتصعيد فى الطريق هو أشق السير وأشده إرهاقا . فإذا كان دفعا من غير إرادة من المصعد كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقا . وهو فى الوقت ذاته تعبير عن حقيقة . فالذى ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الودود ، يندبّ فى طريق وعر شاق مبتوت ؛ ويقطع الحياة فى قلق وشدة وكربة وضيق ، كأنمـا يصعد فى السماء،أويصعد فى وعر صلد لارى فيه ولا زاد ، ولاراحة ولاأمل فى نهاية الطريق !

ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية والرجل يكد ذهنه !ويعصر أعصابه! ويقبض جبينه ! وتـكلح ملامحه وقسماته . . كل ذلك ليجد عيبا يعيب به هذا القرآن ، وليجد قولا يقوله فيه :

« إنه فـكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستـكبر . فقال : إن هـذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » ..

لحة لحة . وخطرة خطرة . وحركة حركة . يرسمها التعبير ، كما لو كانت ريشة تصور ، لا كلمات تعبر ، بل كما لوكانت فيلماً متحركا يلتقط المشهد لحة لحة !!!

لقطة وهو يفـكر ويدبر ومعها دعوة هى قضاء « فقتل ! » واستنـكار كله استهزاء « كيف قدر ؟ » ثم تـكرار الدعوة والاستنـكار لزيادة الإيحاء بالتـكرار .

ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا فى جد مصطنع متكلف يوحى بالسخرية منه والاستهزاء.

ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابسا ، ويقبض ملامح وجهه باسرا ، ليستجمع فكره فى هيئة مضحكة !

وبعد هذا المخاض كله ؟ وهذا الحزق كله ؟ لايفتح عليه بشىء . . إنما يدبر عن النور ويستكبر عن الحق . . فيقول : « إن هذا إلاسحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » !

إنها لمحات حية يثبتها التعبير القرآنى فى المخيلة أقوى مما تثبتها الريشة فى اللوحة ؛ وأجمل مما يعرضها الفيلم المتحرك على الأنظار! وإنها لتدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر ، وتثبت صورته الزرية فى صلب الوجود ، تتملاها الأجيال بعد الأجيال !

فإذا انتهى عرض هــذه اللمحات الحية الشاخصة لهــذا المخلوق المضحك ، عقب عليها بالوعيد المفزع :

« سأصليه سقر » .. وزاد هذا الوعيد تهويلا بتجهيل سقر : « وما أدراك ماسقر ؟ » ..
إنها شىء أعظم وأهول من الإدراك ! ثم عقب على التجهيل بشىء من صفتها أشد هولا : « لاتبقى ولا تذر » . . فهى تكنس كنسا ، وتبلع بلعا ، وتمحو محوا ، فلا يقف لها شىء ، ولا يبقى وراءها شىء ، ولا يفضل منها شىء !

ثم هى تتعرض للبشر وتلوح : « لواحة للبشر » . . كما قال فى سورة المعارج : « تدعو من أدبر وتولى » . . فهى تدل على نفسها ، وكأنما تقصد إثارة الفزع فى النفوس ، بمنظرها المخيف !

ويقوم عليها حراس عدتهم : « تسعة عشر » . . لاندرى أهم أفراد من الملائكة الغلاظ الشداد ، أم صفوف أم أنواع من الملائكة وصنوف . إنما هو خبر من الله سندرى شأنه فيما يجىء . .

* * *

فأما المؤمنون فقد تلقوا كلمات الله بالتسليم اللائق بمن وثق بربه ، وتأدب معه أدب العبد مع الرب فلم يعد يمارى فى خبره وقوله . وأما المشركون فتلقفوا هذا العدد بقلوب خاوية من الإيمان ، عارية من التوقير لله ، خالية من الجد فى تلقى هذا الأمر العظيم . وراحوا يتهكمون عليه ويسخرون منه ، ويتخذونه موضعا للتندر والمزاح . . قال قائل منهم : أليس يتكفل

كل عشرة منكم بواحـد من هؤلاء التسعة عشر ؟ ! وقال قائل : لا بل اكفونى أنتم أمر اثنين منهم وعلىّ الباقى أنا أكفيكموهم ! وبمثل هذه الروح المطموسة المغلقة الفاضية تلقوا هذا القول العظيم الكريم .

عندئذ نزلت الآيات التالية تكشف عن حكمة الله فى الكشف عن هذا الجانب من الغيب، وذكر هـذا العدد ، وترد علم الغيب إلى الله ، وتقـرر ماوراء ذكر سقر وحراسها من غاية ينتهى الموقف إليها :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهـذا مثلا ؟ كذلك يضل الله من يشاء ، ويهـدى من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر » . .

تبدأ الآية بتقرير حقيقة أولئك التسعة عشر الذين تمارى فيهم المشركون :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » . .

فهم من ذلك الخلق المغيب الذى لا يعلم طبيعته وقوته إلا الله؟ وقد قال لنا عنهم : إنهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » فقرر أنهم يطيعون ما يأمرهم به الله ، وأن بهم القـدرة على فعل ما يأمرهم . فهم إذن مزودون بالقوة التى يقدرون بها على كل ما يكلفهم الله إياه . فإذا كان قد كلفهم القيام على سقر ، فهم مزودون من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهـذه المهمة ، كما يعلمها الله ، فلا مجال لقهرهم أو مغالبتهم من هؤلاء البشر الضعوفين ! وما كان قولهم عن مغالبتهم إلا وليد الجهل الغليظ بحقيقة خلق الله وتدبيره للأمور .

« وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » . .

فهم الذين يثير ذكر العدد فى قلوبهم رغبة الجدل ؛ ولا يعرفون مواضع التسليم ومواضع الجدل . فهذا الأمر الغيبى كله من شأن الله ، وليس لدى البشر عنه من علم كثير ولا قليل ، فإذا أخبر الله عنه خبرا فهو المصدر الوحيد لهذا الطرف من الحقيقة ، وشأن البشر هو تلقى هذا الخبر بالتسليم ، والاطمئنان إلى أن الخير فى ذكر هـذا الطرف وحده ، بالقدر الذى ذكره ، وأن لا مجال للجدل فيه ، فالإنسان إنما يجادل فما لديه عنه علم سابق يناقض الخبر الجـديد أو يغايره . أما لماذا كانوا تسعة عشر (أيا كان مدلول هـذا العدد) فهـو أمر يعلمه الله الذى

ينسق الوجود كله ، ويخلق كل شىء بقدر . وهـذا العدد كغيره من الأعداد . والذى يبغى الجدل يمكنه أن يجادل وأن يعترض على أى عدد آخر وعلى أى أمر آخر بنفس الاعتراض . . لماذا كانت السماوات سبعا ؟ لماذا كان خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار ؟ لماذا كان حمل الجنين تسعة أشهر ؟ لماذا تعيش السلاحف آلاف السنين ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ والجواب : لأن صاحب الخلق والأمر يريد ويفعل مايريد ! هذا هو فصل الخطاب فى مثل هذه الأمور . .

« ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون » . .

فهؤلاء وهؤلاء سيجدون فى عدة حراس سقر ما يدعو بعضهم إلى اليقين ويدعو البعض إلى ازدياد الإيمان . فأما الذين أوتوا الكتاب فلا بد أن لديهم شيئا عن هذه الحقيقة ، فإذا سمعوها من القرآن استيقنوا أنه مصدق لما بين يديهم عنها . وأما الذين آمنوا فكل قول من ربهم يزيدهم إيمانا . لأن قلوبهم مفتوحة موصولة تتلقى الحقائق تلقيا مباشرا ؛ وكل حقيقة ترد إليها من عند الله تزيدها أنسا بالله . . وستشعر قلوبهم بحكمة الله فى هذا العدد ،وتقديره الدقيق فى الخلق ، فتزيد قلوبهم إيمانا . وتثبت هذه الحقيقة فى قلوب هؤلاء وهؤلاء فلا يرتابون بعدها فيما يأتيهم من عند الله .

« وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ » . .

وهكذا تترك الحقيقة الواحدة أثرين مختلفين فى القلوب المختلفة . . فبينما الذين أوتوا الكتاب يستيقنون ، والذين آمنوا يزيدون إيمانا ، إذا بالذين كفروا وضعاف القلوب المنافقون فى حيرة يتساءلون : « ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ » . . فهم لايدركون حكمة هذا الأمر الغريب . ولا يسلمون بحكمة الله المطلقة فى تقدير كل خلق : ولا يطمئنون إلى صدق الخبر والخير الكامن فى إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة . .

« كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء » . .

كذلك . بذكر الحقائق وعرض الآيات. فتتلقاها القلوب المختلفة تلقيا مختلفا . ويهتدى بها فريق وفق مشيئة الله ؛ ويضل بها فريق حسب مشيئة الله . فكل أمر مرجعه فى النهاية إلى إرادة الله المطلقة التى ينتهى إليها كل شىء . وهؤلاء البشر خرجوا من يد القدرة باستعداد

مزدوج للهدى وللضلال ؛ فمن اهتدى ومن ضل كلاهما يتصرف داخل حدود المشيئةالتى خلقتهم بهذا الاستعداد المزدوج ، ويسرت لهم التصرف فى هـذا أو ذاك ، فى حدود المشيئة الطليقة ، ووفق حكمة الله المكنونة .

وتصور طلاقة المشيئة وانتهاء كل مايقع فى هذا الوجود إليها تصورا كاملا واسع المدلول ، يعفى العقول من الجدل الضيق حول مايسمونه الجبر والإرداة . وهو الجدل الذى لا ينتهى إلى تصور صحيح ، بسبب أنه يتناول المسألة من زاوية ضيقة ، ويضعها فى أشكال محددة نابعة من منطق الإنسان وتجاربه وتصوراته المحـدودة ! بينما هو يعالج قضية من قضايا الألوهيـة غير المحدودة !

لقد كشف الله لنا عن طريق الهدى وطريق الضلال . وحدد لنا نهجا نسلكه فنهتدى ونسعد ونفوز . وبين لنا نهوجا ننحرف إليها فنضل ونشقى ونخسر . ولم يكلفنا أن نعلم وراء ذلك شيئا ، ولم يهبنا القدرة على علم شىء وراء هذا . وقال لنا : إن إرادتى مطلقة وإن مشيئتى نافذة . . فعلينا أن نعالج ــ بقدر طاقتنا ــ تصور حقيقة الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة . وأن نلتزم النهج الهادى ونتجنب النهوج المضللة . ولاننشغل فى جدل عقيم حول مالم نوهب القدرة على إدراك كنهه من الغيب المكنون . ومن ثم ننظر فنرى كل ماأنفقه المتكلمون فى مسألة القدر على النحو الذى تكلموا به جهدا ضائعا لاطائل وراءه لأنه فى غير ميدانه . .

إننا لانعلم مشيئة الله المغيبة بنا ، ولكننا نعلم ماذا يطلب الله منا لنستحق فضله الذى كتبه على نفسه . وعلينا إذن أن ننفق طاقتنا فى أداء ما كلفنا ، وأن ندع له هو غيب مشيئته فينا . والذى سيكون هو مشيئته ، وعندما يكون سنعرف أن هـذه مشيئته لاقبل كونه ! والذى سيكون وراءه حكمة يعرفها العليم بالكل المطلق . . وهو الله وحده . . وهـذا هو طريق المؤمن فى التصور ومنهجه فى التفكر . . .

« ومايعلم جنود ربك إلا هو » . .

فهى غيب . حقيقتها . ووظيفتها . وقدرتها . . وهو يكشف عما يريد الكشف عنه من أمرها ، وقوله هو الفصل فى شأنها . وليس لقائل بعده أن يجادل أو يماحك أو يحاول معرفة مالم يكشف الله عنه ، فليس إلى معرفة هذا من سبيل . .

« وماهى إلا ذكرى للبشر » . .

« وهى » إما أن تكون هى جنود ربك ، وإما أن تكون هى سقر ومن عليها . وهى من جنود ربك . وذكرها جاء لينبه ويحذر ؛ لالتكون موضوعا للجدل والمماحكة ! والقلوب المؤمنة هى التى تتعظ بالذكرى ،فأما القلوب الضالة فتتخذها مماحكة وجدلا !

* * *

ويعقب على هـذه الوقفة التقريرية لهذه الحقيقة من حقائق الغيب ، ولمناهج التصور الهادية والمضللة . . يعقب على هذا بربط حقيقة الآخرة ، وحقيقة سقر ، وحقيقة جنود ربك، بظواهر الوجود المشهودة فى هذا العالم ، والتى يمر عليها البشر غافلين ، وهى تشى بتقدير الإرادة الخالقة وتدبيرها ، وتوحى بأن وراء هـذا التقدير والتدبير قصدا وغاية ، وحسابا وجزاء :

« كلا والقمر . والليل إذ أدبر : والصبح إذا أسفر . إنهـا لإحدى الـكبر . نذيرا للبشر » . .

ومشاهد القمر ، والليل حين يدبر ، والصبح حين يسفر .. مشاهد موحية بذاتها . تقول للقلب البشرى أشياء كثيرة ؛ وتهمس فى أعماقه بأسرار كثيرة ؛ وتستجيش فى أغواره مشاعر كثيرة . والقرآن يلمس بهذه الإشارة السريعة مكامن هذه المشاعر والأسرار فى القلوب التى يخاطبها ، على خبرة بمداخلها ودروبها !

وقل أن يستيقظ قلب لمشهد القمر حين يطلع وحين يسرى وحين يغيب . . ثم لايعى عن القمر شيئا يهمس له به من أسرار هـذا الوجود ! وإن وقفة فى نور القمر أحيانا لتغسل القلب كما لو كان يستحم بالنور !

وقل أن يستيقظ قلب لمشهد الليل عند إدباره،فى تلك الهدأة التى تسبق الشروق، وعندما يبدأ هـذا الوجود كله يفتح عينيه ويفيق . . ثم لاينطبع فيه أثر من هـذا المشهد وتدب فى أعماقه خطرات رفافة شفافة .

وقل أن يستيقظ قلب لمشهد الصبح عند إسفاره وظهوره ، ثم لاتنبض فيه نابضة من إشراق وتفتح وانتقال شعورى من حال إلى حال ، يجعله أشد ما يكون صلاحية لاستقبال النور الذى يشرق فى الضمائر مع النور الذى يشرق فى النواظر .

والله الذى خلق القلب البشرى يعلم أن هـذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب فى بعض الأحايين ، وكأنها تخلقه من جديد .

ووراء هذه الانبعاثات والإشراقات والاستقبالات مافى القمر، ومافى الليل ، ومافى الصبح من حقيقة عجيبة هائلة يوجه القرآن إليها المدارك ، وينبه إليها العقول . ومن دلالة على القدرة المبدعة والحكمة المدبرة، والتنسيق الإلهى لهذا الكون ، بتلك الدقة التى يحير تصورها العقول.

ويقسم الله سبحانه بهذه الحقائق الكونية الكبيرة لتنبيه الغافلين لأقدارها العظيمة ، ودلالاتها المثيرة . يقسم على أن « سقر » أو الجنود التى عليها ، أوالآخرة ومافيها ، هى إحدى الأمور الكبيرة العجيبة المنذرة للبشر بما وراءهم من خطر :

« إنها لإحدى الكبر ، نذيرا للبشر » ...

والقسم ذاته ، ومحتوياته ، والمقسم عليه بهذه الصورة . . كلها مطارق تطرق قلوب البشر بعنف وشدة ،وتتسق مع النقر فى الناقور ،وما يتركه من صدى فى الشعور .ومع مطلع السورة بالنداء الموقظ : « ياأيها المدثر » والأمر بالنذارة : « قم فأنذر » . . فالجو كله نقر وطرق وخطر !!

* * *

وفى ظل هذه الإيقاعات المثيرة الخطيرة يعلن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها ؛ ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها ؛ ويعلن لها أنها مأخوذة بما تكسبه باختيارها ، مرهونة بأعمالها وأوزارها :

« لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة » . .

فكل فرد يحمل هم نفسه وتبعتها ، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها ،يتقدم بها أو يتأخر، ويكرمها أو يهينها . فهى رهينة بما تكسب ، مقيدة بما تفعل . وقد بين الله للنفوس طريقه لتسلك إليه على بصيرة ، وهو إعلان فى مواجهة المشاهد الكونية الموحية ، ومشاهد سقر التى لاتبقى ولا تذر . . له وقعه وله قيمته !

وعلى مشهد النفوس الرهينة بما كسبت ، المقيدة بما فعلت ، يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقال ، وإرسالهم من القيد ، وتخويلهم حق سؤال المجرمين عما انتهى بهم إلى هذا المصير :

« إلا أصحاب اليمين ، فى جنات يتساءلون عن المجرمين : ما سلككم فى سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين » . . .

وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكول إلى فضل الله الذى يبارك حسناتهم ويضاعفها . وإعلان ذلك فى هـذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مؤثرة . يلمس قلوب المجرمين المكذبين ، وهم يرون أنفسهم فى هذا الموقف المهين ، الذى يعترفون فيه فيطيلون الاعتراف ، بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم فى الدنيا ، ولا يبالونهم ،فى موقف الكرامة والاستعلاء ، يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض فى الموقف : « ماسلككم فى سقر؟ » . . ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين مايلاقون فى الأرض ، وهم يجدون أنفسهم اليوم فى هـذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين فى ذلك المقام المهين . . وقوة المشهد تلقى فى نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون . . وتطوى صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماض انتهى وولى !

والاعتراف الطويل المفصل يتناول الجرائر الكثيرة التى انتهت بالمجرمين إلى سقر ، يعترفون بها هم بألسنتهم فى ذلة المستكين أمام المؤمنين :

« قالوا : لم نك من المصلين » . . وهى كناية عن الإيمان كله ، تشير إلى أهمية الصلاة فى كيان هذه العقيدة ، وتجعلها رمز الإيمان ودليله ، يدل إنكارها على الكفر ، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين .

« ولم نك نطعم المسكين » . . وهذه تلى عدم الإيمان ، بوصفها عبادة الله فى خلقه ، بعد عبادته ــ سبحانه ــ فى ذاته . ويدل ذكرها بهذه القوة فى مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التى كان القرآن يواجهها ، وانقطاع الإحسان للفقير فى هـذه البيئة القاسية ، على الرغم من الفخر بالكرم فى مواضع المفاخرة والاختيال، مع تركه فى مواضع الحاجة والعطف الخالص البرىء .

« وكنا نخوض مع الخائضين » . . وهى تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة ، وحقيقة الإيمان ، وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلامبالاة ولا احتفال .وهى أعظم الجد وأخطر الأمر فى حياة الإنسان ؛ وهى الشأن الذى ينبغى أن يفصل فيه ضميره وشعوره قبل أن يتناول أى شأن آخر من شؤون هـذه الحياة . فعلى أساسها يقوم تصوره وشعوره وقيمه وموازينه . وعلى ضوئها يمضى فى طريق الحياة . فكيف لايقطع فيها برأى ولايأخذها مأخذ الجد ؟ ويخوض فيها مع الخائضين ، ويلعب فيها مع اللاعبين ؟

« وكنا نكذب بيوم الدين » وهـذه أس البلايا . فالذى يكذب بيوم الدين تختل فى يده

جميع الموازين ، وتضطرب فى تقديره جميع القيم ، ويضيق فى حسه مجال الحياة ، حين يقتصر على هـذا العمر القصير المحدود فى هذه الأرض ؛ ويقيس عواقب الأمور بما يتم منهـا فى هذا المجـال الصغير القصير ، فلايطمئن إلى هذه العواقب ، ولايحسب حساب التقدير الأخير الخطير .. ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ويفسد فى يده كل أمر من أمور هذه الدنيا ، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها . . وينتهى من ثم إلى شر مصير .

والمجرمون يقولون : إننا ظللنا على هذه الأحوال . لانصلى ، ولانطعم المسكين ، ونخوض مع الخائضين ، ونـكذب بيوم الدين . .

« حتى أتانا اليقين » . . الموت الذى يقطع كل شك وينهى كل ريب ، ويفصل فى الأمر بلا مرد . . ولا يترك مجالا لندم ولاتوبة ولاعمل صالح . . بعد اليقين . .

ويعقب السياق على الموقف السيىء المهين ، بقطع كل أمل فى تعديل هذا المصير :

« فما تنفعهم شفاعة الشافعين » . .

فقد قضى الأمر ، وحق القول ، وتقرر المصير ، الذى يليق بالمجرمين المعترفين ! وليس هنالك من يشفع للمجرمين أصلا . وحتى على فرض مالاوجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين !

***

وأمام هـذا الموقف المهين اليئوس منه فى الآخرة ، يردهم إلى موقفهم فى الفرصة المتاحة لهم فى الأرض قبل مواجهة ذلك الموقف ؛ وهم يصدون عنها ويعرضون ، بل يفرون من الهدى والخير ووسائل النجاة المعروضة عليهم فيها ، ويرسم لهم صورة مضحكة تثير السخرية والعجب من أمرهم الغريب :

« فمالهم عن التذكرة معرضين ؟كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ؟ » . .

ومشهد حمر الوحش وهى مستنفرة تفر فى كل اتجاه ، حين تسمع زئير الأسد وتخشاه . . مشهد يعرفه العرب . وهو مشهد عنيف الحركة، مضحك أشد الضحك حين يشبه به الآدميون ! حين يخافون ! فكيف إذا كانوا إنمـا ينفرون هذا النفار الذى يتحولون به من آدميين إلى حمر ، لالأنهم خائفون مهددون بل لأن مذكرا يذكرهم بربهم وبمصيرهم ، ويمهد لهم الفرصة ليتقوا ذلك الموقف الزرى المهين ، وذلك المصير العصيب الأليم ؟ !

إنها الريشة المبدعة ترسم هذا المشهد وتسجله فى صلب الـكون ، تتملاه النفوس ، فتخجل

وتستنكف أن تكون فيه ، ويروح النافرون المعرضون أنفسهم يتوارون من الخجل ، ويطامنون من الإعراض والنفار ، مخافة هذا التصوير الحي العنيف !

* * *

تلك هيئتهم الخارجية . « حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » ثم لا يدعهم حتى يرسم نفوسهم من الداخل ، وما يعتلج فيها من المشاعر :

« بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة » . .

فهو الحسد للنبي — صلى الله عليه وسلم — أن يختاره الله ويوحى إليه؛ والرغبة الملحة أن ينال كل منهم هذه المنزلة ، وأن يؤتى صحفا تنشر على الناس وتعلن . . ولا بد أن الإشارة هنا كانت بصدد الكبراء الذين شق عليهم أن يتخطاهم الوحى إلى محمد ابن عبد الله ، فقالوا : « لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ » . . ولقد علم الله أين يضع رسالته واختار لها ذلك الإنسان الكريم الكبير العظيم . فكان الحنق الذى يغلى فى الصدور ، والذى يكشف عنه القرآن ، وهو يعلل ذلك الشماس والنفار !

ثم يستمر فى رسم صورة النفوس من داخلها ، فيضرب عما ذكره من ذلك الطمع والحسد ، ويذكر سببا آخر للإعراض والجحود . وهو يردع فى نفوسهم ذلك الطمع الذى لا يستند إلى سبب من صلاح ولا من استعداد لتلقى وحى الله وفضله :

« كلا ! بل لا يخافون الآخرة » . .

وعـدم خوفهم من الآخرة هو الذى ينأى بهم عن التذكرة ، وينفرهم من الدعوة هـذه النفرة . ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن المريب !

ثم يردعهم مرة أخرى ، وهو يلقى إليهم بالكلمة الأخيرة ، ويدعهم لما يختارون لأنفسهم من طريق ومصير :

« كلا ! إنه تذكرة . فمن شاء ذكره » . .

إنه . هذا القرآن الذى يعرضون عن سماعه ، وينفرون كالحمر ، وهم يضمرون فى أنفسهم الحسد لمحمد ، والاستهتار بالآخرة . . إنه تذكرة تنبه وتذكر . فمن شاء فليذكر . ومن لم يشأ فهـو وشأنه ، وهو ومصيره ، وهو وما يختار من جنـة وكرامة ، أو من سقر ومهانة . . .

* * *

وبعـد أن يثبت مشيئتهم فى اختيار الطريق يعقب بطلاقة المشيئة الإلهية ، وعودة الأمور إليها فى النهاية . وهى الحقيقة التى يحرص القرآن على تقريرها فى كل مناسبة لتصحيح التصور الإيمانى من ناحية طلاقة المشيئة الإلهيـة وشمولها الـكامل الأخـير ، وراء جميع الأحداث والأمور :

« وما يذكرون إلا أن يشاء الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة » . .

فـكل مايقع فى هذا الوجود ، مشدود إلى المشيئة الـكبرى ، يمضى فى اتجاهها وفى داخل مجالها . فلا يقع أن يشاء أحدمن خلقه مايتعارض مع مشيئته ،ومشيئته تسيطر على أقدار الوجود كله ، وهى التى أنشأته وأنشأت نواميسه وسننه ، فهو يمضى بـكل مافيه وكل من فيه فى إطار من تلك المشيئة المطلقة من كل إطار ومن كل حد ومن كل قيد .

والذكر توفيق من الله ييسره لمن يعلم من حقيقة نفسه أنه يستحق التوفيق . والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبها كيف يشاء . فإذا علم من العبـد صدق النيـة وجهه إلى الطاعات .

والعبد لا يعرف ماذا يشاء الله به . فهذا من الغيب المحجوب عنه. ولـكنه يعرف ماذا يريد الله منه ، فهذا مما بينه له . فإذا صدقت نيته فى النهوض بما كلف أعانه الله ووجهه وفق مشيئته الطليقة .

والذى يريد القرآن أن يطبعه فى حس المسلم هو طلاقة هذه المشيئة ، وإحاطتها بكل مشيئة، حتى يـكون التوجه إليها من العبدخالصا، والاستسلام لها ممحضا .. فهذه هى حقيقة الإسلام القلبية التى لا يستقر فى قلب بدونها . وإذا استقرت فيه كيفته تـكييفيا خاصا من داخله ، وأنشأت فيه تصورا خاصا يحتـكم إليه فى كل أحداث الحياة . . وهـذا هو المقصود ابتـداء من تقرير طلاقة المشيئة الإلهيـة وشمولها عقب الحديث عن كل وعد بجنة أو نار ، وبهـدى أو ضلال .

فأما أخذ هذا الإطلاق ،والانحراف به إلى جدل حول الجبر والاختيار ،فهو اقتطاع لجانب من تصور كلى وحقيقة مطلقة ،والتحيز بها فى درب ضيق مغلق لا ينتهى إلى قول مريح . لأنها لم تجىء فى السياق القرآنى لمثل هذا التحيز فى الدرب الضيق المغلق !

«وما يذكرون إلا أن يشاء الله » .. فهم لا يصادمون بمشيئتهم مشيئة الله ، ولا يتحركون فى اتجاه ، إلا بإرادة من الله ، تقدرهم على الحركة والاتجاه .

والله « هو أهل التقوى » . . يستحقها من عباده . فهم مطالبون بها . .

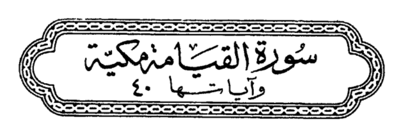
« وأهل المغفرة » . . يتفضل بها على عباده وفق مشيئته .

والتقوى تستأهل المغفرة ، والله ـ سبحانه ـ أهل لهما جميعا.

* * *

بهـذه التسبيحة الخاشعة تختم السورة ، وفى النفس منها تطلع إلى وجه الله الـكريم ، أن يشاء بالتوفيق إلى الذكر ، والتوجيه إلى التقوى ، والتفضل بالمغفرة .

« هو أهل التقوى وأهل المغفرة » . .



بسم الله الرحمن الرحيم

« لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا ! لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ .

« لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ .

« كَلَّا ! بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ .

« كَلَّا ! إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ : مَنْ رَاقٍ ؟ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ .

« أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ؟ * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ؟ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ؟ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ؟ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ؟ » .

هذه السورة الصغيرة تحشد على القلب البشرى من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد ، والإيقاعات واللمسات، ما لاقبل له بمواجهته ولاالتفلت منه .. تحشدها بقوة، فى أسلوب خاص، يجعل لها طابعا قرآنيا مميزا ، سواء فى أسلوب الأداء التعبيرى ، أوأسلوب الأداء الموسيقى، حيث يجتمع هذا وذاك على إيقاع تأثير شعورى قوى ، تصعب مواجهته ويصعب التفلت منه أيضا !

إنها تبدأ فى الآيتين الأوليين منها بإيقاع عن القيامة ، وإيقاع عن النفس : « لاأقسم بيوم القيامة ولاأقسم بالنفس اللوامة » . . ثم يستطرد الحديث فيها متعلقا بالنفس ومتعلقا بالقيامة ، من المطلع إلى الختام ، تزاوج بين النفس وبين القيامة حتى تنتهى . وكأن هـذا المطلع إشارة إلى موضوع السورة . أوكأنه اللازمة الإيقاعية التى ترتد إليها كل إيقاعات السورة . بطريقة دقيقة جميلة . .

من تلك الحقائق الكبيرة التى تحشدها هذه السورة فى مواجهة القلب البشرى ،وتضرب بها عليـه حصارا لامهرب منه . . حقيقة الموت القاسية الرهيبة التى تواجه كل حى ، فلا يملك لها ردا ، ولايملك لها أحد ممن حوله دفعا . وهى تتكرر فى كل لحظة ، ويواجهها الكبار والصغار ،والأغنياء والفقراء،والأقوياء والضعاف ؛ويقف الجميع منها موقفا واحدا .. لاحيلة . ولاوسيلة . ولاقوة . ولاشفاعة . ولادفع . ولاتأجيل . . مما يوحى بأنها قادمة من جهة عليا لايملك البشر معها شيئا . ولامفر من الاستسلام لها ، والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليا .. وهـذا هو الإيقاع الذى تمس به السورة القلوب وهىتقول : « كلا إذابلغت التراقى ، وقيل: من راق ؟ وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . . إلى ربك يومئذ المساق » . .

ومن تلك الحقائق الكبيرة التى تعرضهاالسورة ، حقيقة النشأة الأولى ، ودلالتها على صدق الخبر بالنشأة الأخرى ، وعلى أن هناك تدبيرا فى خلق هذا الإنسان وتقديرا . . وهى حقيقة يكشف الله للناس عن دقة أدوارها وتتابعها فى صنعة مبدعة ، لايقدر عليها إلا الله ، ولايدعيها أحد ممن يكذبون بالآخرة ويتمارون فيها .فهى قاطعة فى أن هناك إلها واحدايدبر هـذا الأمر ويقدره ؛ كما أنها بينة لاترد على يسر النشأة الآخرة ، وإيحاء قوى بضرورة النشأة الآخرة . تمشيا مع التقدير والتدبير الذى لايترك هـذا الإنسان سدى ، ولايدع حياته وعمله بلا وزن ولاحساب . . وهـذا هو الإيقاع الذى تمس السورة به القلوب وهى تقول فى أولها : « أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ » ثم تقول فى آخرها : « أيحسب الإنسان أن يترك

سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » . .

ومن المشاهد المؤثرة التى تحشدها السورة ، وتواجه بها القلب البشرى مواجهة قوية . . مشهد يوم القيامة ومايجرى فيه من انقلابات كونية ، ومن اضطرابات نفسية ، ومن حيرة فى مواجهة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول فى صميم الكون ، وفى أغوار النفس وهى تروغ من هنا ومن هناك كالفأر فى المصيدة ! وذلك ردا على تساؤل الإنسان عن يوم القيامة فى شك واستبعاد ليومها المغيب ، واستهانة بها ولجاج فى الفجور . فيجيء الرد فى إيقاعات سريعة ، ومشاهد سريعة ، وومضات سريعة : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل : أيان يوم القيامة ؟ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ كلا ! لاوزر ، إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولوألقى معاذيره ! » . .

ومن هذه المشاهد مشهد المؤمنين المطمئنين إلى ربهم ، المتطلعين إلى وجهه الكريم فى ذلك الهول . ومشهد الآخرين المقطوعى الصلة بالله ، وبالرجاء فيه ، المتوقعين عاقبة ماأسلفوا من كفر ومعصية وتكذيب . وهومشهد يعرض فى قوة وحيوية كأنه حاضر لحظة قراءة القرآن. وهو يعرض ردا على حب الناس للعاجلة ، وإهمالهم للآخرة . وفى الآخرة يكون هذا الذى يكون : « كلا ! بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ! » . .

وفى ثنايا السورة وحقائقها تلك ومشاهدها تعترض أربع آيات تحتوى توجيها خاصا للرسول — صلى الله عليه وسلم — وتعليما له فى شأن تلقى هذا القرآن . ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة فى السورة ذاتها . إذ كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يخاف أن ينسى شيئا مما يوحى إليه ، فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه إلى استذكار الوحى فقرة فقرة فى أثناء تلقيه ؛ وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه . فجاءه هذا التعليم : « لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ».. جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحى ، وحفظ هذا القرآن ، وجمعه ، وبيان مقاصده . . كل أولئك موكول إلى صاحبه . ودوره هو ، هو التلقى والبلاغ . فليطمئن

بالا ، وليتلق الوحي كاملا ، فيجده فى صدره منقوشا ثابتا . . وهكذا كان . . فأما هذا التعليم فقد ثبت فى موضعه حيث نزل . . أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت فى أى غرض كان؟ ولأى أمر أراد ؟ وهذه كلة من كلماته تثبت فى صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب . . ودلالة إثبات هذه الآيات فى موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة فى شأن كل كلمات الله فى أى اتجاه . . وفى شأن هذا القرآن وتضمنه لكل كلمات الله التى أوحى بها إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يُخرم منها حرف ، ولم تند منها عبارة . فهو الحق والصدق والتحرج والوقار !

* * *

وهكذا يشعر القلب — وهو يواجه هذه السورة — أنه محاصر لا مهرب . مأخوذ بعمله لا يفلت . لا ملجأ له من الله ولا عاصم . مقدرة نشأته وخطواته بعلم الله وتدبيره . فى النشأة الأولى وفى النشأة الآخرة سواء . بينما هو يلهو ويلعب ويغتر ويتبطر : « فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى » . .

وفى مواجهة تلك الحشود من الحقائق والمؤثرات واللمسات والإيحاءات يسمع التهديد الملفوف: « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » فيكون له وقعه ومعناه !

وهكذا تعالج السورة عناد هذا القلب وإعراضه وإصراره ولهوه . وتشعره بالجد الصارم الحازم فى هذا الشأن . شأن القيامة . وشأن النفس . وشأن الحياة المقدرة بحساب دقيق . ثم شأن هذا القرآن الذى لا يخرم منه حرف ، لأنه من كلام العظيم الجليل ، الذى تتجاوب جنبات الوجود بكلماته ، وتثبت فى سجل الكون الثابت ، وفى صلب هذا الكتاب الكريم .

* * *

وقد عرضنا نحن لحقائق السورة ومشاهدها فرادى لمجرد البيان . وهى فى نسق السورة شىء آخر . إذ أن تتابعها فى السياق ، والمزاوجة بينها هنا وهناك ، ولمسة القلب بجانب من الحقيقة مرة ، ثم العودة إليه بالجانب الآخر بعد فترة . . كل ذلك من خصائص الأسلوب القرآنى فى مخاطبة القلب البشرى ؛ مما لا يبلغ إليه أسلوب آخر ، ولا طريقة أخرى . .

فلنأخذ فى مواجهة السورة كما هى فى سياقها القرآنى الخاص :

* * *

« لاأقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ، أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوى بنانه ، بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ،يسأل :أيان يوم القيامة ؟ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر .. يقول الإنسان يومئذ :أين المفر ؟ كلا لاوزر . إلى ربك يومئذ المستقر ،ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ، بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » . .

هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقع فى الحس من القسم المباشر ؛وهذا الوقع هو المقصود من العبارة ، وهو يتم أحسن تمام بهذا الأسلوب الخاص ، الذى يتكرر فى مواضع مختلفة من القرآن . . ثم تبرز من ورائه حقيقة القيامة وحقيقة النفس اللوامة.

وحقيقة القيامة سيرد عنها الكثير فى مواضعه فى السورة. فأما النفس اللوامة ففى التفسيرات المأثورة أقوال متنوعة عنها . . فمن الحسن البصرى : إن المؤمن والله ماتراه إلا يلوم نفسه : ماأردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ماأردت بحديث نفسى ؟ وإن الفاجر يمضى قدما ما يعاتب نفسه . . وعن الحسن : ليس أحد من أهل السماوات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة . . وعن عكرمة :تلوم على الخير والشر : لو فعلت كذا وكذا ! كذلك عن سعيد ابن جبير . . وعن ابن عباس: هى النفس اللؤوم. وعنه أيضا :اللوامة المذمومة .وعن مجاهد: تندم على مافات وتلوم عليه .. وعن قتادة : الفاجرة .. وقال جرير :وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التى تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على مافات .

ونحن نختار فى معنى « النفس اللوامة » قول الحسن البصرى : « إن المؤمن والله ماتراه إلا يلوم نفسه : ماأردت بكلمتى ؟ ماأردت بأكلتى؟ ماأردت بحديث نفسى؟وإن الفاجر يمضى قدما مايعاتب نفسه » . .

فهذه النفس اللوامة المتيقظة التقية الخائفة المتوجسة التى تحاسب نفسها ، وتتلفت حولها ، وتتبين حقيقة هواها ، وتحذر خداع ذاتها هى النفس الكريمة على الله ، حتى ليذكرها مع القيامة . ثم هى الصورة المقابلة للنفس الفاجرة . نفس الإنسان الذى يريد أن يفجر ويمضى قدما فى الفجور ، والذى يكذب ويتولى ويذهب إلى أهله يتمطى دون حساب لنفسه ودون تلوم ولاتحرج ولامبالاة !

« لاأقسم بيوم القيامة ، ولاأقسم بالنفس اللوامة » . . على وقوع هذه القيامة ، ولكنه

لما عدل عن القسم ، عدل عن ذكر القسم به ، وجاء به فى صورة أخرى كأنها ابتداء لحديث بعد التنبيه إليه بهذا المطلع الموقظ :

« أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوى بنانه » . .

وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هى صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية ، الذاهبة فى التراب ، المتفرقة فى الثرى ، لإعادة بعث الإنسان حيا ! ولعلها لا تزال كذلك فى بعض النفوس إلى يومنا هـذا ! والقرآن يرد على هـذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكدا وقوعه : « بلى ! قادرين على أن نسوى بنانه » . . والبنان أطراف الأصابع ؛ والنص يؤكد عملية جمع العظام ، بما هو أرقى من مجرد جمعها ، وهو تسوية البنان ، وتركيبه فى موضعه كما كان ! وهى كناية عن إعادة التكوين الإنسانى بأدق مافيه ، وإكماله بحيث لا تضيع منه بنان ، ولا تختل عن مكانها ، بل تسوى تسوية ، لا ينقص معها عضو ولا شكل هـذا العضو ، مهما صغر ودق !

ويكتفى هنا بهذا التقرير المؤكد ، وسيجىء فى نهاية السورة دليل آخر من واقع النشأة الأولى . إنما يخلص هنا إلى الكشف عن العلة النفسية فى هذا الحسبان ، وتوقع عدم جمع العظام . . إن هـذا الإنسان يريد أن يفجر ، ويمضى قدما فى الفجور ، ولا يريد أن يصده شىء عن فجوره ، ولا أن يكون هناك حساب عليه وعقاب . ومن ثم فهو يستبعد وقوع البعث ، ويستبعد مجىء يوم القيامة :

« بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل أيان يوم القيامة ؟ » . .

والسؤال بأيان ــ هذا اللفظ المديد الجرس ــ يوحى باستبعاده لهذا اليوم . وذلك تمشيا مع رغبته فى أن يفجر ويمضى فى فجوره ، لا يصده شبح البعث وشبح الآخرة . . والآخرة لجام للنفس الراغبة فى الشر ، ومصد للقلب المحب للفجور . فهو يحاول إزالة هـذا المصد ، وإزاحة هـذا اللجام ، لينطلق فى الشر والفجور بلا حساب ليوم الحساب .

ومن ثم كان الجواب على التهكم بيوم القيامة واستبعاد موعدها ، سريعا خاطفا حاسما ، ليس فيه ريث ولا إبطاء حتى فى إيقاع النظم ، وجرس الألفاظ . وكان مشهدا من مشاهد القيامة تشترك فيه الحواس والمشاعر الإنسانية ، والمشاهد الكونية :

« فإذا برق البصر . وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ » . .

فالبصر يخطف ويتقلب سريعا سريعا تقلب البرق وخطفه . والقمر يخسف ويطمس نوره والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق . ويختل نظامهما الفلكي المعهود ، حيث ينفرط ذلك النظام الكوني الدقيق . . وفي وسط هذا الذعر والانقلاب ، يتساءل الإنسان المرعوب : « أين المفر ؟ » ويبدو في سؤاله الارتياع والفزع ، وكأنما ينظر في كل اتجاه ، فإذا هو مسدود دونه ، مأخوذ عليه !

ولا ملجأ ولا وقاية ، ولا مفر من قهر الله وأخذه ، والرجعة إليه ، والمستقر عنده ؛ ولا مستقر غيره :

« كلا ! لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر » . .

وما كان يرغب فيه الإنسان من المضي في الفجور بلا حساب ولا جزاء ، لن يكون يومئذ ، بل سيكون كل ما كسبه محسوبا ، وسيذكر به إن كان نسيه ، ويؤخذ به بعد أن يذكره ويراه حاضرا :

« ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » . .

بما قدمه من عمل قبل وفاته ، وبما أخره وراءه من آثار هذا العمل خيرا كان أم شرا . فمن الأعمال مايخلف وراءه آثارا تضاف لصاحبها في ختام الحساب !

ومهما اعتذر الإنسان بشتى المعاذير عما وقع منه ، فلن يقبل منها عذر ، لأن نفسه موكولة إليه ، وهو موكل بها ، وعليه أن يهديها إلى الخير ويقودها . فإذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها :

« بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » . .

ومما يلاحظ أن كل شيء سريع قصير : الفقر . والفواصل . والإيقاع الموسيقي . والمشاهد الخاطفة . وكذلك عملية الحساب : « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » هكذا في سرعة وإجمال . . ذلك أنه رد على استطالة الأمد ، والاستخفاف بيوم الحساب !

* * *

ثم تجيء الآيات الأربعة الخاصة بتوجيه الرسول — صلى الله عليه وسلم — في شأن الوحي وتلقي هذا القرآن :

« لاتحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » . .

وبالإضافة إلى ماقلناه فى مقدمة السورة عن هذه الآيات، فإن الإيحاء الذى تتركه فى النفس هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن : وحيا وحفظا وجمعا وبيانا ؛ وإسناده إليه سبحانه وتعالى بكليته . ليس للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أمره إلا حمله وتبليغه . ثم لهفة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وشدة حرصه على استيعاب مايوحى إليـه ؛ وأخذه مأخذ الجد الخالص،وخشيته أن ينسىمنه عبارة أو كلمة ، مما كان يدعوه إلى متابعة جبريل عليه السلام فى التلاوة آية آية وكلة كلة يستوثق منها أن شيئا لم يفته ، ويتثبت من حفظه له فيما بعد !

وتسجيل هذا الحادث فى القرآن المتلو له قيمته فى تعميق هذه الإيحاءات التى ذكرناها هنا وفى مقدمة السورة بهذا الخصوص .

***

ثم يمضى سياق السورة فى عرض مشاهد القيامة وما يكون فيها من شأن النفس اللوامة ، فيذكرهم بحقيقة نفوسهم وما يعتلج فيهـا من حب للدنيا وانشغال ، ومن إهمال للآخرة وقلة احتفال ؛ ويواجههم بموقفهم فى الآخرة بعد هذا وما ينتهى إليه حالهم فيها . ويعرض لهم هـذا الموقف فى مشهد حى قوى الإيحاء عميق الإيقاع :

« كلا . بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ؛ ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » . .

وأول مايلحظ من ناحية التناسق فى السياق هو تسمية الدنيا بالعاجلةفى هذا الموضع . ففضلا عن إيحاء اللفظ بقصرهذه الحياة وسرعة انقضائهاــوهوالإيحاء المقصود ــ فإن هناك تناسقا بين ظل اللفظ وظل الموقف السابق المعترض فى السياق ، وقول الله تعالى لرسوله ــ صلى الله عليـه وسلم ــ « لاتحرك به لسانك لتعجل به » . . فهـذا التحريك وهـذه العجلة هى أحد ظلال السمة البشرية فى الحياة الدنيا . . وهو تناسق فى الحس لطيف دقيق يلحظه التعبير القرآنى فى الطريق !

ثم نخلص إلى الموقف الذى يرسمه هذا النص القرآنى الفريد :

« وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » . .

إن هذاالنص ليشير إشارة سريعة إلىحالة تعجز الكلمات عن تصويرها؛ كما يعجزالإدراك عن تصورها بكل حقيقتها . ذلكحين يمد الموعودين السعداء بحالة من السعادة لاتشبهها حالة . حتى لتتضاءل إلىجوارها الجنة بكل ما فيها من ألوان النعيم !

هذه الوجوه الناضرة . . نضرها أنها إلى ربها ناظرة . .

إلى ربها . . ؟ ! فأى مستوى من الرفعة هذا ؟ أى مستوى من السعادة ؟

إن روح الإنسان لتستمتع أحيانا بلمحة من جمال الإبداع الإلهى فى الكون أو النفس ، تراها فى الليلة القمراء . أو الليل الساجى . أوالفجر الوليد . أو الظل المديد. أوالبحر العباب . أو الصحراء المنسابة . أو الروض البهيج . أو الطلعة البهية . أو القلب النبيل . أو الإيمان الواثق . أو الصبر الجميل . . إلى آخر مطالع الجمال فى هذا الوجود . . فتغمرها النشوة ، وتفيض بالسعادة ، وترف بأجنحة من نور فى عوالم مجنحة طليقة . وتتوارى عنها أشواك الحياة، وما فيها من ألم وقبح ، وثقلة طين وعرامة لحم ودم ، وصراع شهوات وأهواء . .

فكيف ؟ كيف بها وهى تنظر ــ لا إلى جمال صنع الله ــ ولكن إلى جمال ذات الله ؟

ألا إنه مقام يحتاج أولا إلى مد من الله . ويحتاج ثانيا إلى تثبيت من الله . ليملك الإنسان نفسه ، فيثبت ، ويستمتع بالسعادة ، التى لايحيط بها وصف ، ولايتصور حقيقتها إدراك !

« وجوه يومئذ ناضرة .. إلى ربها ناظرة » . .

ومالها لاتتنضر ؛ وهى إلى جمال ربها تنظر ؟

إن الإنسان لينظر إلى شىء من صنع الله فى الأرض . من طلعة بهية ، أوزهرة ندية ، أوجناح رفاف ، أوروح نبيل ، أوفعل جميل . فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه ، فيبدو فيها الوضاءة والنضارة . فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال . مطلقا من كل مافى الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال ؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك المقام ، إلا وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقى الذى يعز على الخيال ! كل شائبة لا فيما حولها فقط ، ولكن فيها هى ذاتها من دواعى النقص والحاجة إلى شىء ماسوى النظر إلى الله . .

فأما كيف تنظر ؟ وبأى جارحة تنظر ؟ وبأى وسيلة تنظر ؟ . . فذلك حديث لايخطر على قلب يمسه طائف من الفرح الذى يطلقه النص القرآنى ، فى القلب المؤمن ، والسعادة التى يفيضها على الروح ، والتشوف والتطلع والإنطلاق !

فمابال أناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفائض بالفرح والسعادة؟ويشغلونها بالجدل حول مطلق ، لاتدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل ومقرراته ؟ !

إن ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة، هو فقط محط الرجاء فى التقائها بالحقيقة الطليقة يومذاك . وقبل هذا الانطلاق سيعز عليها أن تتصور — مجرد تصور — كيف يكون ذلك اللقاء .

وإذن فقد كان جدلا ضائعا ذلك الجدل الطويل المديد الذى شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضيهم من أهل السنة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية فى مثل ذلك المقام .

لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض ؛ ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل فى الأرض ؛ ويتصورون الأمر بالمدارك المحدودة المجال .

إن مدلول الكلمات ذاته مقيد بما تدركه عقولنا وتصوراتنا المحدودة . فإذا انطلقت وتحررت من هذه التصورات فقد تتغير طبيعة الكلمات . فالكلمات ليست سوى رموز يختلف ما ترمز إليه بحسب التصورات الكامنة فى مدارك الإنسان . فإذا تغيرت طاقته تغير معها رصيده من التصورات ، وتغيرت معها طبيعة مدلول الكلمات . ونحن نتعامل فى هذه الأرض بتلك الرموز على قدر حالنا ! فما لنا نخوض فى أمر لا يثبت لنا منه حتى مدلول الكلمات ؟ !

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادىء ، وفيض الفرح المقدس الطهور ، الذى ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ما نملك . ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض ؛ فهذا التطلع ذاته نعمة . لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم . .

« ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » . .

وهى الوجوه الكالحة المتقبضة التعيسة ، المحجوبة عن النظر والتطلع ، بخطاياها وارتكاسها وكثافتها وانطماسها . وهى التى يشغلها ويحزنها ويخلع عليها البسر والكلوحة توقعها أن تحل بها الكارثة القاصمة للظهر ، المحطمة للفقار . . الفاقرة . وهى من التوقع والتوجس فى كرب وكلوحة وتقبض وتنغيص . .

فهذه هى الآخرة التى يذرونها ويهملونها ؛ ويتجهون إلى العاجلة يحبونها ويحفلونها . ووراءهم هذا اليوم الذى تختلف فيه المصائر والجدود ، هذا الاختلاف الشاسع البعيد ! ! ! من وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة إلى وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ! ! !

* * *

وإذا كانت مشاهد القيامة . . إذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، وقال الإنسان يومئذ أين المفر . ولامفر . وإذا اختلفت المصائر والجدود، ذلك الاختلاف الشاسع البعيد ، فكانت وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ..

إذا كانت تلك المشاهد تستمد قوتها وإيقاعها فى النفس ، من قوة الحقيقة الكامنة فيها ، وقوة الأداء القرآنى الذى يشخصها ويحييها ، فإن السورة بعد عرض تلك المشاهد تقرب وتقرب حتى تلمس حس المخاطبين بمشهد آخر حاضر واقع مكرور ، لاتمر لحظة حتى يواجههم فى هذه الأرض بقوته ووضوحه ووزنه الثقيل !

إنه مشهد الموت . الموت الذى ينتهى إليه كل حى ، والذى لايدفعه عن نفسه ولا عن غيره حى. الموت الذى يفرق الأحبة، ويمضى فى طريقه لايتوقف ،ولا يتلفت ، ولا يستجيب لصرخة ملهوف ،ولا لحسرة مفارق ، ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف ! الموت الذى يصرع الجبابرة بنفس السهولة التى يصرع بها الأقزام ، ويقهر بها المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء ! الموت الذى لاحيلة للبشر فيه وهم مع هذا لايتدبرون القوة القاهرة التى تجريه :

« كلا ! إذا بلغت التراقى ، وقيل : من راقٍ ؟ وظن أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق - إلى ربك يومئذ المساق » . .

إنه مشهد الاحتضار، يواجههم به النص القرآنى كأنه حاضر ، وكأنه يخرج من ثنايا الألفاظ ويتحرك كما تخرج ملامح الصورة من خلال لمسات الريشة !

« كلا إذا بلغت التراقى » . . وحين تبلغ الروح التراقى يكون النزع الأخير ، وتكون السكرات المذهلة ، ويكون الكرب الذى تزوغ منه الأبصار . . ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ الروح المكروب : «وقيل : من راقٍ ؟ » لعل رُقية تفيد ! . . وتلوّى المكروب من السكرات والنزع .. « والتفت الساق بالساق » .. وبطلت كل حيلة ، وعجزت كل وسيلة ، وتبين الطريق الواحد الذى يساق إليه كل حى فى نهاية المطاف :

« إلى ربك يومئذ المساق » . .

إن المشهد ليكاد يتحرك وينطق . وكل آية ترسم حركة . وكل فقرة تخرج لمحة . وحالة الاحتضار ترتسم ويرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة ، التى

لا دافع لها ولا راد . . ثم تظهر النهاية التى لا مفر منها . . « إلى ربك يومئذ المساق » . .

ويسدل الستار على المشهد الفاجع ، وفى العين منه صورة ، وفى الحس منه أثر ، وعلى الجو كله وجوم صامت مرهوب .

* * *

وفى مواجهة المشهد المكروب الملهوف الجادالواقع يعرض مشهد اللاهين المكذبين، الذين لايستعدون بعمل ولا طاعة ، بل يقـدمون المعصية والتولى ، فى عبث ولهو ، وفى اختيال بالمعصية والتولى :

« فلا صدق ولا صلى ، ولـكن كذب وتولى ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى » ! . .

وقد ورد أن هذه الآيات تعنى شخصا معينا بالذات ،قيل هو أبو جهل « عمرو ابن هشام » . .

وكان يجىء أحيانا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسمع منه القرآن . ثم يذهب عنه ، فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى ؛ويؤذى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقول، ويصد عن سبيل الله . . ثم يذهب مختالا بما يفعل ، فخورا بما ارتـكب من الشر ، كأنما فعل شيئا يذكر . .

والتعبير القرآنى يتهكم به، ويسخر منه ،ويثير السخرية كذلك ،وهو يصور حركة اختياله بأنه « يتمطى! » يمط فى ظهره ويتعاجب تعاجبا ثقيلا كريها !

وكم من أبى جهل فى تاريخ الدعوة إلى الله.. يسمع ويعرض ، ويتفنن فى الصد عن سبيل الله ، والأذى للدعاة ، ويمكر مكر السيىء ، ويتولى وهو فخور بمـا أوقع من الشر والسوء ؛ وبمـا أفسد فى الأرض ، وبما صد عن سبيل الله ، وبمـا مكر لدينه وعقيدته وكاد !

والقرآن يواجه هذه الخيلاء الشريرة بالتهديد والوعيد :

« أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » . .

وهو تعبير اصطلاحى يتضمن التهديد والوعيد ، وقد أمسك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخناق أبى جهل مرة ، وهزه ، وهو ويقول له : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » . . فقال عدو الله : أتوعدنى يامحمد ؟ والله لاتستطيع أنت ولاربك شيئا . وإنى لأعز من مشى بين جبليها » ! ! فأخذه الله يوم بدر بيد المؤمنين بمحمد ـ صـلى الله عليـه وسلم ـ وبرب محمد القوى القهار المتـكبر . ومن قبله قال فرعون لقومه : « ماعلمت لـكم

من إله غيرى » . . وقال : « أليس لى ملك مصر وهــذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ » . . ثم أخذه الله كذلك .

وكم من أبى جهل فى تاريخ الدعوات يعتز بعشيرته وبقوته وبسلطانه ؟ ويحسبها شيئا ؟ وينسى الله وأخذه . حتى يأخذه أهون من بعوضة ، وأحقر من ذبابة . . إنما هو الأجل الموعود لا يستقدم لحظة ولا يستأخر .

* * *

وفى النهاية يمس القلوب بحقيقة أخرى واقعية فى حياتهم . لها دلالتها على تدبير الله وتقديره لحياة الإنسان . ولها دلالتها كذلك على النشأة الآخرة التى ينـكرونها أشد الإنـكار . ولا مفر من مواجهتها ، ولا حيلة فى دفع دلالتها :

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى؟ فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ » . .

وهــذا المقطع الأخير العميق الإيقاع ، يشتمل على لفتات عميقة إلى حقائق كبيرة . ما كان المخاطبون بهذا القرآن يخطرونها على بالهم فى ذلك الزمان . وأولى هــذه اللفتات تلك اللفتة إلى التقدير والتدبير فى حياة الإنسان :

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى » . .

فلقد كانت الحياة فى نظر القوم حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية . . أرحام تدفع وقبور تبلع . . وبين هاتين لهو ولعب ، وزينة وتفاخر ، ومتاع قريب من متاع الحيوان . . فأما أن يكون هناك ناموس ، ووراءه هدف ، ووراء الهدف حـكمة ؛ وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يجرى إلى غاية مقدرة ، وأن ينتهى إلى حساب وجزاء، وأن تكون رحلته على هــذه الأرض ابتلاء ينتهى إلى الحساب والجزاء . . أما هــذا التصور الدقيق المتناسق ، والشعور بمـا وراءه من ألوهية قادرة مدبرة حكيمة ، تفعل كل شىء بقدر ، وتنهى كل شىء إلى نهاية .. أما هــذا فـكان أبعد شىء عن تصور الناس ومداركهم . فى ذلك الزمان .

والذى يميز الإنسان عن الحيوان، هو شعوره باتصال الزمان والأحداث والغايات . وبوجود الهدف والغاية من وجوده الإنسانى ، ومن الوجود كله من حوله . وارتقاؤه فى سلم الإنسانية يتبع نمو شعوره هــذا وسعته ، ودقة تصوره لوجود الناموس ، وارتباط الأحداث والأشياء

بهذا الناموس . فلا يعيش عمره لحظة لحظة ، ولا حادثة حادثة، بل يرتبط فى تصوره الزمان والمكان والماضى والحاضر والمستقبل . ثم يرتبط هذا كله بالوجود الكبير ونواميسه . ثم يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة لا تخلق الناس عبثا ولا تتركهم سدى .

وهذا هو التصور الكبير الذى نقل القرآن الناس إليه منذ ذلك العهد البعيد ، نقلة هائلة بالقياس إلى التصورات السائدة إذ ذاك ، وما تزال هائلة بالقياس إلى سائر التصورات الكونية التى عرفتها الفلسفة قديما وحديثا (١) .

وهذه اللمسة : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى » .. هى إحدى لمسات القرآن التوجيهية للقلب البشرى، كى يتلفت ويستحضر الروابط والصلات ، والأهداف والغايات، والعلل والأسباب ، التى تربط وجوده بالوجود كله ، وبالإرادة المدبرة للوجود كله .

وفى غير تعقيد ولا غموض يأتى بالدلائل الواقعة البسيطة التى تشهد بأن الإنسان لن يترك سدى . . إنها دلائل نشأته الأولى :

« ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ؟ » .

فما هذا الإنسان ؟ مم خلق ؟ وكيف كان ؟ وكيف صار ؟ وكيف قطع رحلته الكبيرة حتى جاء إلى هذا الكوكب ؟

ألم يك نطفة صغيرة من الماء، من منى يمنى ويراق ؟ ألم تتحول هذه النطفة من خلية واحدة صغيرة إلى علقة ذات وضع خاص فى الرحم، تعلق بجدرانه لتعيش وتستمد الغذاء ؟ فمن ذا الذى ألهمها هذه الحركة ؟ ومن ذا الذى أودعها هذه القدرة ؟ ومن ذا الذى وجهها هذا الاتجاه ؟

ثم من ذا الذى خلقها بعد ذلك جنينا معتدلا منسق الأعضاء ؟ مؤلفا جسمه من ملايين الملايين من الخلايا الحية ، وهو فى الأصل خلية واحدة مع بويضة؟ والرحلة المديدة التى قطعها من الخلية الواحدة إلى الجنين السوى ــ وهى أطول بمراحل من رحلته من مولده إلى مماته ــ والتغيرات التى تحدث فى كيانه فى الرحلة الجنينية أكثر وأوسع مدى من كل ما يصادفه من الأحداث فى رحلته من مولده إلى مماته ! فمن ذا الذى قاد هذه الرحلة المديدة ، وهو خليقة صغيرة ضعيفة ، لا عقل لها ولا مدارك ولا تجارب ؟ !

(١) كتاب : فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان (بحث أرجو التوفيق لإخراجه)

ثم فى النهاية . من ذا الذى جعل من الخلية الواحدة .. الذكر والأنثى ؟ . . أى إرادة كانت لهذه الخلية فى أن تكون ذكرا ؟ وأى إرادة لتلك فى أن تكون أنثى ؟ أم من ذا الذى يزعم أنه تدخل فقاد خطواتهما فى ظلمات الرحم إلى هذا الاختيار ؟ !

إنه لامفر من الإحساس باليد اللطيفة المدبرة التى قادت النطفة المراقة فى طريقها الطويل ، حتى انتهت بها إلى ذلك المصير . . « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » . .

وأمام هذه الحقيقة التى تفرض نفسها فرضا على الحس البشرى ، يجيء الإيقاع الشامل لجلة من الحقائق التى تعالجها السورة :

« أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » . .

بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على أن يحيي الموتى !

بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على النشأة الأخرى!

بلى ! سبحانه ! وما يملك الإنسان إلا أن يخشع أمام هذه الحقيقة التى تفرض نفسها فرضا .

وهكذا تنتهى السورة بهذا الإيقاع الحاسم الجازم ، القوى العميق ، الذى يملأ الحس ويفيض ، بحقيقة الوجود الإنسانى وما وراءها من تدبير وتقدير . .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُوراً ؟ * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً .

« إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيراً * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيراً .

« فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ، إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيراً * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ

سُنْدُسٍ خضرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ،وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً .

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلًا .

« إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا .

« إِن هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً » .

فى بعض الروايات أن هـذه السورة مدنيـة . ولـكنها مكية ؛ ومكيتها ظاهرة جدا ، فى موضوعها وفى سياقها ، وفى سماتها كلها . لهـذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيتها . بل نحن نلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكى . . تشى بهذا صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة ، وصور العذاب الغليظ ، كما يشىء به توجيه الرسول ــ صلى الله عليـه وسلم ــ إلى الصبر لحكم ربه ، وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور ؛ مما كان يتنزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها فى مكة ، مع إمهال المشركين وتثبيت الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ على الحق الذى نزل عليه ، وعدم الميل إلى مايدهنون به . . كما جاء فى سورة القلم ، وفى سورة المزمل ، وفى سورة المدثر ، مما هو قريب من التوجيه فى هـذه السورة . . واحتمال أن هـذه السورة مدنية ــ فى نظرنا ــ هو احتمال ضعيف جدا ، يمكن عدم اعتباره !

* * *

والسورة فى مجموعها هتاف رخى ندى إلى الطاعة ، والالتجاء إلى الله ، وابتغاء رضاه ،

وتذكر نعمته ، والإحساس بفضله ، واتقاء عذابه ، واليقظة لابتلائه ، وإدراك حكمته فى الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء . .

وهى تبدأ بلمسة رفيقة للقلب البشرى : أين كان قبل أن يكون ؟ من الذى أوجده ؟ومن الذى جعله شيئا مذكورا فى هـذا الوجود ؟ بعد أن لم يكن له ذكر ولاوجود : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ » . .

تتلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته ،وحكمة الله فى خلقه ، وتزويده بطاقاته ومداركه: « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » . . .

ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق ، وعونه على الهدى،وتركه بعد ذلك لمصيره الذى يختاره: « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » . .

وبعد هـذه اللمسات الثلاثة الموحية ، وما تثيره فى القلب من تفكير عميق ، ونظرة إلى الوراء ، ثم نظرة إلى الأمام ، ثم التحرج والتدبر عند اختيار الطريق . . بعد هـذه اللمسات الثلاثة تأخذ السورة فى الهتاف للإنسان وهو على مفرق الطريق لتحذيره من طريق النار . . وترغيبه فى طريق الجنة ،بكل صور الترغيب ، وبكل هواتف الراحة والمتاع والنعيم والتكريم: « إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا » . .

وقبل أن تمضى فى عرض صور المتاع ترسم سمات هؤلاء الأبرار فى عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع يناسب ذلك النعيم الهانىء الرغيد : « يوفون بالنذر ، ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام ـ على حبه ـ مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » . .

ثم تعرض جزاء هؤلاء القائمين بالعزائم والتكاليف ، الخائفين من اليوم العبوس القمطرير ، الخيرين المطعمين على حاجتهم إلى الطعام ، يبتغون وجه الله وحده ، لايريدن شكورا من أحد ، إنما يتقون اليوم العبوس القمطرير !

تعرض جزاء هؤلاء الخائفين الوجلين المطعمين المؤثرين . فإذا هو الأمن والرخاء والنعيم اللين الرغيد : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسا ولازمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت

قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هـذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » .

فإذا انتهى معرض النعيم اللين الرغيد المطمئن الهانىء الودود ، اتجه الخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ لتثبيته على الدعوة ـ فى وجه الإعراض والكفر والتكذيب ـ وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكم الله فى الأمر ؛ والاتصال بربه والاستمداد منه كلما طال الطريق: « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » ..

ثم تذكيرهم باليوم الثقيل الذى لا يحسبون حسابه ؛ والذى يخافه الأبرار ويتقونه ، والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله ، الذى خلقهم ومنحهم ما هم فيه من القوة ، وهو قادر على الذهاب بهم ، والإتيان بقوم آخرين ؛ لولا تفضله عليهم بالبقاء ، لتمضى مشيئة الابتلاء . ويلوح لهم فى الختام بعاقبة هـذا الابتلاء : « إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا . نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا . إن هـذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليما حكيما . يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما » . .

***

تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله فى هـذه النشأة ، على أساس الابتلاء ، وتختم ببيان عاقبة الابتلاء ، كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء . فتوحى بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير ، لا ينبغى معه أن يمضى الإنسان فى استهتاره . غير واع ولا مدرك ، وهو مخلوق ليبتلى ، وموهوب نعمة الإدراك لينجح فى الابتلاء .

وبين المطلع والختام ترد أطول صورة قرآنية لمشاهد النعيم . أو من أطولها إذا اعتبرنا ما جاء فى سورة الواقعة من صور النعيم ، وهو نعيم حسى فى جملته ، ومعه القبول والتكريم ، وهو بتفصيله هـذا وحسيته يوحى بمكيته ، حيث كان القوم قريبى عهد بالجاهلية ، شديدى التعلق

بمتاع الحواس ، يبهرهم هذا اللون ويعجبهم ، ويثير تطلعهم ورغبتهم . وما يزال هذا اللون من المتاع يثير تطلع صنوف من الناس ، ويصلح جزاء لهم يرضى أعمق رغباتهم . والله أعلم بخلقه مايصلح لهم وما يصلح قلوبهم ، وما يليق بهم كذلك وفق تكوينهم وشعورهم . وهناك ماهو أعلى منه وأرق كالذى جاء فى سورة القيامة : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » ..والله أعلم بما يصلح للعباد فى كل حال .

* * *

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » . .

هـذا الاستفهام فى مطلع السورة إنما هو للتقرير ؛ ولكن وروده فى هـذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه : ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها ؟ ثم ألا يفعل تدبرها فى نفسه شيئا من الشعور باليد التى دفعته إلى مسرح الحياة ، وسلطت عليه النور ، وجعلته شيئا مذكورا بعد أن لم يكن شيئا مذكوراً ؟

إنها إيحاءات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام فى هـذا المقام . وهى إيحاءات رفيقة وعميقة تثير فى النفس تأملات شتى :

واحـدة منها تتجه بالنفس إلى ماقبل خلق الإنسان ووجوده ابتداء . يعيش فيها مع هـذا الكون وقد خلا من الإنسان . . كيف تراه كان ؟ . . والإنسان مخلوق مغرور فى نفسه وفى قيمته ، حتى لينسى أن هـذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بأدهار وأزمان طوال . ولعل الكون لم يكن يتوقع خلق شىء يسمى « الإنسان » . . حتى انبثق هـذا الخلق من إرادة الله فكان !

وواحدة منها تتجه إلى اللحظة التى انبثق فيها هذا الوجود الإنسانى .وتضرب فى تصورات شتى لهـذه اللحظة التى لم يكن يعلمها إلا الله ؛ والتى أضافت إلى الكون هـذه الخليقة الجديدة ، المقـدر أمرها فى حساب الله قبل أن تكون ! المحسوب دورها فى خط هـذا الكون الطويل !

وواحدة منها تتجه إلى تأمل يد القـدرة وهى تدفع بهـذا الكائن الجديد على مسرح الوجود ؛ وتعده لدوره ، وتعدّ له دوره ، وتربط خيوط حياته بمحور الوجود كله ؛ وتهيىء له

الظروف التى تجعل بقاءه وأداء دوره ممكنا وميسورا ؛ وتتابعه بعد ذلك فى كل خطوة ، ومعها الخيط الذى تشده به إليها مع سائر خيوط هذا الكون الكبير !

وإيحاءات كثيرة وتأملات شتى ، يطلقها هذا النص فى الضمير . . ينتهى منها القلب إلى الشعور بالقصد والغاية والتقدير ، فى المنشأ وفى الرحلة وفى المصير .

فأما امتداد هذا الإنسان بعد ذلك وبقاؤه فكانت له قصة أخرى :

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » . .

والأمشاج : الأخلاط . وربما كانت هذه إشارة إلى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخلاط تعنى الوراثات الكامنة فى النطفة ، والتى يمثلها مايسمونه علميا « الجينات » وهى وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا ولصفات الجنين العائلية أخيرا . وإليها يعزى سير النطفة الإنسانية فى رحلتها لتكوين جنين إنسان ، لاجنين أى حيوان آخر . كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة فى الأسرة . . ولعلها هى هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى . .

خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج ، لاعبثا ولا جزافا ولاتسلية ، ولكنه خلق ليبتلى ويمتحن ويختبر . والله سبحانه يعلم ماهو ؟ وماابتلاؤه ؟ وماثمرة اختباره ؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود ، وأن تترتب عليه آثاره المقدرة فى كيان الوجود ، وأن تتبعه آثاره المقدرة . ويجزى وفق مايظهر من نتائج ابتلائه .

ومن ثم جعله سميعا بصيرا . أى زوده بوسائل الإدراك،ليستطيع التلقى والاستجابة.وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار . ويجتاز الابتلاء وفق مايختار ..

وإذن فإن إرادة الله فى امتداد هذا الجنس وتكرر أفراده بالوسيلة التى قدرها ، وهى خلقته من نطفة أمشاج ..كانت وراءها حكمة . وكان وراءها قصد . ولم تكن فلتة . . كان وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره . ومن ثم وهب الاستعداد للتلقى والاستجابة ، والمعرفة والاختيار . . وكان كل شىء فى خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه فى الحياة . . بمقدار !

ثم زوده إلى جانب المعرفة ، بالقدرة على اختيار الطريق ، وبين له الطريق الواصل . ثم تركه ليختاره ، أوليضل ويشرد فيما وراءه من طرق لاتؤدى إلى الله :

« إنا هديناه السبيل : إما شاكرا وإما كفورا » . .

وعبر عن الهدى بالشكر . لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدى ، بعد إذ يعلم أنه لم يكن شيئا مذكورا ، فأراد ربه له أن يكون شيئا مذكورا . ووهب له السمع والبصر . وزوده بالقدرة على المعرفة . ثم هداه السبيل . وتركه يختار .. الشكر هو الخاطر الأول الذى يرد على القلب المؤمن فى هـذه المناسبة . فإذا لم يشكر فهو الـكفور . بهذه الصيغة الموغلة فى الدلالة على الـكفران .

ويشعر الإنسان بجدية الأمر ودقته بعد هـذه اللمسات الثلاث . ويدرك أنه مخلوق لغاية . وأنه مشدود إلى محور . وأنه مزود بالمعرفة فمحاسب عليها . وأنه هنا ليبتلى ويجتاز الابتلاء . فهو فى فترة امتحان يقضيها على الأرض ، لافى فترة لعب ولهو وإهمال ! ويخرج من هـذه الآيات الثلاث القصار بذلك الرصيد من التأملات الرفيقة العميقة ، كما يخرج منها مثقل الظهر بالتبعة والجد والوقار فى تصور هـذه الحياة ، وفى الشعور بمـا وراءها من نتائج الابتلاء ! وتغير هـذه الآيات الثلاث القصار من نظرته إلى غاية وجوده ، ومن شعوره بحقيقة وجوده ، ومن أخذه للحياة وقيمها بوجه عام .

* * *

ومن ثم يأخذ فى عرض ماينتظر الإنسان بعد الابتلاء ، واختياره طريق الشكر أوطريق الـكفران .

فأما ماينتظر الـكافرين ،فيجمله إجمالا، لأنظل السورة هوظل الرخاء الظاهر فى الصورة والإيقاع . وظل الهتاف المغرى بالنعيم المريح . فأما العذاب فيشير إليه فى إجمال :

« إنا أعتدنا للـكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا » . .

سلاسل للأقدام ، وأغلالا للأيدى ، ونارا تتسعر يلقى فيها بالمسلسلين المغلولين !

ثم يسارع السياق إلى رخاء النعيم :

« إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا » . .

وهذه العبارة تفيد أن شراب الأبرار فى الجنة ممزوج بالـكافور ، يشربونه فى كأس تغترف من عين تفجر لهم تفجيرا ، فى كثرة ووفرة . . وقد كان العـرب يمزجون كؤوس الخمـر بالـكافور حينا وبالزنجبيل حينا زيادة فى التلذذ بها ، فهاهم أولاء يعلمون أن فى الجنـة شرابا

طهورا ممزوجا بالـكافور ، على وفر وسعة . فأما مستوى هـذا الشراب فمفهوم أنه أحلى من شراب الدنيا ، وأن لذة الشعور به تتضاعف وترقى ، ونحن لا نملك فى هذه الأرض أن نحدد مستوى ولا نوعا للذة المتاع هناك . فهى أوصاف للتقريب . يعلم الله أن الناس لا يملـكون سواها لتصور هذا الغيب المحجوب .

والتعبير يسميهم فى الآية الأولى « الأبرار » ويسميهم فى الآية الثانيـة « عباد الله » . . إيناسا وتـكريما وإعلانا للفضل تارة ، وللقرب من الله تارة ، فى معرض النعيم والتـكريم .

ثم يعرف بهؤلاء الأبرار عباد الله الذين قسم لهم هذا المتاع :

« يوفون بالنذر، ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام ـ على حبه ـ مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منـكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » . .

وهى صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتـكاليف العقيدة ، مع رحمة ندية بعباده الضعاف ، وإيثار على النفس ، وتحرج وخشية لله ، ورغبة فى رضاه ، وإشفاق من عذابه تبعثه التقوى والجد فى تصور الواجب الثقيل .

« يوفون بالنذر » فيفعلون ما اعتزموا من الطاعات ، وما التزموا من الواجبات . فهم يأخذون الأمر جدا خالصا لا يحاولون التفلت من تبعاته ، ولا التفصى من أعبائه ، ولا التخلى عنه بعـد اعتزامه . وهـذا معنى أنهم يوفون بالنـذر . فهو أعم من المعنى العرفى المتبادر من كلمة « النذر » .

« ويخافون يوما كان شره مستطيرا » . . فهم يدركون صفة هـذا اليوم ، الذى يتفشى شره ويصيب الـكثيرين من المقصرين والمسيئين . فيخافون أن ينالهم شىء من شره . وهذه سمة الأتقياء ، الشاعرين بثقل الواجب وضخامة التـكاليف ، الخائفين من التقصير والقصور ، مهما قدموا من القرب والطاعات .

« ويطعمون الطعام ـ على حبه ـ مسكينا ويتيما وأسيرا » . .

وهى تصور شعور البر والعطف والخـير ممثلا فى إطعام الطعام ، مع حبـه بسبب الحاجة إليـه . فمثل هـذه القلوب لا يقال عنها : إنها تحب الطعام الذى تطعمه للضعاف المحاويج على اختلاف أنواعهم ، إلا أن تـكون فى حاجة هى إلى هـذا الطعام ، ولـكنها تؤثر به المحاويج .

وهذه اللفتة تشى بقسوة البيئة فى مكة بين المشركين ؛ وأنها كانت لاتفضى بشىء للمحاويج الضعاف ؛ وإن كانت تبذل فى مجالات المفاخرة الشىء الكثير . فأما الأبرار عباد الله فكانوا واحة ظليلة فى هذه الهاجرة الشحيحة . وكانوا يطعمون الطعام بأريحية نفس ، ورحمة قلب ، وخلوص نية . واتجاه إلى الله بالعمل ، يحكيه السياق من حالهم ، ومن منطوق قلوبهم.

« إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » .

فهى الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرفيقة ، تتجه إلى الله تطلب رضاه .ولا تبتغى بها جزاء من الخلق ولا شكرا ، ولا تقصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء . كما تتقى بها يوما عبوسا شديد العبوس ، تتوقعه وتخشاه ، وتتقيه بهذا الوقاء . وقد دلهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه وهو يقول : « اتق النار ولو بشق تمرة » . .

وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة الكريمة ، ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويج . ولكن صور الإحسان ووسائله قد تتغير بحسب البيئات والظروف ، فلا تظل فى هذه الصورة البدائية المباشرة . إلا أن الذى يجب الاحتفاظ به هو حساسية القلوب ، وحيوية العاطفة ، والرغبة فى الخير ابتغاء وجه الله ، والتجرد عن البواعث الأرضية من جزاء أو شكر أو نفع من منافع الحياة !

ولقد تنظم الضرائب ،وتفرض التكاليف ،وتخصص للضمان الاجتماعى ،ولإسعاف المحاويج، ولكن هذا إنما يفى بشطر واحد من مزايا الاتجاه الإسلامى الذى ترمز إليه تلك الآيات ، والذى توخاه بفريضة الزكاة . . هذا الشطر هو كفاية حاجة المحتاجين . . هذا شطر . . والشطر الآخر هو تهذيب أرواح الباذلين ، ورفعها إلى ذلك المستوى الكريم . وهو شطر لايجوز إغفاله ولا التهوين من شأنه فضلا على أن تنقلب المعايير فيوصم ويقبح ويشوه ،ويقال : إنه إذلال للآخذين وإفساد للواهبين .

إن الإسلام عقيدة قلوب ، ومنهج تربية لهذه القلوب . والعاطفة الكريمة تهذب صاحبها وتنفع من يوجهها إليه من إخوانه . فتفى بشطرى التربية التى يقصد إليها هذا الدين .

ومن ثم كان ذلك التصوير الكريم لذلك الشعور الكريم .

« فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا » . .

يعجل السياق بذكر وقايتهم من شر ذلك اليوم الذى كانوا يخافونه ، ليطمئنهم فى الدنياوهم يتلقون هذا القرآن ويصدقونه ! ويذكر أنهم تلقوا من الله نضرة وسرورا ، لايوما عبوسا قمطريرا .جزاء وفاقا على خشيتهم وخوفهم ، وعلى نداوة قلوبهم ونضرة مشاعرهم .

ثم يمضى بعد ذلك فى وصف مناعم الجنة التى وجدوها :

« وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » . . جنة يسكنونها وحريرا يلبسونه .

« متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا » . . فهم فى جلسة مريحة مطمئنة والجو حولهم رخاء ناعم دافىءفى غير حر ، ندى فى غير برد . فلاشمس تلهب النسائم ، ولا زمهرير وهو البرد القارس ! ولنا أن نقول : إنه عالم آخر ليست فيه شمسنا هذه ولاشموس أخرى من نظائرها . . وكفى !

« ودانية عليهم ظلالها . وذللت قطوفها تذليلا » .. وإذا دنت الظلال ودنت القطوف فهى الراحة والاسترواح على أمتع مايمتد إليه الخيال !

فهذه هى الهيئة العامةلهذه الجنة التىجزى الله بها عباده الأبرار الذينرسمهم تلك الصورة المرهفة اللطيفة الوضيئة فى الدنيا . . ثم تأتى تفصيلات المناعم والخدمات . .

«ويطاف عليهم بآنية من فضة ، وأكواب كانت قوارير . قوارير منفضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأساكان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا » . .

فهم فى متاعهم . متكئين على الأرائك بينالظلال الوارفة والقطوف الدانية والجوالرائق .. يطاف عليهم بأشربة فى آنية منفضة ، وفى أكواب من فضة كذلك ، ولكنها شفة كالقوارير ، مما لم تعهده الأرض فى آنية الفضة . وهى بأحجام مقدرة تقديرا يحقق المتاع والجمال . ثم هى تمزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور . وهى كذلك تملأ من عين جارية تسمى سلسبيلا ، لشدة عذوبتها واستساغتها لدى الشاربين !

وزيادة فى المتاع فإن الذينيطوفون بهذه الأوانىوالأكواب بالشرابهمغلمان صباح الوجوه، لايفعل فيهم الزمن ، ولاتدركهم السن ؛ فهم مخلدون فى سن الصباحة والصبا والوضاءة . وهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنثور :

« ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا » ..

ثم يجمل السياق خطوط المنظر ، ويلقى عليه نظرة كاملة تلخص وقعه فى القلب والنظر :

« وإذا رأيت ـ ثمّ ـ رأيت نعيما وملكا كبيرا » . .

نعيما وملكا كبيرا . هو الذى يعيش فيه الأبرار المقربون عباد الله هؤلاء . على وجه الإجمال والعموم !

ثم يخصص مظهرا من مظاهر النعيم والملك الكبير ؛ كأنه تعليل لهذا الوصف وتفسير :

« عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا » . .

والسندس الحرير الرقيق ، والإستبرق الحرير السميك المبطن . . وهم فى هذه الزينة وهذا المتاع ، يتلقونه كله « من ربهم » فهو عطاء كريم من معط كريم . وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعيم !

ثم يتلقون عليه الود والتكريم :

« إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » . .

يتلقون هذا النطق من الملإ الأعلى . وهو يعدل هذه المناعم كلها ، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها . .

وهكذا ينتهى ذلك العرض المفصل والهتاف الموحى للقلوب ، الهتاف إلى ذلك النعيم الطيب والفرار من السلاسل والأغلال والسعير . . وهما طريقان . طريق مؤد إلى الجنة هذه وطريق مؤد إلى السعير !

* * *

وبعد انتهاء هذا الهتاف إلى الجنة ونعيمها الهنىء الرغيد ، يعالج حالة المشركين المصرين على العناد والتكذيب ، الذين لا يدركون حقيقة الدعوة ، فيساومون عليها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعله يكف عنها ، أو عما يؤذيهم منها . وبين المساومة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفتنة المؤمنين به وإيذائهم ، والصد عن سبيل الله ، والإعراض عن الخير والجنة والنعيم . . بين هذا كله يجىء المقطع الأخير فى السورة يعالج هذا الموقف بطريقة القرآن الكريم :

« إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » . .

وفى هذه الآيات الأربعة تكمن حقيقة كبيرة من حقائق الدعوة الإيمانية . حقيقة ينبغى أن يعيش فيها الدعاة إلى الله طويلا ، وأن يتعمقوها تعمقا كاملا ، وأن ينظروا بتدبر فى مدلولاتها الواقعية والنفسية والإيمانية الكبيرة .

لقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وحده . وهو لم يكن يواجه فى نفوسهم مجرد عقيدة . ولو كان الأمر كذلك لكان أيسر كثيرا . فإن عقيدة الشرك المهلهلة التى كانوا عليها لم تكن من القوة والثبات بحيث يصمدون بها هكذا لعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة . إنما كانت الملابسات التى تحيط بالعقيدة وبالموقف هى التى تقود إلى تلك المعارضة العنيدة ، التى شهدت بها الروايات التاريخيه ، وحكاها القرآن فى مواضع منه شتى .. كانت المكانة الاجتماعية ، والاعتزاز بالقيم السائدة فى البيئة ، وما يتلبس بها كذلك من مصالح مادية .. هى العنصر الأول الذى يقود إلى التشبث بالعقيدة الواهية الظاهرة البطلان ، فى وجه العقيدة القوية الظاهرة الاستقامة . . ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ولذائذها وشهواتها إلى جانب ذلك تزيد المقاومة والعناد والتأبى على العقيدة الجديدة ، ومافيها من اتجاهات أخلاقية وقيم رفيعة ، لاتسمح بانطلاق الغرائز والشهوات ؛ ولا بالحياة العابثة الماجنة المطلقة من كوابح الأخلاق .

وهذه الأسباب — سواء مايتعلق منها بالمكانة والقيم الاجتماعية والسلطان والمال والمصالح ، وما يتعلق منها بالإلف والعادة وصور الحياة التقليدية ، ومايتعلق منها بالانطلاق من القيم والقيود الأخلاقية — كانت قائمة فى وجه الدعوة الأولى ، وهى هى قائمة فى وجه الدعوة فى كل أرض وفى كل جيل . وهى تمثل العناصر الثابتة فى معركة العقيدة ، التى تجعلها معركة عنيدة لاتنتهى من قريب ؛ وتجعل مشاقها وتكاليفها والثبات عليها من أعسر التكاليف .

ومن ثم ينبغى للدعاة إلى دين الله فى أى أرض وفى أى زمان أن يعيشوا طويلا فى الحقيقة الكبيرة الكامنة فى تلك الآيات ، وملابسات نزولها على الرسول — صلى الله عليه وسلم — فهى ملابسات معركة واحدة يخوضها كل صاحب دعوة إلى الله ، فى أى أرض وفى أى زمان !

لقد تلقى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — التكليف من ربه لينذر ، وقيل له : « ياأيها المدثر . قم فأنذر » .. فلما أن نهض بالتكليف واجهته تلك العوامل والأسباب التى تصد القوم عن الدعوة الجديدة ؛ وتثير فى نفوسهم التشبث بما هم عليه — على شعورهم بوهنه وهلهلته —

وتقودهم إلى العناد الشديد ، ثم إلى الدفاع العنيد عن معتقداتهم وأوضاعهم ومكانتهم ومصالحهم . ومألوف حياتهم ، ولذائذهم وشهواتهم . . إلى آخر ماتهدده الدعوة الجديدة أشد التهديد .

وأخذ هـذا الدفاع العنيد صورا شتى ، فى أولهـا إيذاء القلة المؤمنة التى استجابت للدعوة الجديدة ، ومحاولة فتنتها عن عقيدتها بالتعذيب والتهديد . ثم تشويه هذه العقيدة وإثارة الغبار حولها وحول نبيها — صلى الله عليـه وسلم — بشتى التهم والأساليب . كى لاينضم إليهـا مؤمنون جدد . فمنع الناس عن الانضمام إلى راية العقيدة قد يـكون أيسر من فتنة الذين عرفوا حقيقتها وذاقوها !

وفى الوقت ذاته راحوا يحاولون مع صاحب الدعوة — صلى الله عليـه وسلم — طرقا شتى من الإغراء — إلى جانب التهديد والإيذاء — ليلتقى بهم فى منتصف الطريق ؛ ويكف عن الحملة الساحقة على معتقداتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ؛ ويصالحهم ويصالحونه على شىء يرتضيه ويرتضونه ! كما تعود الناس أن يلتقوا فى منتصف الطريق عند الاختلاف على المصالح والمغانم وشؤون هـذه الأرض المعهودة (١) .

وهذه الوسائل ذاتها أومايشبهها هى التى يواجهها صاحب الدعوة إلى الله فى كل أرض وفى كل جيل !

والنبى — صلى الله عليه وسلم — ولوأنه رسول ، حفظه الله من الفتنة ، وعصمه من الناس .. إلاأنه بشر يواجه الواقع الثقيل فى قلة من المؤمنين وضعف . والله يعلم منه هـذا ، فلايدعه وحده ، ولايدعه لمواجهة الواقع الثقيل بلاعون ومدد وتوجيه إلى معالم الطريق .

وهذه الآيات تتضمن حقيقة هذا العون والمدد والتوجيه :

« إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » .

وهى اللفتة الأولى إلى مصدر التـكليف بهذه الدعوة ، وينبوع حقيقتها . . إنها من الله . هو مصدرها الوحيد . وهو الذى نزل بها القرآن . فليس لها مصدر آخر ، ولايمكن أن تختلط حقيقتها بشىء آخر لايفيض من هذا الينبوع . وكل ماعدا هذا المصدر لا يُتلقى عنه ، ولا يُستمد منه ، ولا يُستعار لهـذه العقيدة منه شىء ، ولايخلط بهـا منه شىء . . ثم إن الله الذى نزل هـذا القرآن وكلف بهذه الدعوة لن يتركها . ولن يترك الداعى إليها ، وهو كلفه ، وهو نزّل القرآن عليـه .

(١) يراجع فى هذا الجزء تفسير سورة القلم : « ودوا لو تدهن فيدهنون » ..

ولكن الباطل يتبجح ، والشر ينتفش، والأذى يصيب المؤمنين، والفتنة ترصد لهم ؟ والصد عن سبيل الله يملكه أعداء الدعوة ويقومون به ويصرون عليه ، فوق إصرارهم على عقيدتهم وأوضاعهم وتقاليدهم وفسادهم وشرهم الذى يلجون فيه ! ثم هم يعرضون المصالحة ، وقسمة البلد بلدين ، والالتقاء فى منتصف الطريق . . وهو عرض يصعب رده ورفضه فى مثل تلك الظروف العصيبة !

هنا تجىء اللفتة الثانية :

« فاصبر لحكم ربك ، ولاتطع منهم آثما أو كفورا » . .

إن الأمور مرهونة بقدر الله . وهو يمهل الباطل ، ويملى للشر ، ويطيل أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتمحيص . . كل أولئك لحكمة يعلمها ، يجرى بها قدره، وينفذ بها حكمه . . « فاصبر لحكم ربك » . . حتى يجىء موعده المرسوم . اصبر على الأذى والفتنة . واصبر على الباطل يغلب، والشر ينتفج . ثم اصبر أكثر على ما أوتيته من الحق الذى نزل به القرآن عليك. اصبر ولاتستمع لما يعرضونه من المصالحة والالتقاء فى منتصف الطريق على حساب العقيدة : « ولا تطع منهم آثما أو كفورا » . . فهم لايدعونك إلى طاعة ولا إلى بر ولا إلى خير . فهم آثمون كفار . يدعونك إلى شىء من الإثم والكفر إذن حين يدعونك إلى الالتقاء بهم فى منتصف الطريق ! وحين يعرضون عليك مايظنونه يرضيك ويغريك ! وقد كانوا يدعونه باسم شهوة السلطان ، وباسم شهوة المال ، وباسم شهوة الجسد . فيعرضون عليه مناصب الرياسة فيهم والثراء ، حتى يكون أغنى من أغناهم ، كما يعرضون عليه الحسان الفاتنات ، حيث كان عتبة ابن ربيعة يقول له : « ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ابنتى ، فإنى من أجمل قريش بنات ! » . . كل الشهوات التى يعرضها أصحاب الباطل لشراء الدعاة فى كل أرض وفى كل جيل !

« فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا » . . فإنه لالقاء بينك وبينهم ؛ ولا يمكن أن تقام قنطرة للعبور عليها فوق الهوة الواسعة التى تفصل منهجك عن منهجهم ، وتصورك للوجود كله عن تصورهم ، وحقك عن باطلهم ، وإيمانك عن كفرهم ، ونورك عن ظلماتهم ، ومعرفتك بالحق عن جاهليتهم !

اصبر ولو طال الأمد ، واشتدت الفتنة وقوى الإغراء ، وامتد الطريق . .

ولكن الصبر شاق ، ولا بد من الزاد والمدد المعين :

« واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » . .

هذا هو الزاد . اذكر اسم ربك فى الصباح والمساء ، واسجد له بالليل وسبحه طويلا . . إنه الاتصال بالمصدر الذى نزّل عليك القرآن ، وكلفك الدعوة، هو ينبوع القوة ومصدر الزاد والمدد .. الاتصال به ذكرا وعبادة ودعاء وتسبيحا .. ليلا طويلا .. فالطريق طويل ، والعبء ثقيل . ولا بد من الزاد الكثير والمدد الكبير . وهو هناك ، حيث يلتقى العبد بربه فى خلوة وفى نجاء، وفى تطلع وفى أنس ،تفيض منه الراحة على التعب والضنى ، وتفيض منه القوة على الضعف والقلة . وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل ،وترى عظمة التكليف ،وضخامة الأمانة . فتستصغر ما لاقت وما تلاقى من أشواك الطريق !

إن الله رحيم ، كلف عبده الدعوة ، ونزل عليه القرآن ، وعرف متاعب العبء وأشواك الطريق . فلم يدع نبيه — صلى الله عليه وسلم — بلا عون أو مدد . وهذا هو المدد الذى يعلم — سبحانه — أنه هو الزاد الحقيقى الصالح لهذه الرحلة المضنية فى ذلك الطريق الشائك . . وهو هو زاد أصحاب الدعوة إلى الله فى كل أرض وفى كل جيل . فهى دعوة واحدة . ملابساتها واحدة . وموقف الباطل منها واحد ، وأسباب هذا الموقف واحدة . ووسائل الباطل هى ذاتها وسائله . فلتكن وسائل الحق هى الوسائل التى علم الله أنها وسائل هذا الطريق .

والحقيقة التى ينبغى أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هى هذه الحقيقة التى لقنها الله لصاحب الدعوة الأولى — صلى الله عليه وسلم — هى أن التكليف بهذه الدعوة تنزل من عند الله . فهو صاحبها. وأن الحق الذى تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذى يدعو إليه الآثمون الكفار . فلا سبيل إلى التعاون بين حقها وباطلهم ، أو الالتقاء فى منتصف الطريق بين القائم على الحق والقائمين على الباطل . فهما نهجان مختلفان ، وطريقان لا يلتقيان . فأما حين يغلب الباطل بقوته وجمعه على قلة المؤمنين وضعفهم ، لحكمة يراها الله . . فالصبر حتى يأتى الله بحكمه . والاستمداد من الله والاستعانة بالدعاء والتسبيح — ليلا طويلا — هى الزاد المضمون لهذا الطريق . .

. . إنها حقيقة كبيرة لا بد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق . .

***

ثم يمضى السياق فى توكيد الافتراق بين منهج الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومنهج الجاهلية . بما يقرره من غفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم ، ومن تفاهة اهتماماتهم ، وصغر تصوراتهم . . يقول :

« إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » . .

إن هؤلاء ، القريبى المطامح والاهتمامات ، الصغار المطالب والتصورات . . هؤلاء الصغار الزهيدين الذين يستغرقون فى العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا .ثقيلا بتبعاته. ثقيلا بنتائجه . ثقيلا بوزنه فى ميزان الحقيقة . . إن هؤلاء لايطاعون فى شىء ولا يتبعون فى طريق ؛ ولا يلتقون مع المؤمنين فى هدف ولا غاية ، ولا يؤبه لما هم فيه من هذه العاجلة ، من ثراء وسلطان ومتاع، فإنما هى العاجلة ، وإنما هو المتاع القليل ، وإنما هم الصغار الزهيدون !

ثم توحى الآية بغفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم . فهم يختارون العاجلة ، ويذرون اليوم الثقيل الذى ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير ، بعد الحساب العسير !

فهذه الآية استطراد فى تثبيت الرسول — صلى الله عليه وسلم — والمؤمنين معه ، فى مواجهة هؤلاء الذين أوتوا من هذه العاجلة مايحبون . إلى جانب أنها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل .

* * *

يتلو ذلك التهوين من أمرهم عند الله الذى أعطاهم ماهم فيه من قوة وبأس ، وهو قادر على الذهاب بهم وتبديل غيرهم منهم . ولكنه يتركهم لحكمة يجرى بها قدره القديم :

« نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ، وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا » . .

وهذه اللفتة تذكر هؤلاء الذين يعتزون بقوتهم ، بمصدر هذه القوة ، بل مصدر وجودهم ابتداء . ثم تطمئن الذين آمنوا — وهم فى حالة الضعف والقلة — إلى أن واهب القوة هو الذى ينتسبون إليه وينهضون بدعوته . كما تقرر فى نفوسهم حقيقة قدر الله وما وراءه من حكمة مقصودة ، هى التى تجرى وفقها الأحداث حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

« وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا » . . فهم لايعجزون الله بقوتهم ، وهو خلقهم وأعطاهم إياها . وهو قادر على أن يخلق أمثالهم فى مكانهم .. فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنته وهو قضاؤه وحكمته ..

ومن هنا تكون الآية استطرادا فى تثبيت الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومن معه ؛ وتقريرا لحقيقة موقفهم وموقف الآخرين .. كما أنها لمسة لقلوب هؤلاء المستغرقين فى العاجلة ، المغترين بقوة أسرهم ، ليذكروا نعمة الله ، التى يتبطرون بها فلا يشكرونها ؛ وليشعروا بالابتلاء الكامن وراء هذه النعمة . وهو الابتلاء الذى قرره لهم فى مطلع السورة .

* * *

ثم يوقظهم إلى الفرصة المتاحة لهم ، والقرآن يعرض عليهم ، وهذه السورة منه تذكرهم :

« إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » . . .

ويعقب على هذه اللفتة بإطلاق المشيئة ، ورد كل شىء إليها ، ليكون الاتجاه الأخير إليها ، والاستسلام الأخير لحكمها ؛ وليبرأ الإنسان من قوته إلى قوتها ، ومن حوله إلى حولها . . وهو الإسلام فى صميمه وحقيقته :

« وماتشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما » . . .

ذلك كى تعلم قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار ، المتصرف القهار ، فتتعلم كيف تتجه إليه وتستسلم لقدره . . وهذا هو مجال هذه الحقيقة الذى تجرى فيه فى مثل هذه النصوص - مع تقرير ماشاءه الله لهم من منحهم القدرة على إدراك الحق والباطل ؛ والاتجاه إلى هذا أوذاك وفق مشيئة الله ، العليم بحقيقة القلوب ، وما أعان به العباد من هبة الإدراك والمعرفة ، وبيان الطريق ، وإرسال الرسل ، وتنزيل القرآن ... إلا أن هذا كله ينتهى إلى قدر الله ، الذى يلجأ إليه الملتجىء ، فيوفقه إلى الذكر والطاعة ، فإذا لم يعرف فى قلبه حقيقة القدرة المسيطرة ، ولم يلجأ إليها لتعينه وتيسره ، فلا هدى ولا ذكر ، ولا توفيق إلى خير . .

ومن ثم فهو :

« يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين أعد لهم عذابا أليما » . .

فهى المشيئة المطلقة تتصرف بما تريد . ومن إرادتها أن يدخل فى رحمته من يشاء ، ممن يلتجئون إليه ، يطلبون عونه على الطاعة ، وتوفيقه إلى الهدى .. « والظالمين أعد لهم عذابا أليما » . وقد أملى لهم وأمهلهم لينتهوا إلى هذا العذاب الأليم !

وهذا الختام يلتئم مع المطلع ، ويصور نهاية الابتلاء ، الذى خلق الله له الإنسان من نطفة أمشاج ، ووهبه السمع والأبصار ، وهداه السبيل إما إلى جنة وإما إلى نار . .

سُورة المرسلات مكية
وآياتها ٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ .

« فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ؟ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ؟ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ؟ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ؟ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ؟ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ ؟ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ؟ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ؟ * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ؟ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ! * انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ! * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ * فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ !

« فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ؟ » .

هذه السورة حادة الملامح ، عنيفة المشاهد ، شديدة الإيقاع ، كأنها سياط لاذعة من نار. وهي تقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة ، حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات ، تنفذ إليه كالسهام المسنونة !

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة ، وحقائق الكون والنفس ، ومناظر الهول والعذاب ماتعرض . وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار : « ويل يومئذ للمكذبين » !

ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات في السورة . وهو لازمة الإيقاع فيها . وهو أنسب تعقيب لملامحها الحادة ، ومشاهدها العنيفة ، وإيقاعها الشديد .

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة المكررة في سورة « الرحمان » عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .. كما تذكرنا باللازمة المكررة في سورة « القمر » عقب كل حلقة من حلقات العذاب: « فكيف كان عذابي ونذر ؟ » . . وتكرارها هنا على هذا النحو يعطي السورة سمة خاصة ، وطعماً مميزاً . . حاداً . .

وتتوالى مقاطع السورة وفواصلها قصيرة سريعة عنيفة ، متعددة القوافي . كل مقطع بقافية.

ويعود السياق أحيانا إلى بعض القوافى مرة بعد مرة . ويتلقى الحس هـذه المقاطع والفواصل والقوافى بلذعها الخاص ، وعنفها الخاص . واحدة إثر واحدة . ومايـكاد يفيق من إيقاع حتى يعاجله إيقاع آخر ، بنفس العنف وبنفس الشدة .

ومنذ بداية السورة والجو عاصف ثائر بمشهد الرياح أو الملائكة : المرسلات عرفا . العاصفات عصفا .. الناشرات نشرا فالفارقات فرقا . الملقيات ذكرا ، عذرا أونذرا . . وهو افتتاح يلتئم مع جو السورة وظلها تمام الالتئام .

وللقرآن فى هذا الباب طريقة خاصة فى اختيار إطار للمشاهد فى بعض السور من لون هذه المشاهد وقوتها . . وهذا نموذج منها ، كما اختار إطارا من الضحى والليل إذا سجى لمشاهد الرعاية والحنان والإيواء فى « سورة الضحى » وإطارا من العاديات الضابحة الصاخبة المثيرة للغبار لمشاهد بعثرة القبور وتحصيل مافى الصدور فى سورة « والعاديات » . . وغيرها كثير [١] .

وكل مقطع من مقاطع السورة العشرة بعد هذا المطلع ، يمثل جولة أو رحلة فى عالم ، تتحول السورة معه إلى مساحات عريضة من التأملات والمشاعر والخواطر والتأثرات والاستجابات . . أعرض بكثير جدا من مساحة العبارات والـكلمات ، وكأنما هذه سهام تشير إلى عوالم شتى !

والجولة الأولى تقع فى مشاهد يوم الفصل . وهى تصور الانقلابات الـكونية الهائلة فى السماء والأرض ، وهى الموعد الذى تنتهى إليه الرسل بحسابها مع البشر : « فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك مايوم الفصل ؟ ويل يومئذ للـكذبين ! » .

والجولة الثانية مع مصارع الغابرين ، وماتشير إليه من سنن الله فى الـكذبين : « ألم نهلك الأولين ؟ ثم نتبعهم الآخرين ؟ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للـكذبين ! » ..

والجولة الثالثة مع النشأة الأولى وماتوحى به من تقدير وتدبير : « ألم نخلقـكم من ماء مهين ؟ فجعلناه فى قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم ؟ فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للـكذبين ! » ..

والجولة الرابعة فى الأرض التى تضم أبناءها إليها أحياء وأمواتا ، وقد جهزت لهم بالاستقرار والماء المحيى : « ألم نجعل الأرض كفاتا ؟ أحياء وأمواتا ، وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ؟ ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

---

(١) يراجع فصل التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى . .

والجولة الخامسة مع المكذبين ومايلقونه يوم الفصل من عذاب وتأنيب : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ! لا ظليل ولا يغنى من اللهب. إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر. ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والجولة السادسة والسابعة استطراد مع موقف المكذبين ، ومزيد من التأنيب والترذيل : « هذا يوم لاينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للمكذبين ! هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين! » ..

والجولة الثامنة مع المتقين ، وماأعد لهم من نعيم :« إن المتقين فى ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزى المحسنين.. ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة التاسعة خطفة سريعة مع المكذبين فى موقف التأنيب : « كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة العاشرة خطفة سريعة مع المكذبين فى موقف التكذيب : « وإذا قيل لهم : اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والخاتمة بعد هذه الجولات والاستعراضات والوخزات والإيقاعات : « فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ » ..

* * *

وهكذا يمضى القلب مع سياق السورة السريع ، وكأنه يلهث مع إيقاعها وصورها ومشاهدها.

فأما الحقائق الموضوعية فى السورة فقد تكرر ورودها فى سور القرآن ـ والمكية منها بوجه خاص ـ ولكن الحقائق القرآنية تعرض من جوانب متعددة ، وفى أضواء متعددة ، وبطعوم ومذاقات متعددة ،وفق الحالات النفسية التى تواجهها ، ووفق مداخل القلوب وأحوال النفوس التى يعلمها منزل هذا القرآن على رسوله ، فتبدو فى كل حالة جديدة ، لأنها تستجيش فى النفس استجابات جديدة .

وفى هذه السورة جدة فى مشاهد جهنم . وجدة فى مواجهة المكذبين بهذه المشاهد . كما أن هناك جدة فى أسلوب العرض والخطاب كله . ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة . حادة اللامح . لاذعة المذاق . لاهثة الإيقاع !

والآن نستعرض السورة فى سياقها القرآنى بالتفصيل :

* * *

« والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا : عذرا أو نذرا . . إن ماتوعدون لواقع » . .

القضية قضية القيامة التى كان يعسر على المشركين تصور وقوعها ؛ والتى أكدها لهم القرآن الكريم بشتى المؤكدات فى مواضع منه شتى . وكانت عنايته بتقرير هـذه القضية فى عقولهم ، وإقرار حقيقتها فى قلوبهم مسألة ضرورة لابد منها لبناء العقيدة فى نفوسهم على أصولها ، ثم لتصحيح موازين القيم فى حياتهم جميعا . فالاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الأساس فى العقيدة السماوية ، كما أنه حجر الأساس فى تصور الحياة الإنسانية . وإليه مرد كل شىء فى هذه الحياة ، وتصحيح الموازين والقيم فى كل شأن من شؤونها جميعا .. ومن ثم اقتضت هذا الجهد الطويل الثابت لتقريرها فى القلوب والعقول .

والله سبحانه يقسم فى مطلع هذه السورة على أن هذا الوعد بالآخرة واقع . وصيغة القسم توحى ابتـداء بأن مايقسم الله به هو من مجاهيل الغيب ، وقواه المكنونة ، المؤثرة فى هـذا الكون وفى حياة البشر . وقد اختلف السلف فى حقيقة مدلولها . فقال بعضهم : هى الرياح إطلاقا . وقال بعضهم هى الملائكة إطلاقا . وقال بعضهم : إن بعضها يعنى الرياح وبعضها يعنى الملائكة . . مما يدل على غموض هـذه الألفاظ ومدلولاتها . وهـذا الغموض هو أنسب شىء للقسم بها على الأمر الغيبى المكنون فى علم الله . وأنه واقع كما أن هذه المدلولات المغيبة واقعة ومؤثرة فى حياة البشر .

« والمرسلات عرفا » . . عن أبى هريرة أنها الملائكة . وروى مثل هـذا عن مسروق وأبى الضحى ومجاهد فى إحدى الروايات ، والسدى والربيع ابن أنس ، وأبى صالح فى رواية (والمعنى حينئذ هو القسم بالملائكة المرسلة أرسالا متواليـة ، كأنهـا عرف الفرس فى إرسالها وتتابعها) .

وهكذا قال أبو صالح فى العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات . . إنها الملائكة .

وروى عن ابن مسعود . . المرسلات عرفا . قال : الريح . (والمعنى على هـذا أنها المرسلة متوالية كعرف الفرس فى امتدادها وتتابعها) وكذا قال فى العاصفات عصفا والناشرات نشرا . وكذلك قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح فى رواية .

وتوقف ابن جرير فى المرسلات عرفا هل هى الملائكة أو الرياح . وقطع بأن العاصفات هى الرياح . وكذلك الناشرات التى تنشر السحاب فى آفاق السماء .

وعن ابن مسعود : « فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا ، عذرا أو نذرا » يعنى الملائكة . وكذا قال: ابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والربيع ابن أنس والسدى والثورى بلا خلاف. فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل . وتلقى إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق وإنذار .

ونحن نلمح أن التهويل بالتجهيل ملحوظ فى هذه الأمور المقسم بها كالشأن فى الذاريات ذروا . وفى النازعات غرقا . . وأن هذا الخلاف فى شأنها دليل على إبهامها . وأن هذا الإبهام عنصر أصيل فيها فى موضعها هذا . وأن الإيحاء المجمل فى التلويح بها هو أظهر شىء فى هذا المقام . وأنها هى بذاتها تحدث هزة شعورية بإيحاء جرسها وتتابع إيقاعها ، والظلال المباشرة التى تلقيها . وهذه الانتفاضة والهزة اللتان تحدثهما فى النفس هما أليق شىء بموضوع السورة واتجاهها .. وكل مقطع من مقاطع السورة بعد ذلك هو هزة ، كالذى يمسك بخناق أحد فيهزه هزا ، وهو يستجوبه عن ذنب، أو عن آية ظاهرة ينكرها ، ثم يطلقه على الوعيد والتهديد : « ويل يومئذ للمكذبين » . .

***

بعد ذلك تجىء الهزة العنيفة بمشاهد الكون المنقلبة فى يوم الفصل الذى هو الموعد المضروب للرسل لعرض حصيلة الرسالة فى البشرية جميعا :

« فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت ،وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك مايوم الفصل ؟ ويل يومئذ للمكذبين » . .

يوم تطمس النجوم فيذهب نورها ، وتفرج السماء أى تشق ، وتنسف الجبال فهى هباء ... وقد وردت مشاهد هذا الانقلاب الكونى فى سور شتى من القرآن . وكلها توحى بانفراط عقد هذا الكون المنظور ، انفراطا مصحوبا بقرقعة ودوى وانفجارات هائلة ، لاعهد للناس بها فيما يرونه من الأحداث الصغيرة التى يستهولونها ويروعون بها من أمثال الزلازل والبراكين والصواعق .. وما إليها .. فهذه أشبه شىء — حين تقاس بأهوال يوم الفصل — بلعب الأطفال التى يفرقعونها فى الأعياد ، حين تقاس إلى القنابل الذرية والهيدروجينية ! وليس هذا سوى مثل للتقريب . وإلا فالهول الذى ينشأ من تفجر هذا الكون وتناثره على هذا النحو أكبر من التصور البشرى على الإطلاق !

وإلى جانب هـذا الهول فى مشاهد الـكون ، تعرض السورة أمرا عظما آخر مؤجلا إلى هذا اليوم . . فهو موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة . دعوة الله فى الأرض طوال الأجيال. فالرسل قد أقتت لهذا اليوم وضرب لها الموعد هناك ، لتقديم الحساب الختامى عن ذلك الأمر العظيم الذى يرجح السماوات والأرض والجبال . للفصل فى جميع القضايا المعلقة فى الحيـاة الأرضية ، والقضاء بحكم الله فيها ، وإعلان الـكلمة الأخيرة التى تنتهى إليها الأجيال والقرون . .

وفى التعبير تهويل لهذا الأمر العظيم ، يوحى بضخامة حقيقته حتى لتتجاوز مدى الإدراك :

« وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك مايوم الفصل ؟ » . .

وظاهر من أسلوب التعبير أنه يتحدث عن أمر هائل جليل . فإذا وصل هذا الإيقاع إلى الحس بروعته وهوله ، الذى يرجح هول النجوم المطموسة والسماء المشقوقة والجبال المنسوفة. ألقى بالإيقاع الرعيب ، والإنذار المخيف :

« فويل يومئذ للمـكذبين ! » . .

وهذا الإنذار من العزيز الجبار ، فى مواجهة الهول السائد فى الـكون ، والجلال الماثل فى مجلس الفصل بحضر الرسل ، وهم يقدمون الحساب الأخير فى الموعد المضروب لهم . . هذا الإنذار فى هذا الأوان له طعمه وله وزنه وله وقعه المزلزل الرهيب . .

***

ويعود بهم من هذه الجولة فى أهوال يوم الفصل ، إلى جولة فى مصارع الغابرين: الأولين والآخرين . .

« ألم نهلك الأولين ؟ ثم نتبعهم الآخرين ؟ كذلك نفعل بالمجـرمين . ويل يومئـذ للمـكذبين ! » . .

هـكذا فى ضربة واحـدة تتـكشف مصارع الأولين وهم حشود . وفى ضربة واحـدة تتـكشف مصارع الآخرين وهم حشود . وعلى مد البصر تتبـدى المصارع والأشلاء . وأمامها ينطلق الوعيد ناطقا بسنة الله فى الوجود : « كذلك نفعل بالمجرمين » ! فهى السنة الماضية التى لاتحيد . . وبينما المجرمون يتوقعون مصرعا كمصارع الأولين والآخرين ، يجىء الدعاء بالهلاك، ويجىء الوعيد بالثبور : « ويل يومئذ للمـكذبين » . .

***

ومن الجولة فى المصارع والأشلاء ، إلى جولة فى الإنشاء والإحياء ، مع التقدير والتدبير ، للصغير وللكبير :

« ألم نخلقكم من ماء مهين؟فجعلناه فى قرار مكين؟إلى قدر معلوم ؟ فقدرنافنعم القادرون. ويل يومئذ للمكذبين » . .

وهى رحلة مع النشأة الجنينية طويلة عجيبة ، يجملها هنا فى لمسات معدودة . ماء مهين . يودع فى قرار الرحم المكين . إلى قدر معلوم وأجل مرسوم . وأمام التقدير الواضح فى تلك النشأة ومراحلها الدقيقة يجيء التعقيب الموحى بالحكمة العليا التى تتولى كل شىء بقدره فى إحكام مبارك جميل : « فقدرنا فنعم القادرون » وأمام التقدير الذى لايفلت منه شىء يجىء الوعيد المعهود : « ويل يومئذ للمكذبين » . .

* * *

ثم جولة فى هـذه الأرض ، وتقدير الله فيهـا لحياة البشر ، وإيداعها الخصائص الميسرة لهذه الحياة :

« ألم نجعل الأرض كفاتا ؟ أحياء وأمواتا ؟ وجعلنا فيهـا رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ؟ ويل يومئذ للمكذبين » .

ألم نجعل الأرض كفاتا تحتضن بنيها أحياء وأمواتا . « وجعلنا فيها رواسى شامخات » ثابتات سامقات ، تتجمع على قممها السحب ، وتنحدر عنها مساقط المـاء العذب . أفيكون هـذا إلا عن قدرة وتقدير ، وحكمة وتدبير ؟ أفبعد هـذا يكذب المكذبون ؟ : « ويل يومئذ للمكذبين ! » . .

* * *

وعندئذ ــ بعد عرض تلك المشاهد ، وامتلاء الحس بالتأثرات التى تسكبها فى المشاعر ــ ينتقل السياق فجأة إلى موقف الحساب والجزاء . فنسمع الأمر الرهيب للمجرمين المكذبين ، ليأخذوا طريقهم إلى العذاب الذى كانوا به يكذبون ، فى تأنيب مرير وإيلام عسير :

« انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب . لاظليل ولايغنى من اللهب . إنها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر . ويل يومئذ للمكذبين ! » . .

ذهبوا طلقاء بعد الارتهان والاحتباس فى يوم الفصل الطويل . ولكن إلى أين ؟ إنه

انطلاق خير منه الارتهان . . « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » . . فهاهو ذا أمامكم حاضر مشهود . « انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب » . . إنه ظل لدخان جهنم تمتد ألسنته فى ثلاث شعب . ولكنه ظل خير منه الوهج : « لاظليل ولايغنى من اللهب » . . إنه ظل خانق حار لافح . وتسميته بالظل ليست إلاامتدادا للتهكم ، وتمنية بالظل تتكشف عن حر جهنم !

انطلقوا . وإنكم لتعرفون إلى أين ! وتعرفونها هذه التى تنطلقون إليها . فلاحاجة إلى ذكر اسمها .. « إنها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر » .. فالشرر يتتابع فى حجم البيت من الحجر . (وقد كان العرب يطلقون كلمة القصر على كل بيت من حجر وليس من الضرورى أن يكون فى ضخامة مانعهد الآن من قصور) فإذا تتابع بدا كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك ! هذا هو الشرر فكيف بالنار التى ينطلق منها الشرر ؟ !

وفى اللحظة التى يستغرق فيها الحس بهذا الهول ، يجىء التعقيب المعهود : « ويل يومئذ للمكذبين ! » .

* * *

ثم يأخذ فى استكمال المشهد بعد عرض الهول المادى فى صورة جهنم ، بعرض الهول النفسى الذى يفرض الصمت والكظم ..

« هذا يوم لاينطقون . ولايؤذن لهم فيعتذرون » . .

فالهول هنا يكمن فى الصمت الرهيب ، والكبت الرعيب ، والخشوع المهيب ، الذى لايتخلله كلام ولايقطعه اعتذار . فقد انقضى وقت الجدل ومضى وقت الاعتذار : « ويل يومئذ للمكذبين » ! . . وفى مشاهد أخرى يذكر حسرتهم وندامتهم وحلفهم ومعاذيرهم . . واليوم طويل يكون فيه هذا ويكون فيه ذاك — على ماقال ابن عباس رضى الله عنهما — ولكنه هنا يثبت هذه اللقطة الصامتة الرهيبة ، لمناسبة فى الموقف وظل فى السياق .

* * *

« هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين ! » . .

هذا يوم الفصل لايوم الاعتذار . وقد جمعناكم والأولين أجمعين . فإن كان لكم تدبير فدبروه ، وإن كان لكم قدرة على شىء فافعلوه ! ولاتدبير ولاقدرة . إنما هو الصمت الكظيم ، على التأنيب الأليم . . ويل يومئذ للمكذبين ! » . .

* * *

فإذا انتهى مشهد التأنيب للمجرمين ، اتجه الخطاب بالتكريم للمتقين :

« إن المتقين فى ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزى المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين ! » . .

إن المتقين فى ظلال .. ظلال حقيقية فى هذه المرة ! لا ظل ذى ثلاث شعب لاظليل ولايغنى من اللهب ! وفى عيون من ماء لا فى دخان خانق يبعث الظمأ الحرور . « وفواكه مما يشتهون » . . وهم يتلقون فوق هذا النعيم الحسى التكريم العلوى على مرأى ومسمع من الجموع : « كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزى المحسنين » ويالطف هذا التكريم من العلى العظيم « ويل يومئذ للمكذبين ! » . . يقابل هذا النعيم والتكريم !

* * *

وهنا تعرض فى خطفة سريعة رقعة الحياة الدنيا التى طويت فى السياق فإذا نحن فى الأرض مرة أخرى . وإذا التبكيت والترذيل يوجهان للمجرمين !

« كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

وهكذا تختلط الدنيا بالآخرة فى فقرتين متواليتين، وفى مشهدين معروضين كأنهما حاضران فى أوان ،وإن كانت تفرق بينهما أزمان وأزمان . فبينما كان الخطاب موجها للمتقين فى الآخرة ، إذا هو موجه للمجرمين فى الدنيا . وكأنما ليقال لهم : اشهدوا الفارق بين الموقفين . . وكلوا وتمتعوا قليلا فى هذه الدار ، لتجرموا وتعذبوا طويلا فى تلك الدار . . « ويل يومئذ للمكذبين ! » .

* * *

ثم يتحدث معجبا من أمر القوم وهم يدعون إلى الهدى فلايستجيبون :

« وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون . ويل يومئذ للمكذبين ! » . .

مع أنهم يبصرون هذا التبصير ، وينذرون هذا النذير ..

« فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ » . .

والذى لايؤمن بهذا الحديث الذى يهز الرواسى ، وبهذه الهزات التى تزلزل الجبال ،

لايؤمن بحديث بعده أبدا . إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس ، والويل المدخر لهذا الشقى المتعوس !

* * *

إن السورة بذاتها ، ببنائها التعبيرى ، وإيقاعها الموسيقى ، ومشاهدها العنيفة ، ولذعها الحاد . . إنها بذاتها حملة لايثبت لها قلب ، ولايتماسك لها كيان .

فسبحان الذى نزل القرآن ، وأودعه هذا السلطان !

تم الجزء التاسع والعشرون ، ويليه الجزء الثلاثون
مبدوءا بقوله تعالى : « عم يتساءلون »

كتب للمؤلف

١ ــ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
٢ ــ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة خامسة)	» » » »
٣ ــ معركة الإسلام والرأسمالية	(» ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٤ ــ السلام العالمى والإسلام	(» ثانية)	مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعابدين
٥ ــ دراسات إسلامية	(» أولى)	مكتبة لجنة الشباب المسلم
٦ ــ التصوير الفنى فى القرآن	(» رابعة)	دار المعارف
٧ ــ مشاهد القيامة فى القرآن	(» ثالثة)	» »
٨ ــ المدينة المسحورة	(» ثانية)	» »
٩ ــ النقد الأدبى :أصوله ومناهجه	(» ثانية)	دار الفكر العربى
١٠ ــ أشواك	(» أولى)	دار سعد مصر بالفجالة
١١ ــ طفل من القرية	(» »)	لجنة النشر للجامعيين
١٢ ــ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	» » »
١٣ ــ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	» » »
١٤ ــ الشاطئ المجهول	(شعر)	... نفد
١٥ ــ كتب وشخصيات	(نقد)	... »
١٦ ــ مهمة الشاعر فى الحياة	(»)	... »
١٧ ــ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(»)	... »

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى — (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) — (٤) قافلة الرقيق (شعر)

